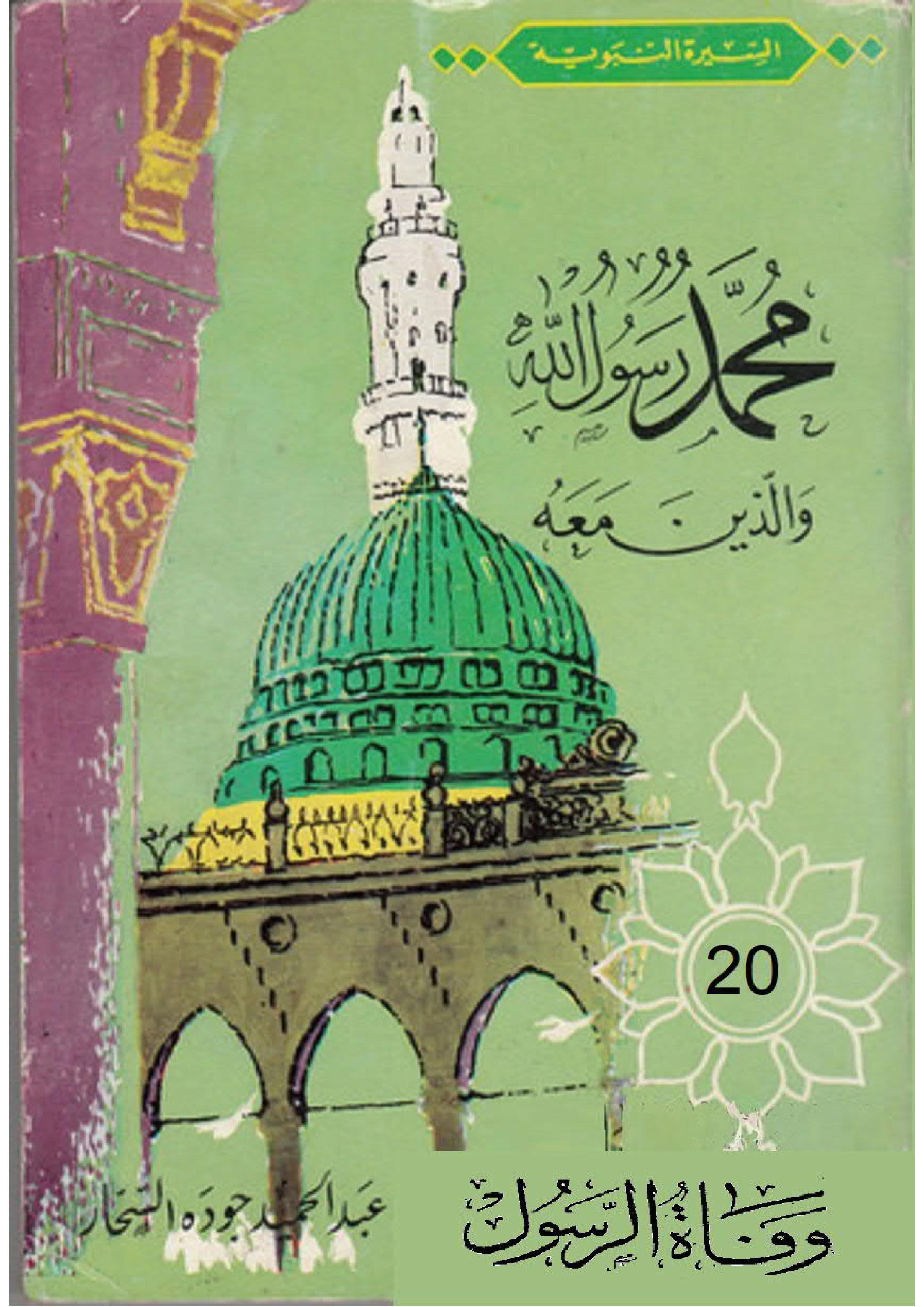

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
20
عبد الحميد جودة السحار
وفاة الرسول

السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه

وفاة الرسول

عبد الحميد جوده السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين * وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين ﴾

(قرآن كريم)

١

عاد رسول الله — ﷺ — إلى المدينة بعد أداء فريضة الحج ، وانطلق أبو موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل وجرير بن عبد الله البجلى إلى اليمن ومعهم الناس ، وصورة رسول الله — ﷺ — تملأ رءوسهم وصوته يسرى كالنسيم فى أغوارهم . كان أبو موسى يسترجع ما كان بينه وبين نبيه عليه السلام فى الحج ، بعثه — صلوات الله وسلامه عليه — إلى أرض قومه قبل الحج ، فلما علم بخروجه إلى مكة وافاه وهو نازل بالأبطح ، فقال — ﷺ — :

— أحججت يا عبد الله بن قيس ؟

— نعم يا رسول الله .

— كيف قلت ؟

— قلت لبيك إهلالا كإهلالك .

— فهل سقت معك هديا ؟

— لم أسق .

— فطف بالبيت واسع بين الصفا والمروة ثم حل .

وكان أبو موسى الأشعرى يصغى إلى رسول الله — ﷺ — هادئ النفس مطمئن الفؤاد ، وما دار بخلده أن ذلك كان آخر لقاء بينه وبين رسول الله — ﷺ — .

وأطرق معاذ بن جبل فراحت الذكريات تتدفق إلى رأسه ؛ إنه يرى نفسه يوم بعثه ـــ ﷺ ـــ وأبا موسى الأشعرى إلى اليمين ، بعث كل واحد منهما على مخلاف [١] ، واليمن مخلافان ، وراح صوت رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ يسرى فى عين ذاته :

ـــ يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا .

وتذكر معاذ ما قال أبو موسى فى ذلك اليوم :

ـــ يا نبى الله إن أرضنا بها شراب من الشعير المزر ، وشراب من العسل البتع [٢] .

ـــ كل مسكر حرام .

ورن فى جوف معاذ وصية نبى الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه :

ـــ إنك ستأتى قوما من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله فرض عليكم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم [٣] ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب .

ورأى معاذ نفسه وهو فى أرضه . كان قريبا من صاحبه أبى موسى فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه ، وإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس ،

---

(١) هو لليمن كالريف للعراق .

(٢) المزر : نبيذ الشعير . والبتع : نبيذ العسل .

(٣) كرائم جمع كريمة وهى النفيسة .

وإذا رجل عنده قد جمعت يداه إلى عنقه فقال له :

ـــ يا عبد الله بن قيس ، ما هذا ؟

ـــ يهودى أسلم ثم ارتد .

ـــ لا أنزل حتى يقتل .

ـــ إنما جيء به لذلك ، فانزل .

ـــ ما أنزل حتى يقتل .

فأمر به فقتل ، ثم نزل فقال :

ـــ يا عبد الله كيف تقرأ القرآن ؟

ـــ أتفوقه تفوقا (١) .

ـــ فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟

ـــ أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئى من النوم ، فأقرأ ما كتب الله لى فأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى (٢) .

وطاف بذهن معاذ ذلك اليوم الذى قدم فيه اليمن ؛ إنه صلى بالناس الصبح فقرأ سورة النساء فلما قال : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ قال رجل خلفه : قرّت عين أم إبراهيم . واستمرت الأفكار تنثال على رأس معاذ و لم يخطر له على قلب أن لقاءه رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى موسم الحج هو آخر لقاء بينهما إلى يوم الدين .

وانطلق جرير بن عبد الله البجلى على ظهر جواده ثابتا ، وكان لا يثبت على الخيل . إنه يذكر ذلك اليوم الذى قال له فيه نبى الإسلام عليه السلام : إلا تريحنى من ذى الخلصة ؟ إنه الكعبة اليمانية ، إنه بيت خثعم

---

(١) أى ألازم قراءته ليلا ونهارا شيئا بعد شيء . (٢) أى أطلب الثواب من نومتى .

بيت قومه، وإن قومه أصحاب خيل وهو لا يثبت على الخيل. فذكر ذلك للنبي — ﷺ — فضرب يده على صدره وقال: اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا. فما وقع عن فرس بعد.

ورأى جرير نفسه وهو ينطلق مسرعا فى مائة وخمسين راكبا، حتى إذا ما بلغوا الكعبة اليمانية دخلوا على ذى الخلصة فكسروه وقتلوا من وجدوا عنده، ورأى جرير أن يزف البشرى إلى نبى الإسلام، عليه السلام فبعث إليه رسولا من أحمس يكنى أبا أرطأة، فجاء رسول جرير إلى المدينة وقال لرسول الله ﷺ:

— والذى بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها كأنها جمل أجرب.

فقال رسول الله — ﷺ:

— اللهم بارك فى خيل أحمس ورجالها.

ولما قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقيم بالأزلام، فقيل له :

— إن رسول الله — ﷺ — ههنا، فإن قدر عليك ضرب عنقك.

فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال:

— لتكسرنها ولتشهدن أن لا إله إلا الله، أو لأضربن عنقك.

فكسرها وشهد.

كانت اليمن فى ملك الحبشة اثنتين وسبعين سنة، إلى أن قتلت الفرس مسروق بن أبرهة، فأقامت الفرس فى اليمن. وكان باذان عامل الفرس عليها لما أرسل رسول الله — ﷺ — كتابه إلى كسرى يطلب منه فيه أن يسلم، فكتب كسرى إلى باذان : أنه بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى، فسر إليه فاستتبه، فإن تاب وإلا فابعث إلى برأسه، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله — ﷺ، فكتب إليه رسول الله — ﷺ — إن الله قد وعدنى أن يُقتل

كسرى فى يوم كذا وكذا من شهر كذا .

فلما أتى باذان الكتاب توقف لينظر ، وقال : إن كان نبيا فسيكون ما قال. فقتل الله كسرى فى اليوم الذى قال رسول الله — ﷺ — قتل على يدى ابنه شيرويه . فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه من الفرس إلى رسول الله — ﷺ ، وكان ذلك سنة عشر من هجرته عليه السلام .

وجمع رسول الله — ﷺ — لباذان عمل اليمن كلها وأمره على جميع مخاليفها ، فلم يزل عامل رسول الله — ﷺ — أيام حياته ، فلم يعزله عنها ولا عن شيء منها ولا أشرك معه فيها شريكا ، حتى مات باذان ففرق عملها بين شهر بن باذان وعامر بن شهر الهمدانى وعبد الله بن قيس أبى موسى الأشعرى وخالد بن سعيد بن العاص والطاهر بن أبى هالة ويعلى بن أمية وعمرو بن حزم ، وعلى بلاد حضر موت زياد بن لبيد البياضى وعكاشة بن ثور . وبعث معاذ بن جبل ، أعلم أصحابه — ﷺ — بالحلال والحرام ، معلما لأهل البلدين اليمن وحضر موت .

استعمل — ﷺ — عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورِمَع ، وزبيد وعامر بن شهر على همدان ، وعلى صنعاء ابن باذان ، وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبى هالة ، وعلى مأرب أبا موسى الأشعرى ، وعلى الجند يعلى بن أبى أمية . وما كاد عمال رسول الله — ﷺ — يستقرون باليمن حتى هبت عواصف الفتن ، فاليمن كانت آخر بلاد العرب إسلاما وأول من ظهر فيها الكذبة والمرتدون .

٢

وهبت خديجة أم المؤمنين وحاضنة الإسلام لمحمد بن عبد الله قبل النبوة ، زيد بن حارثة فتبناه ـ ﷺ ـ وكان يقال له زيد بن محمد . فلما نزل ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ [١] قيل له زيد بن حارثة ، وكان حب رسول الله ـ ﷺ .

وتزوج زيد أم أيمن فكان أسامة بن زيد ثمرة ذلك الزواج ، فأحب رسول الله ـ صلوت الله وسلامه عليه ـ أسامة حبا عظيما ، فكان الحب ابن الحب . وقد أوغر ذلك صدور بعض المنافقين فزعموا أن أسامة ليس ابن زيد ، وبلغ ذلك الحديث المفترى مسامع رسول الله ـ ﷺ ـ فآذاه .

وحدث أن مجزز الأسلمى وكان قيافا ممن يستدلون بهيئة الإنسان وشكله على نسبته ، دخل فرأى أسامة بن زيد وزيدا وعليهما قطيفة قد غطيا رأسيهما وبدت أقدامهما ، فنظر إليهما مجزز الأسلمى وقال :

ـ إن هذه الأقدام بعضها من بعض .

فسرّ بذلك النبى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم .

---

(١) الأحزاب ٥ .

وشب أسامة فى بيت النبوة مع أولاد الرسول صلوات الله وسلامه عليه وبناته ، فكان من أهل البيت . فلما مرضت رقية بنت رسول الله — ﷺ — وكانت عند عثمان بن عفان ، خلفه عليه السلام عليها مع عثمان وخرج إلى ماء بدر ليعترض قافلة قريش .

وعندما خاض الناس فى حديث الإفك ورموا عائشة بالبهتان ، دعا — صلوت الله وسلامه عليه — على بن أبى طالب كرم الله وجهه وأسامة بن زيد فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى على عائشة خيرا ثم قال :

— يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلا خيرا ، وهذا الكـذب والباطل .

وأما علىّ فإنه قال :

— يا رسول الله إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها تصدقك .

ونزلت براءة عائشة من فوق سبع سماوات و لم تنس عائشة قول أسامة ولا قول على بن أبى طالب .

ويوم حنين يوم انتشر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد . ثبت أسامة بن زيد مع رسول الله — ﷺ — فيمن ثبت من المهاجرين وأهل البيت ، وراح يدافع عن نبيه وحبيبه والعباس بن عبد المطلب يصرخ :

— يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السَّمُرة .

والأصوات تأتى من كل جانب كأنها البشرى :

— لبيك ، لبيك .

إن أسامة قد أبلى ذلك اليوم بلاء حسنا ، حتى جاء الله بالنصر ..

وخرج أسامة فى غزوة غالب بن عبد الله أرض بنى مرة ، فرأى مرداس

بن نهيك فأدركه هو ورجل من الأنصار ، فلما شهرا عليه السلاح قال :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله .

فلم يتركاه حتى قتلاه ، فلما قدموا على رسول الله ـــ ﷺ ـــ أخبراه خبره فقال :

ـــ يا أسامة من لك بلا إله إلا الله ؟

ـــ يا رسول الله إنه إنما قالها تعوذا بها من القتل .

ـــ فمن لك بها يا أسامة ؟

فو الذى بعثه بالحق ما زال يرددها على أسامة حتى لود أن ما مضى من إسلامه لم يكن ، وأنه كان أسلم يومئذ وأنه لم يقتله ، قال :

ـــ أنظرنى يا رسول الله ، إنى أعاهد الله ألا أقتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا .

وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يرى أن وجود الروم بالشام يهدد الإسلام فى جزيرة العرب ، فهرقل بعد أن أعطى من طرف لسانه حلاوة لما بعث إليه ـــ صلوات الله وسلامة عليه ـــ كتابه مع دحية الكلبى ، عاد وجمع الجموع ليغزو المسلمين . فلما بلغ ذلك رسول الله ـــ عليه صلوات الله وسلامه ـــ لم ينتظر حتى يفجأه الروم فى المدينة . بل بعث جيشه إلى مؤتة واستعمل على المسلمين زيد بن حارثة ، وقال :

ـــ إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس .

ونزل المسلمون معان من أرض الشام وكانوا ثلاثة الآلاف ، ونزل هرقل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلّى مائة ألف . لم تكن القوى متكافئة . ورأى

أناس أن يكتبوا إلى رسول الله — ﷺ ، ولكن عبد الله بن رواحة شجع الناس وقال :

— يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنين : إما ظهور وإما شهادة .

فقال الناس :

— قد والله صدق ابن رواحة .

فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب ، بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف . ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ، ثم التقى الناس واقتتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله — ﷺ — حتى شاط فى رماح القوم .

ثم أخذها جعفر فقاتل بها ، حتى إذا ألجمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها . ثم قاتل القوم حتى قتل ، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر فى الإسلام .

وأخذ عبد الله بن رواحة الراية فقاتل حتى قتل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد . فلما أخذ الراية دافع القوم ، وخشى على المسلمين قلة عددهم فانسحب بهم فى أمان .

وعاد الجيش إلى المدينة فجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون :

— يا فرار ، فررتم فى سبيل الله .

فيقول رسول الله — ﷺ :

— ليسوا بالفرار . ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

ولم ينس رسول الله — ﷺ — يوم مؤتة ولا الخطر الذى يهدد الإسلام فى الشام . فرأى أن يوجه أنظار المسلمين إلى ذلك الخطر . فلما قفل من حجة البلاغ أقام بالمدينة بقية ذى الحجة والمحرم وصفر . وضرب على الناس بعثا إلى الشام ، ولما كان زيد بن حارثة أمير المسلمين فى مؤتة ، فقد رأى رسول الله — ﷺ — أن يكرمه فى ولده فدعا — ﷺ — أسامة بن زيد فقال :

— سر إلى موضع قتل إبيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فاغز صباحا وأسرع السير لتسبق الأخبار ، فإن ظفرك الله عليهم ، فأقل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك .

وعقد — ﷺ — لأسامة لواء بيده ثم قال :

— اغز بسم الله وفى سبيل الله ، وقاتل من كفر بالله .

فخرج أسامة بلوائه معقودا ، فدفعه إلى بريدة وعسكر بالجرف ، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا اشتد لذلك ، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص .

وفى جوف الليل قال رسول الله — ﷺ — لمولاه أبى مويهبة :

— إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معى .

فانطلق معه إلى حيث ترقد زينب ورقية وأم كلثوم وإبراهيم والمسلمون الأحبة الأعزاء ، فلما وقف بين أظهرهم قال :

— السلام عليكم يأهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، لو تعلمون ما نجاكم الله منه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الأخيرة شر من الأولى .

ثم أقبل على أبى مويهبة وقال :

ـــ يا أبا مويهبة إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، خيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة ، فاخترت لقاء ربى والجنة .

ـــ بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة .

ـــ لا والله يا أبا مويهبة . لقد اخترت لقاء ربى والجنة .

ثم استغفر لأهل البقيع ثم رجع إلى أهله ، فوجد عائشة وهى تجد صداعا فى رأسها وهى تقول :

ـــ وارأساه .

ـــ وما يضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك .

ـــ واثكلاه ، والله إنك لتحب موتى ، فلو كان ذلك لظللت يومك معرسا ببعض أزواجك .

فتبسم رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقال :

ـــ بل أنا وارأساه .

وراح أناس يتكلمون فى إمارة أسامة ويقولون :

ـــ يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين والأنصار ؟

كان سن أسامة سبع عشرة سنة ، ولما بلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ مقالتهم وطعنهم فى ولايته مع حداثة سنة غضب ـــ ﷺ ـــ غضبا شديدا ، وقد عصب رأسه عصابة وعليه قطيفة وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـــ أما بعد أيها الناس، فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة؟ ولئن طعنتم فى تأميرى أسامة لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبله. وايم الله إن كان خليقا بالإمارة، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان من أحب الناس إلى، وإنهما مظنة لكل خير، فاستوصوا به خيرا فإنه من خياركم.

٣

كان عمرو بن حزم عامل رسول الله ــ ﷺ ــ على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص عامله على ما بين نجران ورمَع وزبيد ، وكان معاذ بن جبل يطوف باليمن ويأتى إلى نجران يعلم الناس دينهم ، فبينا كان الولاة يقومون بتوزيع الجند ويقيمونهم على ما ينبغى ويكتبون بينهم الكتب ، إذ جاء كتاب من الأسود : « أيها المتوردون علينا ، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ووفروا ما جمعتم ، فنحن أولى به ، وأنتم على ما أنتم عليه ».

فقالوا للرسول :

ــ من أين جئت ؟

ــ من كهف جُنَّان .

كان عبهلة بن كعب وهو الأسود كاهنا ولد فى كهف جُنَّان ، وكانت داره ، وكان يرى قومه الأعاجيب ويسبى قلوب من سمع منطقه . فلما جاء الخبر بعد حجة الإسلام أن رسول الله ــ ﷺ ــ مريض ، ادعى الأسود النبوة . فكاتبته مذحج وواعده نجران ، فجمع الجموع فكان معه سبعمائة فارس سوى الركبان ، وكان قواده قيس بن عبد يغوث المرادى ومعاوية بن قيس الجنبى ويزيد بن محرم ويزيد بن حصن الحارثى ويزيد بن الأفكل الأزدى .

وانطلق الأسود إلى نجران ، وما انقضى عشرة أيام مذ ادعى النبوة حتى

كان قد استولى عليها وأخرج عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص ونزل منزلهما ، ووثب قائده قيس بن يغوث على فروة بن مُسَيك وهو على مراد فأجلاه ونزل منزله ، فلم يتريث عبهلة بنجران بل سار إلى صنعاء فخرج إليه شهر بن باذان والى رسول الله — ﷺ — عليها ، فكان بين المسلمين وبين المرتدين قتال ، وقتل الأسود شهرا وهزم المسلمين ، وغلب على صنعاء لخمس وعشرين ليلة من خروجه .

وكتب فروة بن مُسَيك إلى نبى الإسلام ﷺ — بردَّة الأسود ومذحج ، وكان عليه السلام فى بدء مرضه ، فلم يشغله المرض عن ذلك الخطر الذى يهدد الإسلام فى الجنوب ، فأرسل إلى نفر من المسلمين رسولا وكتب إليهم أن يحاولوه وأمرهم أن يستنجدوا رجالا قد سماهم من بنى تميم وقيس ، وأرسل إلى أولئك النفر أن ينجدوهم .

وخرج معاذ هاربا حتى مر بأبى موسى وهو بمأرب فاقتحما حضر موت ، فأما معاذ فإنه نزل بالسكون ، وأما أبو موسى فإنه نزل فى السكاسك مما يلى المغور والمفازة بينهم وبين مأرب ، وانحاز سائر أمراء اليمن إلى الطاهر وكان على عك والأشعريين ، إلا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص فإنهما رجعا إلى المدينة .

وغلب الأسود على ما بين صهيد مفازة حضر موت إلى عمل الطائف إلى البحرين قبل عدن ، وجعل يستطير استطارة الحريق حتى صفا له ملك اليمن ، وكان خليفته على مذحج عمرو بن معديكرب ، وأسند أمره إلى نفر ، فأما أمر جنده إلى قيس بن عبد يغوث ، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز ودازويه . فلما أثخن فى الأرض استخف بقيس وبفيروز ودازويه وتزوج امرأة شهر بن باذان وهى ابنة عم فيروز ، وقد كرهته امرأة شهر

كراهية شديدة .

وكان المسلمون وأمراء المسلمين فى حضر موت لا يأمنون أن يسير إليهم الأسود أو يبعث إليهم جيشا أو يخرج بحضر موت خارج يدعى بمثل ما ادعى به الأسود ، وتزوج معاذ إلى بنى بكرة ، حىّ من السكون ، امرأة أخوالها بنو زنكبيل يقال لها رملة ، فحدبوا لصهره على أمراء المسلمين . وإذا برسل رسول الله — ﷺ — يقبلون ، إنه عليه السلام بعث وبر بن يُحنس إلى فيروز وجشيش الديلمى وداذويه ، وبعث جرير بن عبد الله إلى ذى الكلاع وذى ظليم ، وبعث الأقرع بن عبد الله الحميرى إلى ذى زود وذى مران ، وبعث فرات بن حيان العجلى إلى ثمامة بن أثال ، وبعث زياد ابن حنظلة التميمى ثم العمرى إلى قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر ، وبعث صلصل بن شرحبيل إلى سبرة العنبرى ووكيع الدارمى وإلى عمرو بن المحجوب العامرى وإلى عمرو بن الخفاجى من بنى عامر ، وبعث ضرار بن الأزور الأسدى إلى عوف الزرقانى من بنى الصيداء وسنان الأسدى ثم الغنمى وقضاعى الديلمى ، وبعث نعيم بن مسعود الأشجعى إلى ابن ذى اللحية وابن مشيمصة الجبيرى .

وقدم وبر بن يحنس بكتاب النبى — ﷺ — على جشيش بن الديلمى يأمر المسلمين فيه بالقيام على دينهم والنهوض فى الحرب والعمل فى الأسود إما غيلة وإما مصادمة ، وأن يبلغوا عنه من رأوا أن عنده نجدة ودينا . فراح المسلمون يدبرون أمرهم فوجدوا أن الأسود قد تغير لقائده قيس بن عبد يغوث ، فرأوا فيه العون ، فدعوه وأنبأوه الشأن وأبلغوه عن النبى — ﷺ — فكأنما وقعوا عليه من السماء ، كان يخاف على دمه وكان فى غم وضيق بأمره ، فأجابهم إلى ما أحبوا من ذلك .

وراح وبر بن يحنس يكاتب الناس ويدعوهم لنصرة دينهم ، ودخل على الأسود رجل وأفضى إليه بمخاوفه من قيس ، فأرسل الأسود إلى قيس وقال :

— ما يقول هذا ؟

— وما يقول ؟

— يقول عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل وصار فى العز مثلك ، مال ميل عدوك وحاول ملكك وأضمر على الغدر . إنه يقول يا أسود يا أسود يا سوأة يا سوأة اقطف قُنَّته وخذ من قيس أعلاه، وإلا سلبك أو قطف قُنَّتك .

وحلف به قيس وقال :

— لأنت أعظم فى نفسى وأجل عندى من أن أحدث بك نفسى .

— ما أحفاك ! أتكذب الملك ؟! قد صدق الملك الآن أنك تائب مما اطلع عليه منك .

ثم خرج قيس وأتى جشيش وفيروز وداذويه وقص عليهم ما كان بينه وبين الأسود ، ثم قال :

— فما الرأى ؟

— نحن على حذر .

وبينا هم يتحاورون أرسل إليهم الأسود فقال :

— ألم أشرفكم على قومكم ؟ ألم يبلغنى عنكم ؟

فقالوا فى رجاء :

— أقلنا مرَّتنا هذه .

— لا يبلغنى عنكم فأقيلكم .

فنجوا و لم يكادوا وهو فى ارتياب من أمرهم وأمر قيس ، وهم فى ارتياب وخطر عظيم .

كان معاذ لما جاء إليه رسل النبى — صلوات الله وسلامه عليه — قد قام ليجمع الناس لمصادمة الأسود ، فاعترض عامر بن شهر وذو زود وذو مران وذو الكلاع وذو ظليم على الأسود ، وكاتبوا قيس وجشيش وفيروز وداذويه وبذلوا لهم النصر ، فكاتبوهم وأمروهم أن لا يحركوا شيئا حتى يبرموا الأمر .

وكتب النبى — صلوات الله وسلامه عليه — إلى أهل نجران ، إلى عربهم وساكنى الأرض من غير العرب ، فثبتوا وشقوا عصا الطاعة وانضموا إلى مكان واحد ، فأحس الأسود أن الأرض لم تعد ثابتة تحت قدميه .

وانسل فيروز إلى آزاد ابنة عمه وزوجة الأسود فقال :

— يا ابنة عم ، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك ، قتل زوجك وطأطأ فى قومك القتل وسفل بمن بقى منهم وفضح النساء ، فهل عندك من ممالأة عليه ؟

— على أى أمره ؟

— إخراجه أو قتله .

فشردت آزاد برهة ثم قالت :

— أو قتله . نعم والله ما خلق الله شخصا أبغض إلى منه . ما يقول لله على حق ولا ينتهى له عن حرمة ، فإذا عزمتم فأعلمونى بمأتى هذا الأمر فأخرج .

وخرج الأسود على قيس وفيروز وداذويه فى جمع فقاموا مثولا له ،

وبالباب مائة ما بين بقرة وبعير . وخط خطًا فأقيمت من ورائه وقام من دونها فنحرها غير محبسة ولا معلقة ما يقتحم الخط منها شيء ، ثم خلاها فجالت والدماء تسيل منها حتى فاضت روحها ، فما رؤى أمر كان أفظع منه ولا يوم أوحش منه .

والتفت الأسود إلى فيروز ثم قال :

ـــ أحق ما يلغنى عنك يافيروز ؟

وبوأ له الحربة وقال :

ـــ لقد هممت أن أتحرك فأتبعك هذه البهيمة .

ـــ اخترتنا لصهرك وفضلتنا على الأبناء ، فلو لم تكن نبيا ما بعنا نصيبنا منك بشيء ، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر آخرة ودنيا ؟! لا تقبلن علينا أمثال ما يبلغك ، فإنا بحيث تحب .

ونظر الأسود إلى البقر والبعير التى نحرها وقال داذويه :

ـــ اقسم هذه فأنت أعلم بمن ها هنا .

فاجتمع إلى داذاويه أهل صنعاء وجعل يأمر للرهط بالجزور ، ولأهل البيت بالبقرة ، ولأهل الحلة بعدة ، حتى أخذ أهل كل ناحية بقسطهم .

واجتمع قيس وفيروز وداذويه يديرون قداح الرأى بينهم . إنهم فى خطر والأسود فى ارتياب من أمرهم فهو قاتلهم إن لم يقتلوه ، فأجمع ملؤهم أن يعود داذويه إلى ابنة عمه آزاد فيخبرها بعزيمتهم لتخبرهم بما تأمر ، فأتى داذويه آزاد وقال :

ـــ ما عندك ؟

ـــ هو متحرز متحرس وليس من القصر شيء إلا والحرس محيطون به ؛ غير هذا البيت فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق ، فإذا أمسيتم

فانقبوا عليه فإنكم من دون الحرس وليس دون قتله شيء .

والتقطت آزاد نفسا طويلا ثم قالت :

ـــ إنكم ستجدون فيه سراجا وسلاحا .

فخرج داذويه فتلقاه الأسود خارجا من بعض منازله فقال له :

ـــ ما أدخلك عليّ ؟

ووجأ رأسه حتى سقط وكان شديدا ، وصاحت آزاد فأدهشته عنه ولولا ذلك لقتله ، وقالت :

ـــ ابن عمى جاءنى زائرا فقصرت بى .

ـــ اسكتى لا أبا لك فقد وهبته لك .

وانسحب داذويه ترتعد فرائصه رعبا ، فأتى أصحابه فقال :

ـــ النجاة .. الهرب .

وأخبرهم الخبر وإنهم على ذلك حيارى إذجاء داذويه رسولها : لا تدعن ما فارقتك عليه ، فإنى لم أزل به حتى اطمأن .

قال داذويه لفيروز :

ـــ ائتها فتثبت منها ، فأما أنا فلا سبيل لى إلى الدخول بعد النهى .

فانسل فيروز إلى القصر وراحت آزاد توضح له ما ينبغى عليهم فعله ، كان فيروز أفطن من داذويه ، فلما أخبرته قال :

ـــ وكيف ينبغى لنا أن ننقب على بيوت مبطنة ، ينبغى لنا أن نقلع بطانة البيت .

فدخلا البيت فاقتلعا البطانة ثم أغلقاه وجلس عندها كالزائر . فدخل عليها الأسود فاستخفته غيرة ، وأخبرته برضاع وقرابة منها عنده محرم ، فصاح به وأخرجه .

وانطلق فيروز إلى أصحابه وراح يقص عليهم ما كان منه ومن آزاد، فلما أمسوا عملوا فى أمرهم وقد أبلغوا أشياعهم وعجلوا عن مراسلة الهمدانيين والحميريين ، فنقبوا البيت من خارج ثم دخلوا وفيه سراج تحت جفنة ، واتقوا بفيروز وكان أنجدهم وأشدهم فقالوا له :

— انظر ماذا ترى ؟

فخرج وأصحابه بينه وبين الحرس معه فى مقصورة ، فلما دنا من باب البيت سمع غطيطا شديدا . وإذا آزاد جالسة فانقض فيروز عليه فعاجله فخالطه وهو مثل الجمل ، فأخذ برأسه فقتله فدق عنقة ووضع ركبته فى ظهره فدقه ، ثم قام ليخرج فأخذت آزاد بثوبه وهى ترى أنه لم يقتله ، فقالت فى فزع :

— أين تدعنى ؟

— أخبر أصحابى بمقتله .

وأتى قيس وداذويه فقاما معه ، فأرادوا حز رأسه فجلسوا على صدره وأخذت آزاد بشعره وسمعوا بربرة فأمر فيروز الشفرة على حلقه ، فخار أشد خوار ثور سمع قط ، فابتدر الحرس الباب وهم حول المقصورة . فقالوا :

— ما هذا ؟ ما هذا ؟

فقالت آزاد :

— النبى يوحى إليه .

وخمد الأسود ، ثم سمر قيس وفيروز وداذويه ليلتهم وهم يأتمرون كيف يخبرون أشياعهم ، فاجتمعوا على النداء بشعارهم الذى بينهم وبين أشياعهم ثم ينادى بالأذان . فلما طلع الفجر نادى داذويه بالشعار ففزع

المسلمون والكافرون ، وتجمع الحرس فأحاطوا بقيس وفيروز وداذويه ، ثم نادى فيروز بالأذان فإذا بأشياعهم يقبلون على ظهور الجياد وإذا بالحرس يتأهبون للقتال ، فنادى فيروز :

ـــ أشهد أن محمدا رسول الله ، وأن عبهلة كذاب .

وألقوا إلى أتباع الأسود برأسه فانخلعت قلوبهم رعبا ، وأقام وبر بن يُحنّس الصلاة ، وشنها القوم غارة ونادى فيروز وأصحابه :

ـــ يا أهل صنعاء من دخل عليه داخل فتعلقوا به ، ومن كان عنده منهم أحد فتعلقوا به .

ونادو بمن فى الطريق :

ـــ تعلقوا بمن استطعتم .

فاختطف أتباع الأسود صبيانا كثيرين وانتهبوا ما انتهبوا ثم مضوا خارجين ، فلما برزوا فقدوا منهم سبعين فارسا وركبانا ، وإذا أهل الدور والطرق وقد وافوا فيروز وصحبه بهم ، وفقد المسلمون سبعمائة عَيِّل ، فتراسلوا على أن يترك أصحاب الأسود ما فى أيديهم وأن يترك أصحاب محمد ـــ ﷺ ـــ ما فى أيديهم ، ففعلوا . وخرج أصحـاب الأسود العنسى يترددون فيما بين صنعاء ونجران ، وخلصت صنعاء والجند ، وأعز الله الإسلام وأهله وتنافسوا الإمارة ، وتراجع أصحاب النبى ـــ ﷺ ـــ إلى أعمالهم فاصطلحوا على معاذ بن جبل فكان يصلى بهم .

وقتل الأسود العنسى ولكن استتب الأمر لمسيلمة فى اليمامة ، ووثب طليحة فى بلاد أسد وادعى النبوة وأقبلت الفتن كقطيع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الأخيرة شر من الأولى .

٤

كان طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة الأسدى يعد بألف فارس ، وكان كاهنا فكانت نفسه مستعدة للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التى فوقها . وكانت قوته العقلية تتحرك حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثها النزع لذلك ، فكان يتشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنح من طير أو حيوان ، فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعينا بـه فى ذلك الانسلاخ الذى يقصده .

وكانت نفس طليحة مفطورة على النقص والقصور عن الكمال ، فكان إدراكها فى الجزيئات أكثر من الكليات ، لذلك كانت المخيلة فيه فى غاية القوة لأنها آلة الجزيئات فتنفذ فيها نفوذا تاما فى نوم أو يقظة ، وكان يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالإدراك وتمويها على السائلين .

لم يكن هناك اتصال من ذاته بالملأ الأعلى ، ولم يكن قـادرا على الانسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة فى لحظة أقرب من لمح البصر كما هو شأن الأنبياء ، ولكنه استطاع بسجعه وظنونه وتخميناته أن يستولى على أفئدة قومه .

رأى طليحة أن اليمامة قد دانت لمسيلمة ، وأن اليمن أسلمت قيادها

للأسود العنسى ، وعلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ مريض فتحركت مطامعه وراح يقنع نفسه أن كهانته إن هى إلا نبوة ، فأعلن على الملأ نبوته .

وفتن طليحة عوام وقومه فآمنوا به وصار له جيش من المخدوعين فعسكر بسميراء واستكثف أمره . وكان سنان بن أبى سنان عامل رسول الله ـ ﷺ ـ على بنى مالك ، فكتب إلى النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بخبر ذلك الكذاب الجديد .

وبلغ كتاب سنان رسول الله ـ ﷺ ـ وهو مريض ، فلم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله عز وجل والذب عن دينه ، فبعث الرسل إلى أنصار الإسلام فى اليمن ليصاولوا الكذاب ويقضوا على فتنته ، ووجه ضرار بن الأزور إلى عماله على بنى أسد فى ذلك وأمرهم بالقيام فى ذلك على كل من ارتد فأشجعوا طليحة وأخافوه . ونزل المسلمون بواردات ونزل المشركون بسميراء ، فما زال المسلمون فى نماء والمشركون فى نقصان حتى هم ضرار بالمسير إلى طليحة ، فلم يبق إلا أخذه سلمًا ، إلا ضربة كان ضربها بالجراز فنبا عنه فشاعت فى الناس . وقال ناس من الناس لتلك الضربة :

ـ إن السلاح لا يحيك فى طليحة .

وارفضّ الناس إلى طليحة واستطار أمره ، وأقبل ذو الخمار ابن عوف الجذمى حتى نزل بإزاء المسلمين . وأرسل إليه ثمامة بن أوس بن لام الطائى :

ـ إن معى من جديلة خمسمائة ، فإن دهمكم أمر فنحن بالقردورة والأنسر دُوَين الرمل :

وأرسل إليه مهلهل بن زيدان :

— معى حد الغوث ، فإن دهمكم أمر فنحن بالأكتاف بحيال قَيْد ، وإنما تحذَّبت طيئ على ذى الخمار بن عوف أنه كان بين أسد وغطفان وطيئ حلف فى الجاهلية ، فلما كان قبل مبعث النبى — ﷺ — اجتمعت غطفان وأسد على طيئ فأزاحوها عن دارها فى الجاهلية : غوثها وجديلتها ، فكرة ذلك عوف فقطع ما بينه وبين غطفان وتتابع الحيان على الجلاء ، وأرسل عوف إلى الحيين من طيئ فأعاد حلفهم وقام بنصرتهم فرجعوا إلى دورهم .

كان جيش أسامة قد اجتمع بالجُرف ، وكان رسول الله — ﷺ — قد قال : أنفذوا بعث أسامة . ولكن ظهور طليحة وادعاؤه النبوة ، واشتداد المرض برسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — جعل الناس يتمهلون .

وكان طليحة فى قرارة نفسه يؤمن أن محمد — ﷺ — رسول الله ، ولكن قوة مطامعه فى النبوة جعلته يرجو أن يكون شريكا فى الأمر مثله مثل مسيلمة ، فرأى أن يبعث حبال ابن أخيه إلى نبى الإسلام عليه السلام يدعوه إلى الموادعة ويخبره خبره .

واجتمع عند رسول الله — ﷺ — رجال ، فقال — ﷺ :

— هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بغده .

فقال عمر بن الخطاب :

— إن رسول الله — ﷺ — غلبه الوجع وعندكم القرآن.وإنما قال ذلك تخفيفا على رسول الله — ﷺ ، فارتفعت أصواتهم ، فأمرهم بالخروج من عنده . وخرج على بن أبى طالب كرم الله وجهه ،

فقال الناس :

ــ يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ــ ﷺ ؟

ــ أصبح بحمد الله بارئا .

فأخذ العباس بيده وقال له :

ــ والله أنت بعد ثلاث عبد العصى ، وإنى لا أرى رسول الله ــ ﷺ ــ من وجعه هذا بعد ثلاث إلا ميتا ، فإنى رأيت فى وجهه ما كنت أعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فاذهب بنا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فنسأله فيمن هذا الأمر ، فإذا كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا كلمناه فأوصى بنا .

فقال على كرم الله وجهه :

ــ لا أسألها رسول الله ــ ﷺ .

وبلغ حبال رسول طليحة وابن أخيه إلى المدينة ، فألفى الناس واجمين لمرض رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ، فراح يتقدم من المسجد وهو مضطرب يخفق قلبه رهبة . وأراد أن يسكن روعه فراح يعيد فى ذاكرته ما كان بين رسول الله ــ ﷺ ــ ورسولى مسيلمة الحنفى .

كان مسيلمة قد ادعى النبوة فى اليمامة قبل أن يدعيها عمه طليحة ، وقد كتب إلى رسول الله ــ ﷺ : أما بعد فإنى قد أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم يعتدون .

وقدم عليه رسولان لمسيلمة بهذا الكتاب ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ لهما حين قرأ كتابه :

ــ فما تقولان أنتما ؟

ــ نقول كما قال .

ـــ أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما .

وراح حبال يردد فى عين ذاته : إن محمدا لا يضرب أعناق الرسل . لعل ذلك الخوف الذى استبد به ينقشع . ولكن فرائصه كانت ترتعد وإن بذل غاية الجهد ليبدو هادئا تطوف به سكينة .

واستأذن حبال فى الدخول على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأذن له ، فدخل مضطرب الخطو زائغ البصر تسرى فى بدنه قشعريرة وهو يحاول أن يجمع شتات نفسه التى ذهبت شعاعا ، فإنه مقبل على نبى أقر بنبوته مسيلمة وعمه طليحة ، وقد زعما أنهما أشركا فى الأمر معه .

وألقى حبال السلام على رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقال :

ـــ أنا ابن خويلد .

وأفرخ روعه ، فراح يقص على رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما كان من أمر عمه طليحة وكيف أن الناس اتبعوه وكيف استكثف أمره ، وطفق يدعو رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى الموادعة ، فقال النبى ـــ ﷺ :

ـــ قتلك الله وحرمك الشهادة .

فقام حبال بن خويلد من عنده يضطرب كريشة فى مهب رياح عاتية ، يحس ضيقا فى صدره كأنما قد خرت عليه جبال المدينة .

٥

جاء رسول الله ـــ ﷺ ـــ ابن عمه الفضل بن العباس ، فخرج إليه فوجده موعوكا قد عصب رأسه ، فقال عليه السلام :

ـــ خذ بيدى يا فضل .

فأخذ بيده حتى جلس ـــ ﷺ ـــ على المنبر ، ثم قال :

ـــ ناد فى الناس .

فاجتمعوا إليه فقال :

ـــ أما بعد ، أيها الناس فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأنه قد دنا منى حقوق من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه . ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه . ألا وإن الشحناء ليس من طبعى ولا من شأنى . ألا وإن أحبكم إلىّ من أخذ منى حقا إن كان له أو حلّلنى فلقيت الله وأنا أطيب النفس . وقد أرى أن هذا غير مُغن عنى حتى أقوم فيكم مرارا .

ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقالته الأولى فى الشحناء وغيرها ، فقام رجل فقال :

ـــ يا رسول الله إن لى عندك ثلاثة دراهم .

ـــ أعطه يا فضل .

فأمره الفضل فجلس ، ثم قال ـــ ﷺ :

— أيها الناس ، من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل فُضوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة .

فقام رجل فقال :

— يا رسول الله عندى ثلاثة دراهم غللتها فى سبيل الله .

— ولم غللتها ؟

— كنت إليها محتاجا .

— خذها منه يا فضل .

ثم قال :

— يا أيها الناس ، من خشى من نفسه شيئا فليقم أدع له .

فقام رجل فقال :

— يا رسول الله إنى لكذاب .. إنى لفاحش وإنى لنئوم .

— اللهم ارزقه صدقا وإيمانا ، وأذهب عنه النوم إذا أراد .

ثم قام رجل فقال :

— والله يا رسول الله إنى لكذاب وإنى لمنافق وما شيء إلا قد جنيته .

فقام عمر بن الخطاب فقال :

— فضحت نفسك أيها الرجل .

فقال النبى — ﷺ — :

— يا بن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة . اللهم ارزقه صدقا وإيمانا . وصير أمره إلى خير .

وصار — ﷺ — يدور على نسائه واشتد به المرض عند ميمونة ، فصار يقول :

— أين أنا اليوم . أين أنا غدا ؟

استبطاء ليوم عائشة . وبعث إلى نسائه فاجتمعن فقال :

ـــ إنى لا أستطيع أن أدور بينكن ، فإن رأيتن أن تأذنّ لى فأكون فى بيت عائشة فعلتن .

فأذن له ، فخرج رسول الله ـــ ﷺ ـــ يمشى بين على بن أبى طالب والفضل بن العباس معتمدا عليهما عاصبا رأسه ، تخط قدماه الأرض حتى دخل بيت عائشة .

واشتد برسول الله ـــ ﷺ ـــ وجعه فقال :

ـــ هريقوا على من سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس .

فأقعدوه ـــ ﷺ ـــ فى مخضب ـــ إناء من حجر ـــ ثم صبوا عليه الماء حتى طفق يقول :

ـــ حسبكم . حسبكم .

فخرج رسول الله ـــ ﷺ ـــ عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر ، ثم كان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أحد ، فأكثر الدعاء لهم واستغفر لهم ثم قال :

ـــ إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله ، فاختار ذلك العبد ما عند الله .

ففهمها أبو بكر وعرف أن نفسه يريد ، فبكى وقال :

ـــ بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا .

ـــ على رسلك يا أبا بكر .

ثم قال :

ـــ انظروا هذه الأبواب اللافظة فى المسجد فسدوها إلا بيت أبى بكر ، فإنى لا أعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة عندى يدا منه .

فقال عمر :

ــ يا رسول الله دعنى أفتح كوة أنظر إليك حيث تخرج إلى الصلاة .

ــ لا .

وكان لكل بيت بابان ، باب يفتح للمسجد وباب يفتح خارجه ، فسدت جميع الأبواب إلا باب أبى بكر .

ثم قال رسول الله ــ ﷺ :

ــ يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا ، إنهم كانوا عيبتى التى أويت إليهم ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم .

ونزل ــ ﷺ ــ ودخل بيت عائشة ، وغشى الليل وقام بلال يؤذن بالعشاء ، ومس الأذان أذنى رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فأراد أن يذهب فأغمى عليه ، ثم أفاق فقال :

ــ أصلّى الناس ؟

ــ لا ، هم ينتظرونك .

ــ ضعوا لى ماء فى المخضب فأغتسل .

ثم أراد أن يذهب فأغمى عليه ، ثم أفاق فقال :

ــ أصلى الناس ؟

ــ لا ، هم ينتظرونك .

وأراد أن يذهب ، فأغمى عليه ثم أفاق فقال :

ــ أصلى الناس ؟

ــ لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله .

ثم أراد أن يذهب فأغمى عليه والناس ملمومة فى المسجد ينتظرون النبى ــ ﷺ ــ لصلاة العشاء الآخرة، ودخل بلال عليه ــ ﷺ ــ

فقال:

ـــ الصلاة يا رسول الله .

ـــ لا أستطيع الصلاة خارجا ، مروا أبا بكر فليصل بالناس .

فقالت عائشة :

ـــ إن أبا بكر رجل أسيف (رقيق القلب) ، إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء .

فقال ـــ ﷺ :

ـــ مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس .

وكأنما أرادت عائشة أن تؤكد إمامة أبيها فعادت تقول :

ـــ إنه رجل أسيف .

ـــ مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس .

فقالت عائشة لحفصة :

ـــ قولى له إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء ، فمر عمر فليصل بالناس .

ففعلت حفصة فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لحفصة :

ـــ مه ، إنكن صواحب يوسف .

كانت عائشة فى قرارة نفسها تحب أن يقوم أبوها مقام رسول الله ـــ ﷺ ، ولكنها أخفت ما فى سريرتها كما فعلت النسوة اللاتى رأين يوسف لما دعتهن امرأة العزيز لينظرن إلى جمال يوسف فيعذرنها فى حبه ، وإن قالت عائشة بعد ذلك : ما حملنى على كثرة مراجعتى له ـــ ﷺ ـــ إلا أنه لم يقع فى قلبى أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا ، ولا كنت أرى أنه يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس منه .

وقالت حفصة لعائشة :

ـــ ما كنت أصيب منك خيرا ، مروا أبا بكر فليصل بالناس .

وخرج بلال وهو يبكى فانخلعت أفئدة الناس وهرعوا إليه ملهوفين وقالوا فى خوف :

ـــ ما وراءك يا بلال ؟

ـــ إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ لا يستطيع الصلاة خارجا .

فبكوا بكاء شديدا ، وتلفت عبد الله بن زمعة يبحث عن أبى بكر فلم يجد بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر ، فقال :

ـــ قم يا عمر فصلّ بالناس .

وكبر عمر وكان صيتا ، فسمع رسول الله ـــ ﷺ ـــ صوته بالتكبير فقال :

ـــ أين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون . مروا أبا بكر فليصل بالناس .

وجاء أبو بكر وصلى بالناس ، وقال عمر لعبد الله بن زمعة :

ـــ ويحك ! ماذا صنعت بى ؟ والله لولا أنى ظننت أن رسول الله ﷺ أمرك ما فعلت .

ـــ إنى لم أر أحدا أولى بذلك منك .

كان أبو بكر من جملة جيش أسامة ، وإن الجيش قد عسكر بالجرف خارج المدينة لينطلق إلى الشام ، فكان على أبى بكر أن يتخلف لما أمره ـــ ﷺ ـــ بالصلاة ـــ بالناس ، وما تخلف أبو بكر من قبل عن غزوة أمره رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ أن يخرج فيها ، سواء أكان أمير القوم أم جنديا من جنود الإسلام .

ودخل أسامة ليزور رسول الله — ﷺ — فوجده مريضا فقال :

— بأبى أنت وأمى ! أتأذن لى أن أمكث أياما حتى يشفيك الله تعالى ؟

— اخرج وسر على بركة الله .

— يا رسول الله إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال خرجت وفى قلبى قَرْحة منك .

— سر على النصر والعافية .

— يا رسول الله إنى أكره أن أسأل عنك الركبان .

— انفذ لما أمرتك به .

ثم أغمى على رسول الله — ﷺ ، وقام أسامة فتجهز للخروج ، فجعل رسول الله يقول :

— أنفذوا بعث أسامة ، لعن الله من تخلف عنه .

وطاف الأنصار بالمسجد لما رأوا رسول الله — ﷺ — يزداد وجعا ، وأشفقوا من موته — ﷺ ، فدخل عليه الفضل فأخبره بذلك ، ثم دخل عليه على كرم الله وجهه فأخبره بذلك ، ثم دخل عليه العباس فأخبره بذلك ، فخرج النبى — ﷺ — متوكئا على علىّ والفضل والعباس أمامه ، والنبى — ﷺ — معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثار الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال :

— أيها الناس ، بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم . هل خلد نبى قبلى فيمن بعث إليه فأخلد فيكم ؟ ألا وإنى لاحق بربى وإنكم لاحقون به ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم بخير ، فإن الله يقول : ﴿ والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[1]. وإن الأمور تجرى بإذن الله ، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟!

وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم . ألم يشاطروكم فى الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الدار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم . ألا ولا تستأثروا عليهم . ألا فإنى فرطكم وأنتم لاحقون بى . ألا وإن موعدكم الحوض . ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى .

يأ يها الناس ، إن الذنوب تغير النعم ، فاذا بر الناس برتهم أئمتهم ، وإذا فجر الناس عقوا أئمتهم .

ودخل رسول الله — ﷺ — دار عائشة ، فخفت إليه فاطمة الزهراء ، واجتمع إليه نساء من نسائه أم سلمة وميمونة ، ونساء من نساء المسلمين منهن أسماء بنت عميس ، وعنده العباس عمه . وتتام برسول الله — ﷺ — وجعه وأغمى عليه حتى ظنوا أنه قد هلك ، فأجمعوا أن يلُدّوه[2] ، فلددته أسماء بنت عميس ، وجعل يشير إليهم وهو مغمى عليه ألا يفعلوا به وهم يظنون أن ذلك كراهة المريض للدواء ، فلما أفاق رسول الله — ﷺ — قال :

---

(١) سورة العصر .

(٢) أن يلدوه : أن يجعلوا الدواء فى شق فمه .

— من صنع هذا بى ؟

— يا رسول الله عمك .

ولم يكن للعباس فى ذلك رأى إنما قالوا ذلك تعللا وخوفا منه — ﷺ ، فقال عليه السلام :

— هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض .

وأشار نحو أرض الحبشة ، قال :

— ولم فعلتم ذلك ؟

قالت أسماء بنت عميس زوج أبى بكر :

— خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجنب .

— إن ذلك لداء ما كان الله عز وجل ليقذفنى به. لا يبق فى البيت أحد إلا لُدَّ إلا عمى العباس .

فلدوا حتى ميمونة وكانت صائمة عقوبة لهم على ما صنعوا .

ونظر العباس إلى وجه ابن أخيه — عليه صلاة الله وسلامه — فتذكر أنه قبل ذلك بيسير رأى فى المنام أن القمر قد رفع من الأرض إلى السماء فقصها على النبى — ﷺ — فقال له النبى : هو ابن أخيك . فأحس العباس كأن يدا قوية تعتصر فؤاده وأن الدموع تكاد أن تطفر من مآقيه . فأشاح بوجهه حتى لا يقرأ رسولُ الله — ﷺ — فيه ما يعتمل فى جوفه من أحزان .

وكان عنده — ﷺ — سبعة دنانير قد وضعها فى كفه وقال :

— ما ظن محمد بربه أن لو لقى الله وهذه عنده ؟

فأمر عائشة أن تتصدق بها .

واشتد على رسول الله — ﷺ — وجعه ، فدخل أسامة من عسكره

والنبى — ﷺ — مغمور فطأطأ رأسه فقبله ، وهو — ﷺ — لا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة ، فعرف أسامة أنه — ﷺ — يدعو له . ورجع أسامة إلى عسكره .

ودخل سلمان الفارسى على رسول الله — ﷺ ، فقال له :

— ألا تسأل عما كابدته الليلة من الألم والسهر أنا وعلى !

— يا رسول الله ، ألا أسهر الليلة معك بدله ؟

— لا ، هو أحق بذلك منك .

وأذن بلال بصلاة الصبح فاجتمع الناس بمسجد الرسول وأمهم أبو بكر ، وخرج — ﷺ — إلى الناس وهم يصلون فرفع الستر وفتح الباب فخرج فقام على باب عائشة ، فكاد المسلمون يفتتنون فى صلاتهم برسول الله — ﷺ — حين رأوه فرحا به ، وتفرّج الناس فعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله — ﷺ — فنكص عن مصلاه ، فدفع رسول الله — ﷺ — فى ظهره وقال :

— صل بالناس .

ونجلس رسول الله — ﷺ — إلى جنبه فصلى قاعدا عن يمين أبى بكر ، فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلمهم رافعا صوته حتى خرج صوته من باب المسجد ، يقول :

— أيها الناس سُعِّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم . وإنى والله ما تمسكون علىّ بشىء . إنى لم أحلّ إلا ما أحل القرآن و لم أحرم إلا ما حرم القرآن .

فلما فرغ رسول الله — ﷺ — من كلامه قال له أبو بكر :

— يا نبى الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب ،

واليوم يوم بنت خارجة أفآتيها ؟

— نعم .

ثم دخل رسول الله — ﷺ — إلى داره وهو معصوب الرأس ، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسُّنح . دخل عليه السلام بيت عائشة وانقلبت كل امرأة من نسائه — ﷺ — إلى بيتها ، فلما دخل — ﷺ — اشتد عليه الوجع فرجع إليه من كان ذهب من نسائه ، وأخذ فى الموت فصار يغمى عليه ثم يفيق ، وكان عنده وقد اشتد به الأمر قدح فيه ماء فصار يدخل يده فى القدح ثم يمسح وجهه بالماء ويقول :

— اللهم أعنّى على سكرات الموت .

ورنت فاطمة الزهراء إلى أبيها فرأته يتألم أشد الألم فأحست نارا تشوى كبدها ، فراحت تقول :

— واكرب أبتاه !

فيقول — ﷺ — فى صوت خافت :

— ليس على أبيك كرب بعد اليوم .

كان — صلوات الله وسلامه عليه — مرهف الحس فكان شعوره بالألم أكثر من غيره ، ولم يدع بالشفاء بل طفق يقول :

— يا نفس مالك تلوذين كل ملاذ ؟

ودخل عبد الرحمن بن أبى بكر ومعه سواك يستن به ، فنظر إليه رسول الله — ﷺ — فعرفت عائشة أنه يريده لأنه كان يحب السواك ، فقالت :

— آخذه لك ؟

فأشار برأسه أن نعم فتناولته وناولته إياه ، فاشتد عليه فقالت :

— ألينه لك ؟

فأشار برأسه أن نعم .

فلينته فأعطته رسول الله — ﷺ — فاستن به وهو مستنــد إلى صدرها .

وكان رسول الله — ﷺ — قال لأسامة بن زيد بعد صلاة الصبح :

— اغد على بركة الله .

فودعه أسامة وخرج إلى معسكره وأمر الناس بالرحيل ، فبينا هو يريد الركوب إذا رسول أمه أم أيمن قد جاء يقول :

— إن رسول الله — ﷺ — يموت .

فأقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح فجعلوا يشتدون إلى مسجد الرسول .

وأرسلت عائشة خلف أبى بكر ، وأرسلت حفصة خلف عمر ، وأرسلت الزهراء خلف على ، ووجدت عائشة رسول الله — ﷺ — يثقل فى حجرها ، فذهبت تنظر فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول :

— بل الرفيق الأعلى والجنة .

وندت من دور الرسول صرخة ، فابتدر المسلمون الباب فسبقهم العباس فدخل العباس فدخل وأغلق الباب دونهم ، فإذا عائشة تقول :

— خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق .

ومات رسول الله — ﷺ — بين سحر عائشة ونحرها ، فمن حداثة سنها وضعت رأسه الشريف على وسادة وقامت تلتدم مع النساء وتضرب وجهها ، فلم يلبث أن خرج العباس إلى الناس فنعى رسول الله —

ﷺ — فقالوا :

— يا عباس ما أدركت منه — ﷺ ؟

— أدركته وهو يقول : جلال ربى الرفيع قد بلغت .

ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة ، ودخل بريدة بلواء أسامة حتى أتى به إلى رسول الله — ﷺ — فغرزه عند بابه والباب مغلق .

وجاء عمر وعثمان وعلىّ ، وصك العويل أسماعهم ، فأما عمر فخبل ، وأما عثمان فأخرس ، وأما علىّ فأقعد لم تستطع قدماه أن يحملاه فانهار ، وصار عمر فى ناحية المسجد يقول :

— إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله — ﷺ — مات ، ولكن ما مات ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران عليه السلام ، ثم رجع إلى قومه بعد أربعين ليلة بعد أن قيل قد مات .

والله ليرجعن رسول الله — ﷺ — كما رجع موسى بن عمران عليه السلام ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم .

وما زال عمر يتوعد المنافقين حتى أزبد شدقاه . ودهش النـاس وطاشت عقولهم فما كانوا قادرين على أن يصدقوا أن خليل الله وحبيبه ونجيه وصفيه ورسوله ونبيه يموت ، أحقا قد انقطع عن الأرض وحى السماء ؟

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على رسول الله — ﷺ — فى بيت عائشة وعيناه تهملان ورسول الله مسجى فى ناحية البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه فقبله ثم قال :

ـــ بأبي أنت وأمي ، طبت حيا وميتا . أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبدا .

ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال :

ـــ على رسلك يا عمر ، فأنصت .

فأبى إلا أن يتكلم . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـــ أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

ثم تلا :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾ [١] .

فما إن سمع عمر أبا بكر حتى دهش ووقع إلى الأرض ما تحمله قدماه ، وعرف أن رسول الله قد مات فقال ودموعه تهطل حتى تبل لحيته :

ـــ إنا لله وإنا إليه راجعون، صلوات الله وسلامه على رسول الله ـــ ﷺ .

وظل عمر في حزنه العميق وقد أطرق وكأنه لم يسمع بالآية التي تلاها أبو بكر في كتاب الله قبل الآن لما نزل به .

وقال أبو بكر :

ـــ وقال الله تعالى لمحمد ـــ ﷺ : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [٢]

---

(١) آل عمران ١٤٤ .

(٢) الزمر ٣٠ .

وقال تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ [١] . وقال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ [٢] .

وارتفع صوت الزهراء تبكى أباها وحبيبها الذى غمرها بالحب والحنان ، فقالت فى صوت واله حزين :

— واأبتاه .. أبتاه .

أجاب ربا دعاه .. يا أبتاه .

الفردوس مأواه . أبتاه .

إلى جبريل ننعاه .

ونزل بقلوب الناس حزن ثقيل وخيم الأسى على مدينة الرسول . وحان أذان المغرب فسار بلال بخطى ثقيلة ، وانطلق بنفس شفها الحزن حتى إذا بلغ المسجد انسكب الدمع من عينيه ، ودخل وهو يترنح فوقع بصره على باب الرسول مقفلا فاستشعر كأن خنجرا مزق نياط قلبه ، فلن يخرج الرسول إليهم منه أبدا ، ولن يتوجه إليه بلال ليخبره أن الناس فى المسجد ينتظرونه ليؤمهم ، فلن ينتظروه بعد اليوم ، ولن يأتى من السماء خبر .

واعتلى بلال المسجد وقد نال منه الحزن ، وراح يؤذن بصوت فيه رنة أسى عميق :

---

(١) القصص ٨٨ .

(٢) آل عمران ١٨٥ .

الله أكبر ! الله أكبر !

الله أكبر ! الله أكبر !

أشهـــد أن لا إلـــه إلا الله

أشهـــد أن لا إلـــه إلا الله

أشهـــد أن ....

وخنقت بلال العبرات فما استطاع أن يذكر اسم الرسول الحبيب والرسول مسجى فى سريره فأجهش بالبكاء . وسمع الناس انقطاع الأذان وبكاء بلال فتجددت الأحزان فبكوا . وراح بلال يغالب نفسه ويتحكم فى عواطفه ليتم الأذان ، وأخيرا ردد بصوت كله دموع :

أشهـــد أن محمـــدا رسول الله

أشهـــد أن محمـــد رسول الله

حى على الصلاة ، حـى على الصلاة

حى على الفلاح ، حى على الفـلاح

الله أكبر ، الله أكبر

لا إلـه إلا الله

٦

بكى الناس على رسول الله — ﷺ — وقالوا :
— والله لوددنا أنا متنا قبله ، إنا نخشى أن نفتن بعده .
قال معن بن عدى :
— ولكنى والله ما أحب أنى مت قبله ، حتى أصدقه ميتا كما صدقته حيا .
وذهب معن إلى سقيفة بنى ساعدة حيث اجتمع الأنصار فقالوا :
— إن رسول الله — ﷺ قد قبض .
فقال سعد بن عبادة لابنه قيس :
— إنى لا أستطيع أن أسمع الناس كلامى لمرضى ، ولكن تلق منى قولى فأسمعهم ..
فكان سعد يتكلم ويستمع ابنه ويرفع به صوته ليسمع قومه ، فحمد سعد الله وأثنى عليه ثم قال :
— إن لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب . إن رسول الله — ﷺ — لبث فى قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان ، فما آمن من قومه إلا قليل . والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ولا يعزّوا دينه ولا يدفعوا عنه عِداء ، حتى أراد الله بكم خير الفضيلة وساق إليكم الكرامة

وخصكم بدينه ورزقكم الإيمان به وبرسوله والإعزاز لدينه والجهـاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم ، وأثقله على عدوه من غيركم ، حتى استقاموا لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داحضا ، حتى أنجز الله لنبيكم الوعد ، ودانت لأسيافكم العرب ، ثم توفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين . فشدوا يديكم بهذا الأمر فإنكم أحق الناس وأولاهم به .

فأجابوا جميعا :

ـــ أنت وفقت فى الرأى وأصبت فى القول ، ولن نعدو ما أمرت . نوليك هذا الأمر فأنت لنا مقنَع ولصالح المؤمنين رضا .

فقال عويم بن ساعدة :

ـــ يا معشر الخزرج إن كان هذا الأمر فيكم دون قريش فعرفونا ذلك وبرهنوا حتى نبايعكم عليه . وإن كان لهم دونكم فسلموا إليهم ، فوالله ما هلك رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى عرفنا أن أبا بكر خليفته حين أمره أن يصلى بالناس .

فشتمه الأنصار وأخرجوه ، فانطلق هو ومعن بن عدى مسرعين إلى أبى بكر .

وفت ذلك فى عضد الأنصار فقال قائل منهم :

ـــ فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشرته وأولياؤه ، فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده ؟

فقالت طائفة منهم :

ـــ فإنا نقول إذا : منا أمير ومنكم أمير . ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا .

فقال سعد بن عبادة حين سمعها :

ـــ هذا أول الوهن .

وجاء عويم بن ساعدة ومعن بن عدى أخو بنى العجلان إلى عمر بن الخطاب وقالا :

ـــ هاتيك الأنصار قد اجتمعت فى ظُلّة بنى ساعدة يبايعون سعد بن عبادة .

إنهما رجلان صالحان قد شهدا بدرا . فأما عويم بن ساعدة فقد شهد له رسول الله ـــ ﷺ ـــ أنه ممن يحبون أن يتطهروا ، فقد قيل لرسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم : من الذين قال الله فيهم : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ (١) ؟ فقال رسول الله ـــ ﷺ : نعم المرء منهم عويم بن ساعدة . أما معن فقد قال بعد موت الرسول ـــ صلوات الله وسلامه عليه : والله ما أحب أنى مت قبله حتى أصدقه ميتا كما صدقته حيا .

وخاف عمر من وقوع فتنة فى الإمارة وخاف من حدوث ردة ، فمسيلمة الكذاب قد دانت له اليمامة وطليحة العنسي قد غلظ أمره ، ومن يدرى من يخرج غدا على الإسلام لما يبلغ القبائل موت رسول الله ـــ ﷺ ، فانطلق إلى منزل النبى ـــ ﷺ ـــ وقد استبد به القلق فأرسل إلى أبى بكر ، وأبو بكر فى الدار وعلى بن أبى طالب دائب فى جهاز رسول الله ـــ ﷺ ، فأرسل إلى أبى بكر أن اخرج إلى . فأرسل إليه :

ـــ إنى مشتغل .

---

(١) التوبة ١٠٨ .

فأرسل إليه :

ـــ إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره .

فخرج إليه فقال عمر :

ـــ أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة ؟ وأحسنهم من يقول منا أمير ومن قريش أمير .

فمضيا مسرعين نحوهم فلقيا أبا عبيدة بن الجراح فتماشوا إليهم ثلاثتهم :

وأحس العباس لما خرج أبو بكر أن فى الأمر شيئا وأن الناس يفكرون فيمن يخلف رسول الله ـــ ﷺ ، فقال لعلى بن أبى طالب :

ـــ امدد يديك أبايعك ، فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان .

ـــ أو يطمع يا عم فيها طامع غيرى ؟

ـــ ستسمع .

وبلغ أبو بكر وعمر وأبو عبيدة سقيفة بنى ساعدة ، فإذا بالأنصار يدورون حول سعد بن عبادة ويقولون :

ـــ أنت المرجى ونجلك المرجى .

لقد فتح باب فتنة الساعة إلا أن يغلقه الله وكان عمر قد زوى كلاما أراد أن يقوم به فيهم ، فلما تقدم إليهم ذهب ليبتدئ المنطق فقال له أبو بكر :

ـــ رويدا أتكلم ، ثم انطق بعدما أحببت .

فبدأ أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـــ إن الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه وشهيدا على أمته ليعبدوا الله

ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ولهم نافعة ، وإنما هى من حجر منحوت ، وخشب منجور .

ثم قرأ : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾[1] . وقالوا : ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[2] . فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له ، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس مخالف زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم وإجماعهم عليهم ، فهم أول من عبد الله فى الأرض وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم .

وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين ، ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور .

فقام الحُباب بن المنذر بن الجموح فقال :

ـــ يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم ، فإن الناس فى فيئكم وفى ظلكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ؛ ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم . أنتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد

---

(١) يونس ١٨ .　　(٢) الزمر ٣ .

عليكم رأيكم ، وينتقض عليكم أمركم . فإن أبى عليكم إلا ما سمعتم ، فمنا أمير ومنهم أمير .

فقال عمر :

— هيهات لا يجتمع سيفان فى غمد . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم . ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين .

من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مُدْل بباطل ، أو متجانف لإثم ، أو متورط فى هلكة ؟

فقال الحباب بن المنذر :

— يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين . أنا جُذَيلها المحكك، وعذيقها المرجَّب [1] ، أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة .

---

(١) الجذل : عود ينصب للإبل الجربى تحتك به فتستشفى . المحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار مملسا . والعذق : النخلة . والمرجب : المدعوم بالرجبة وهى خشبة ذات شعبتين ، وذلك إذا طال وكثر حمله . والمعنى : إنى ذو رأى يشفى بالاستضاءة به كثيرا فى مثل هذه الحادثة ، وأنا فى كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها وفى أمثالها ومصادرها كالنخلة الكثيرة الحمل .

فقال عمر :

— إذن يقتلك الله .

— بل إياك يقتل .

فقال أبو عبيدة :

— يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغير .

فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير ، وكان خزرجيا مثل سعد بن عبادة فقال :

— يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا . فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عرضا ، فإن الله ولى المنة علينا بذلك . ألا إن محمدا — ﷺ — من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وايم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر الصديق :

— هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا .

فقال عمر :

— والله لأن أقدم فأنحر كما يُنحر البعير ، أحب إلىّ من أن أتقدم على أبى بكر .

وقال أبو عبيدة :

— لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله — ﷺ — على الصلاة ،

والصلاة أفضل دين المسلمين . فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ ابسط يديك نبايعك .

وقال عمر :

— أيكم يطيب نفسا أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله ﷺ ؟ رضيك رسول الله — ﷺ — لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا ؟

كان أبو بكر أحب إلى الناس من ضياء أبصارهم ، فأقبلوا بوجوههم عليه ، وارتفع نداؤهم من كل ناحية :

— لا نريد سواك يا أبا بكر ، أنت لها .

وبسط أبو بكر يده وبايعه عمر ثم أبو عبيدة ، وخف إليه بشير بن سعد فبايعه ، فناداه الحباب بن المنذر :

— يا بشير بن سعد عققت عقاق ، ما أحوجك إلى ما صنعت ؟! أنفست على ابن عمك الإمارة ؟

— لا والله ، ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم .

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء :

— والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا ، فقوموا فبايعوا أبا بكر .

فقاموا إليه فبايعوه ، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم :

فقام الحباب بن المنذر إلى سيفه فأخذه فبادروا إليه فأخذوا سيفه منه ، فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتى فرغوا من البيعة ، فقال :

ـ فعلتموها يا معشر الأنصار ، أما والله لكأنى بأبنائكم على أبواب أبنائهم قد وقفوا يسألونهم بأكفهم ولا يسقون الماء .

قال أبو بكر :

ـ أمنا تخاف يا حباب ؟

ـ ليس منك أخاف ولكن ممن يجيء بعدك .

ـ فإذا كان ذلك فالأمر إليك وإلى أصحابك : ليس لنا عليكم طاعة .

ـ هيهات يا أبا بكر ، إذا ذهبت أنا وأنت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم .

وأقبلت قبيلة أسلم بجماعتها حتى تضايق بهم السكك فبايعوا أبا بكر . فما هو إلا أن رأى عمر أسلم فأيقن بالنصر ، فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر ، وكادوا يطئون سعد بن عبادة ، فقال ناس من أصحاب سعد :

ـ اتقوا سعدا لا تطئوه .

فقال عمر :

ـ اقتلوه قتله الله .

ثم قام على رأسه فقال :

ـ لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك .

فأخذ سعد بلحية عمر فقال :

ـ والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفى فيك واضحة .

فقال أبو بكر :

ـ مهلا يا عمر ، الرفق ههنا أبلغ .

فأعرض عنه عمر . وقال سعد :

— أما والله لو أن بى قوة ما أقوى على النهوض لسمعت منى فى أقطارها وسككها زئيرا يَجحرك وأصحابك ، أما والله إذًا لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع . احملونى من هذا المكان .

فحملوه فأدخلوه داره ، وكبر الناس لبيعة أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة ، فراح التكبير يتجاوب فى أرجاء المدينة .

٧

راح عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد والعباس بن عبد المطلب وولداه الفضل وقثم يشتغلون بجهاز رسول الله — ﷺ ، واختلفوا هل يغسل فى ثيابه أو يجرد منها كما تجرد الموتى ، فرأوا أن يغسلوه وعليه ثيابه ، فأخذ عليّ يغسله وعليه قميصه ؛ ولف كرم الله وجهه على يده خرقة وأدخلها تحت القميص يغسل بها الجسد الشريف . وغسل عليه السلام فى المرة الأولى بالماء القراح ، وفى الثانية بالماء والسدر ، وفى الثالثة بالماء والكافور ، وكفن فى ثلاثة أثواب بيض يمانية .

وطفق عليّ يقول :

— بأبى أنت وأمي يا رسول الله ، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء ، وخصصت حتى صرت مسليا عمن سواك ، وعممت حتى صار الناس فيك سواء . ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشئون ، ولكان الداء مماطلا ، والكمد محالفا ، وقلاّ لك . ولكنه ما لا يملك رده ، ولا يستطاع دفعه . بأبى أنت وأمي ، اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك .

وكان النبى — ﷺ — قد بعث أبا سفيان بن حرب على الصدقات ، فرجع من سعايته وقد مات رسول الله — ﷺ — فلقيه قوم فسألهم فقالوا :

ـــ مات رسول الله ـــ ﷺ .

ـــ من ولى من بعده ؟

ـــ أبو بكر .

ـــ أبو فصيل ؟[1] فما فعل المستضعفان على والعباس ! أما والذى نفسي بيده لأرفعن لهما من أعضادهما .

وأتى أبو سفيان علىّ بن أبي طالب والعباس ، والعباس يفكر فيما كان بينه وبين علي . أشار عليه فى مرض رسول الله ـــ ﷺ وآله ـــ أن يسأله فإن كان الأمر فيهم أعطاه إياهم ، وإن كان فى غيرهم أوصى بهم . فقال على : أخشى إن منعناه لا يعطيناه أحد بعده .

إن العباس ليحس مذ خرج أبو بكر لما دعاه عمر ، أن الأمر يوشك أن يفلت من يد ابن أخيه ، وها هو ذا أبو سفيان بن حرب يأتى ليبايع ابن أبى طالب ، فقال العباس لعلىّ :

ـــ ابسط يدك أبايعك ويبايعك هذا الشيخ ، فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف ، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك أحد من قريش ، وإذا بايعك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب .

فقال علىّ عليه السلام :

ـــ لنا بجهاز رسول الله شغل ، وهذا الأمر فليس يخشى عليه .

فلم يلبثوا أن سمعوا التكبير من سقيفة بنى ساعدة ، فقال علىّ :

ـــ يا عم ماهذا ؟

ـــ ما دعوناك إليه فأبيت .

---

(١) سمى بذلك لضعف بنيته والفصيل ولدالناقة وقد انفصل عنها .

ــ سبحان الله ! أيكون هذا ؟

ــ نعم .

ــ أفلا يرد ؟

ــ وهل رُدَّ مثل هذا قط .

وقال أبو سفيان بن حرب :

ــ وليتم على هذا الأمر أذل بيت فى قريش ، أما والله لئن شئت لأملأنها على أبى فصيل خيلا ورجلا .

فقال على كرم الله وجهه :

ــ طالما غششت الإسلام وأهله فما ضررتهم شيئا ! لا حاجة لنا إلى خيلك ورجلك .

وأقبلت الجماعة التى بايعت أبا بكر تزفه زفا إلى مسجد رسول الله ــ ﷺ ، واجتمعت بنو هاشم إلى بيت على بن أبى طالب ومعهم الزبير ، واجتمعت بنو أمية إلى عثمان بن عفان ، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمن بن عوف ، فأقبل عمر إليهم وأبو عبيدة فقال :

ــ مالى أراكم ملتاثين ؟ قوموا فبايعوا أبا بكر ، فقد بايع له الناس وبايعه الأنصار .

فقام عثمان ومن معه وقام سعد وعبد الرحمن ومن معهما ، فبايعوا أبا بكر .

وكان البراء بن عازب لبنى هاشم محبا ، فلما قبض رسول الله ــ ﷺ ــ خاف أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم ، فأخذه ما يأخذ الوالهة العجول مع ما فى نفسه من الحزن لوفاة رسول الله ــ ﷺ وآله ، فكان يتردد إلى بنى هاشم وهم عند النبى ــ ﷺ ــ فى الحجرة ،

ويتفقد وجوه قريش ، فإنه كذلك إذ فقد أبا بكر وعمر ، وإذا قائل يقول :

— القوم فى سقيفة بنى ساعدة .

وإذا قائل آخر يقول :

— قد بويع أبو بكر .

فلم يلبث وإذا هو بأبى بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة ، والناس يبايعون أبا بكر ، فخرج البراء يشتد حتى انتهى إلى بنى هاشم والباب مغلق ، فضرب عليهم الباب ضربا عنيفا قال :

— قد بايع الناس لأبى بكر بن أبى قحافة .

فقال العباس :

— تربت أيديكم إلى آخر الدهر . أما إنى قد أمرتكم فعصيتمونى .

فمكث البراء يكابد ما فى نفسه ، فلما كان بليل خرج إلى المسجد ، فلما صار فيه تذكر أنه كان يسمع همهمة رسول الله — ﷺ — بالقرآن فامتنع من مكانه . فخرج إلى الفضاء فضاء بنى بياضة ووجد نفرا يتناجون ، فلما دنا منهم سكتوا فانصرف عنهم فعرفوه وما عرفهم ، فدعوه إليهم فأتاهم فوجد المقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وسلمان الفارسى وأبا ذر الغفارى وحذيفة وأبا الهيثم بن التيهان ، وإذا حذيفة يقول لهم :

— والله ليكونن ما أخبرتكم به ، والله ما كذبت ولا كذّبت .

وإذا القوم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين .

ثم قال البراء :

— ائتوا أبىّ بن كعب فقد علم كما علمت .

فانطلقوا إلى أبىّ فضربوا عليه بابه ، حتى صار خلف الباب فقال :

— من أنتم ؟

فكلمه المقداد فقال :

— ما حاجتكم ؟

— افتح عليك بابك ، فإن الأمر أعظم من أن يجرىَ من وراء حجاب .

— ما أنا بفاتح بابى وقد عرفتُ ما جئتم له ، كأنكم أردتم النظر فى هذا العقد .

— نعم .

— أفيكم حذيفة ؟

— نعم .

— فالقول ما قال ، وبالله ما أفتح عنى بابى حتى تجرى على ماهى جارية ، ولما يكون بعدها شر منها ، وإلى الله المشتكى .

وذهب عمر إلى علىّ بن أبى طالب والعباس والزبير بن العوام ، فى عصابة فيهم أسيد بن حضير وسلمة بن أشيم ، فقالوا :

— انطلقوا فبايعوا أبا بكر .

فأبوا ، فخرج الزبير بن العوام بالسيف فقال عمر :

— عليكم بالرجل فخذوه .

فوثب عليه سلمة بن أشيم فأخذ السيف من يده فضرب به الجدار ، فانطلقوا به فبايع ، وذهب بنو هاشم أيضا فبايعوا . ولم يبق من بنى هاشم إلا على كرم الله وجهه وعمه العباس .

كان على يرى أن يؤخر عقد البيعة إلى أن يحضر ويتشاور ويقع الوفاق بينه وبينهم ، على أن يكون العقد لواحد من المسلمين بموجبه ، إما له

أو لأبى بكر أو لغيرهما ، ولم يكن ليليق أن يبرم وهو غير حاضر له مع جلالته فى الإسلام وعظيم أثره وما ورد فى حقه من وجوب موالاته والرجوع إلى قوله وفعله ، فهذا هو الذى كان ينقم ومنه كان يتألم .

وأرسل عمر وأبو بكر إلى أبى عبيدة وإلى المغيرة بن شعبة فسألاهما عن الرأى ، فقال المغيرة :

— الرأى أن تلقوا العباس فتجعلوا له ولولده فى هذه الإمرة نصيبا .

فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة والمغيرة حتى دخلوا على العباس ، وذلك فى الليلة الثانية من وفاة رسول الله — ﷺ وآله ، فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه وقال :

— إن الله ابتعث لكم محمدا — ﷺ — نبيا ، وللمؤمنين وليا ، فمن الله عليهم بكونه بين ظهرانيهم ، حتى اختار له ما عنده فخلّى على الناس أمورهم ليختاروا لأنفسهم متفقين غير مختلفين ، فاختارونى عليهم واليا ، ولأمورهم راعيا ، فتوليت ذلك وما أخاف بعون الله وتسديده وهنا ولا حيرة وجبنا ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . وما أنفكّ يبلغنى عن طاعن يقول بخلاف قول عامة المسلمين ، يتخذكم لجأ فتكونوا حصنه المنيع ، وخطبه البديع . فإما دخلتم فيما دخل فيه الناس أو صرفتموهم عما مالوا إليه ، فقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك فى هذا الأمر نصيبا ، ولمن بعدك من عقبك ، وإذ كنت عم رسول الله — ﷺ — وإن كان المسلمون قد رأوا مكانك من رسول الله — ﷺ — ومكان أهلك ثم عدلوا بهذا الأمر عنكم ، وعلى رسلكم بنى هاشم فإن رسول الله — ﷺ — منا ومنكم .

فاعترض كلامه عمر . وخرج إلى مذهبه فى الخشونة والوعيد وإتيان

الأمر من أصعب جهاته فقال :

— إى والله ، وأخرى إنا لم نأتكم حاجة إليكم ولكن كرها أن يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم ، فيتفاقم الخطب بكم وبهم . فانظروا لأنفسكم ولعامتهم .

ثم سكت فتكلم العباس شيخ بنى هاشم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— إن الله ابتعث محمدا نبيا كما وصفت . ووليا للمؤمنين ، فمن الله به على أمته حتى اختار له ما عنده . فخلّى الناس على أمرهم ليختاروا لأنفسهم مصيبين للحق مائلين عن زيغ الهوى . فإن كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت . وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم ، ما تقدمنا فى أمركم فَرطا ، ولا حللنا وسطا ، ولا نزحنا شخطا . فإن كان هذا الأمر يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين ، وما أبعد قولك إنهم طعنوا من قولك أنهم مالوا إليك . وأما ما بذلت لنا فإن يكن حقك أعطيتناه فأمسكه عليك ، وإن يكن حق المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه . وإن يكن حقنا لم نرض لك ببعضه دون بعض . وما أقول هذا أروم صرفك عما دخلت فيه ، ولكن للحجة نصيبها من البيان .

وأما قولك إن رسول الله — ﷺ — منا ومنكم ، فإن رسول الله — ﷺ — من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها . وأما قولك يا عمر إنك تخاف الناس علينا ، فهذا الذى قدمتموه أول ذلك ، والله المستعان .

وخرج أبو بكر وعمر من عند شيخ بنى هاشم ولم يستطيعا أن يقنعاه ببيعة ابن أبى قحافة . وبقى شيخ بنى أمية ، إنه قدم إلى المدينة وإنه ليقول : إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم ! ، فكلم عمر أبا بكر فقال :

ـــ إن أبا سفيان قد قدم وإنا لا نأمن شره .

فدفع له أبو بكر ما كان فى يده ، ما كان قد جمعه من الصدقات ، فأخمد المال ثورة شيخ بنى أمية .

وراح الناس يتحدثون عن بيعة أبى بكر ، فقال لهم سلمان الفارسى :

ـــ أصبتم ذا السن منكم وأخطأتم أهل بيت نبيكم ، لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم اثنان ولأكلتموها رغدا .

وكان أبو ذر الغفارى غائبا لما مات رسول الله ـــ ﷺ ، وقدم وقد بايع الناس أبا بكر فقال :

ـــ أصبتم قناعة ، وتركتم قرابة ، لو جعلتم هذا الأمر فى أهل بيت نبيكم لما اختلف عليكم اثنان .

واجتمع قوم من الأنصار وقوم من المهاجرين فتعاتبوا فيما بينهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف :

ـــ يا معشر الأنصار إنكم وإن كنتم أولى فضل ونصر وسابقة ، ولكن ليس فيكم مثل أبى بكر ولا عمر ولا علىّ ولا أبى عبيدة .

فقال زيد بن أرقم :

ـــ إنا لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرحمن ، وإن منا لسيد الأنصار سعد بن عبادة ، ومن أمر الله رسوله أن يقرئه السلام وأن يأخذ عنه القرآن أبىّ بن كعب ، ومن يجئ يوم القيامة إمام العلماء معاذ بن جبل ، ومن أمضى رسول الله ـــ ﷺ ـــ شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت . وإنا لنعلم أن ممن سميت من قريش من لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد : على بن أبى طالب .

***

وقيل لأبى قحافة :

ـــ قد ولى ابنك الخلافة .

فقرأ :

ـــ ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾

ثم قال :

ـــ لم ولوه ؟

ـــ لسنه .

ـــ أنا أسن منه .

---

(١) آل عمران ٢٦ .

٨

أدرج ــ ﷺ ــ فى أكفانه ووضع على سريره ثم وضع على شفير حفرته ، ثم صار الناس يدخلون عليه رفقاء رفقاء . دخل عليه ــ ﷺ ــ أبو بكر وعمر ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار بقدر ما يسع البيت ، فقالوا :

ــ السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته .

وسلم المهاجرون والأنصار كما سلم أبو بكر وعمر ، ثم صفوا صفوفا لا يؤمهم أحد وكان أبو بكر فى الصف الأول الذى حيال الرسول ــ ﷺ ــ فقال أبو بكر :

ــ اللهم إنا نشهد أنه ــ ﷺ ــ قد بلغ ما أنزل إليه .

ــ آمين .

ــ ونصح لأمته .

ــ آمين .

ــ وجاهد فى سبيلك حتى أعز الله دينه وتمت كلمته .

ــ آمين .

ــ فاجعلنا إلهنا ممن اتبع القول الذى أنزل معه، واجمع بيننا وبينه حتى تعرفه بنا وتعرفنا به فإنه كان بالمؤمنين رءوفا رحيما . لا نبتغى بالإيمان به بدلا ، ولا نشترى به ثمنا أبدا .

— آمين .

واختلفوا فى الموضع الذى يدفن فيه فمن قائل :

— يدفن فى البقيع .

ومن قائل :

— ينقل ويدفن عند إبراهيم الخليل .

فقال أبو بكر :

— إن عندى فى هذا خبرا . سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « لا يدفن نبى إلا حيث قبض » .

وألحدوا له — ﷺ — لحدا لقوله — ﷺ — : « ألحدوا ولا تشقوا ، فإن اللحد لنا والشق لغيرنا ».

ودخل قبره — ﷺ — العباس وعلىّ والفضل بن العباس بين النشيج والنحيب ، وأخذ شقران مولاه قطيفة كان رسول الله — ﷺ — يلبسها ويفترشها فقذفها إلى القبر وقال :

— والله لا يلبسها أحد بعدك أبدا .

وكان أهل بيت النبى — ﷺ — مجتمعين يبكون تلك الليلة لم يناموا ، فسمعوا صوت المساحى فصاحوا وصاح أهل المسجد فارتجت المدينة صيحة واحدة . ودخل علىّ بن أبى طالب على فاطمة الزهراء وهو واله حزين فقالت له :

— دفنتم رسول الله — ﷺ — ؟

— نعم .

— كيف طابت قلوبكم أن تحثوا التراب عليه ؟ كان نبى الرحمة .

— نعم ولكن لا راد لأمر الله .

وأذن بلال بالفجر ، فلما ذكر النبى — ﷺ — بكى وانتحب فزاد المسلمين حزنا .

وأشرقت الشمس فجلس أبو بكر على منبر الرسول — ﷺ — فقام عمر فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

— أيها الناس ، إنى قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيى وما وجدتها فى كتاب الله ولا كانت عهدا عهده إلى رسول الله — ﷺ — ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا ، وأن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسول الله ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله وثانى اثنين إذ هما فى الغار فقوموا فبايعوه .

فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة ، ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أيها الناس إن الله الجليل الكريم العليم الحكيم الرحيم الحليم بعث محمدا بالحق ، وأنتم معشر العرب كما قد علمتم من الضلالة والفرقة ، ألف بين قلوبكم ، ونصركم به ، وأيدكم ، ومكن لكم دينكم ، وأورثكم سيرته الراشدة المهدية ، فعليكم بحسن الهدى ولزوم الطاعة .

وقد استخلف الله عليكم خليفة ليجمع به ألفتكم ، ويقيم به كلمتكم ، فأعينونى على ذلك بخير . ولم أكن لأبسط يدا ولا لسانا على من لم يستحل ذلك إن شاء الله .

وايم الله ما حرصت عليها ليلا ولا نهارا ، ولا سألتها الله قط فى سر ولا علانية . ولقد قلدت أمرا عظيما ما لى به طاقة ولا يد ، ولوددت أنى وجدت أقوى الناس عليه مكانى ، فأطيعونى ما أطعت الله ، فإذا عصيت

الله فلا طاعة لى عليكم .

ثم بكى وقال :

— اعلموا أيها الناس أنى لم أُجعل لهذا المكان أن أكون خيركم ، ولوددت أن بعضكم كفانيه . ولئن أخذتمونى بما كان الله يقيم به رسوله من الوحى ما كان ذلك عندى وما أنا إلا كأحدكم ، فإذا رأيتمونى قد استقمت فاتبعونى ، وإن زغت فقومونى .

واعلموا أن لى شيطانا يعترينى أحيانا ، فإذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى ، لا أوثر بأشعاركم وأبشاركم .

ثم نزل . وكان علىّ بن أبى طالب والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسى وأبو ذر الغفارى والبراء فى بيت فاطمة ، فجاءهم عمر ثم قال لعلىّ :

— قم فبايع لأبى بكر .

فتلكأ واحتبس ، فأخذ بيده فقال :

— قم .

فأبى علىّ أن يقوم ، فحمله ودفعه فأخرجه ، ورأت فاطمة ما صنع بزوجها فقامت على باب الحجرة وقالت :

— يا أبا بكر ، ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله ، والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله .

وجىء بعلىّ بن أبى طالب إلى أبى بكر وهو يقول :

— أنا عبد الله ، أخو رسول الله .

فقيل له :

— بايع .

— أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى . أخذتم

هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبى — ﷺ — وتأخذونه منا أهل البيت غصبا . ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة ؟ فإذاً أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار ؛ نحن أولى برسول الله حيا وميتا فأنصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون .

فقال له عمر :

— إنك لست متروكا حتى تبايع .

فقال له علىّ :

— احلب له حلبا لك شطره ، وشد له اليوم يردده عليك غدا .

ثم قال :

— والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه .

فقال له أبو بكر :

— إن لم تبايع فلا أكرهك .

فقال أبو عبيدة بن الجراح :

— يا بن عم إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور . ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالا واستطلاعا ، فسلم لأبى بكر هذا الأمر فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق ، فى فضلك ودينك ، وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك .

فقال على كرم الله وجهه :

— الله الله يا معشر المهاجرين ! لا تخرجوا سلطان محمد فى العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، وتدفعون أهله عن مقامه فى

الناس وحقه . فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأنا أهل البيت ، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المتطلع لأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية . والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعدا .

وقال بشير بن سعد الأنصارى :

ـــ لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علىّ قبل بيعتها لأبى بكر ، ما اختلف عليك .

وكان خالد بن الوليد شيعة لأبى بكر ومن المنحرفين عن علىّ ، فقام خطيبا فقال :

ـــ أيها الناس إنا رُمينا فى بدء هذا الدين بأمر ثقل علينا والله محمله ، وصعب علينا مرتقاه ، وكنا كأنا فيه على أوتار . ثم والله ما لبثنا أن خف علينا ثقله ، وأذل لنا صعبه ، وعجبنا ممن شك فيه بعد عجبنا ممن آمن به ، حتى أمرنا بما كنا ننهى عنه ، ونهينا عما كنا نأمر به ، ولا والله ما سبقنا إليه بالعقول ، ولكنه التوفيق .

ألا وإن الوحى لم ينقطع حتى أحكم ، ولم يذهب النبى ـــ ﷺ ـــ فنستبدل بعده نبيا ولا بعد الوحى وحيا . ونحن اليوم أكثر منا أمس ، ونحن أمس خير منا اليوم . من دخل فى هذا الدين كان ثوابه على حسب عمله ، ومن تركه رددناه إليه . وإنه والله ما صاحب الأمر ـــ يعنى أبا بكر ـــ بالمسئول عنه ولا المختلف فيه ، ولا الخفى الشخص ولا المغموز القناة .

وندم قوم كثير من الأنصار على بيعة أبى بكر ولام بعضهم بعضا ،

وذكروا عليّ بن أبى طالب وهتفوا باسمه وإنه فى داره لم يخرج إليهم .
وجزع لذلك المهاجرون وكثر فى ذلك الكلام ، وكان أشد قريش على الأنصار سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبى جهل .

فلما اعتزلت الأنصار تجمع المهاجرون ، فقام سهيل بن عمرو فقال :

— يا معشر قريش إن هؤلاء القوم قد سماهم الله الأنصار وأثنى عليهم فى القرآن ، فلهم بذلك حظ عظيم وشأن غالب . وقد دَعوا إلى أنفسهم وإلى عليّ بن أبى طالب وعليّ فى بيته لو شاء لردهم ، فادعوهم إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته ، فإن أجابوكم وإلا فقاتلوهم ، فوالله إنى لأرجو الله أن ينصركم عليهم كما نُصرتم بهم .

ثم قام الحارث بن هشام فقال :

— إن يكن الأنصار تبوأت الدار والإيمان من قبل ونقلوا رسول الله — ﷺ — إلى دورهم من دورنا ، فآووا ونصروا ، ثم ما رضوا حتى قاسمونا الأموال وكفونا العمل ، فإنهم قد لهجوا بأمر إن ثبتوا عليه فإنهم قد خرجوا مما وسموا به ، وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السيف ، وإن نزعوا عنه فقد فعلوا الأولى بهم والمظنون معهم .

ثم قام عكرمة بن أبى جهل فقال :

— والله لولا قول رسول الله — ﷺ : « الأئمة من قريش » ما أنكرنا إمرة الأنصار ، ولكانوا لها أهلا ؛ ولكنه قول لا شك فيه ولا خيار . وقد عجلت الأنصار علينا . والله ما قبضنا عليهم الأمر ولا أخرجناهم من الشورى ، وإن الذى هم فيه من فلتات الأمور ونزعات الشيطان وما لا يبلغه المنى ولا يحمله الأمل .

اعذروا إلى القوم ، فإن أبوا فقاتلوهم ، فوالله لو لم يبق من قريش

كلها إلا رجل واحد لصير الله هذا الأمر فيه .

وحضر أبو سفيان بن حرب فقال :

ـــ يا معشر قريش إنه ليس للأنصار أن يتفضلوا على الناس حتى يقروا بفضلنا عليهم ، فإن تفضلوا فحسبنا حيث انتهى بها ، وإلا فحسبهم حيث انتهى بهم . وايم الله لئن بطروا المعيشة وكفروا النعمة لنضربنهم على الإسلام كما ضربوا عليه ، فأما علىّ بن أبى طالب فأهل والله أن يسوَّد على قريش وتطيعه الأنصار .

فلما بلغ الأنصار قول هؤلاء الرهط قام خطيبهم ثابت بن قيس بن شماس فقال :

ـــ يا معشر الأنصار إنما يكبر عليكم هذا القول لو قاله أهل الدين من قريش ، فأما إذا كان من أهل الدنيا لا سيما من أقوام كلهم موتور ، فلا يكبرن عليكم . إنما الرأى والقول مع الأخيار المهاجرين ، فإن تكلمت رجال قريش الذين هم أهل الآخرة مثل كلام هؤلاء ، فعند ذلك قولوا ما أحببتم وإلا فأمسكوا .

وقال حسان بن ثابت :

تنادى سهيلٌ وابن حرب وحارثٌ
وعكرمة الشانى لنا ابن أبى جهل

قتلنا أباه وانتزعنا سلاحه
فأصبح بالبطحا أذلٌ من النعل

فأما سهيلٌ فاحتواه ابن دخشم
أسيرا ذليلا لا يمر ولا يُحلى

وصخر بن حرب قد قتلنا رجاله
غداة لوا بدرٍ فمرجَله يُغلى

وراكضنا تحت العجاجة حارثٌ
على ظهر جرداء كباسقة النحل
يقبّلها طورا وطورا يحثها
ويعدلها بالنفس والمال والأهل
أولئك رهط من قريش تبايعوا
على خطة ليست من الخطط الفضل

فبلغ شعر حسان قريشا فغضبوا وأمروا ابن أبي عزة شاعرهم أن يجيبه ، فقال :

معشر الأنصار خافوا ربكم
واستجيروا الله من شر الفتن
إنني أرهب حربا لاقحا
يشرَق المرضع فيها باللبن
جرها سعد وسعد فتنة
ليت سعد بن عباد لم يكن
ليس ما قدر سعد كائنا
ما جرى البحر وما دام حضن
ليس بالقاطع منا شعرة
كيف يُرجى خير أمر لم يحن
ليس بالمدرك منها أبدا
غير أضعاث أمانيّ الوسن

وقسم أبو بكر العطاء بين نساء المهاجرين والأنصار فبعث إلى امرأة من بني عدى بن النجار قسمها مع زيد بن ثابت ، فقالت :

— ما هذا ؟

— قسم قسمه أبو بكر للنساء .

— أتراشونني على ديني ! والله لا أقبل منه شيئا !

فردته عليه .

وأكرمت قريش معن بن عدى وعويم بن ساعدة ، فاجتمعت الأنصار لهما في مجلس ودعوهما . فلما أحضرا أقبلت الأنصار عليهما فعيروهما بانطلاقهما إلى المهاجرين ، وأكبروا فعلهما في ذلك ، فتكلم معن فقال :

— يا معشر الأنصار إن الذى أراد الله بكم خير مما أردتم بأنفسكم ، وقد كان منكم أمر عظيم البلاء وصغرته العافية ، فلو كان لكم على قريش ما لقريش عليكم ثم أردتموهم لما أرادوكم به ، لم آمن عليهم منكم مثل ما آمن عليكم منهم ، فإن تعرفوا الخطأ فقد خرجتم منه وإلا فأنتم فيه .

وتكلم عويم بن ساعدة ، فقال :

— يا معشر الأنصار إن من نعم الله عليكم أنه تعالى لم يرد بكم ما أردتم بأنفسكم ، فاحمدوا الله على حسن البلاء وطول العافية وصرف هذه البلية عنكم . وقد نظرت فى أول فتنتكم وآخرها فوجدتها جاءت من الأمانى والحسد . واحذروا النقم فوددت أن الله صير إليكم هذا الأمر بحقه فكنا نعيش فيه .

فوثبت عليهما الأنصار فأغلظوا لهما وفحشوا عليهما وانبرى لهما فروة ابن عمرو فقال :

— أنسيتما قولكما لقريش : « إنا قد خلفنا وراءنا قوما قد حلت دماؤهم بفتنتهم » ؟ هذا والله ما لا يغفر ولا ينسى . قد تصرف الحية عن وجهها وسمها فى نابها .

كان على بن أبى طالب فى داره وكان أصحابه يمشون إليه بما يدور بين

الأنصار والمهاجرين فكان يستشعر خوفا على الإسلام وأهله . وارتفع صوت بلال بالأذان فخطر لعلّى خاطر : إن ذلك الأذان سيرفع من الأرض لو أن المهاجرين مشوا إلى الأنصار وكان بينهم قتال ، إنها الفتنة .

وجاء إليه رسول خليفة رسول الله — ﷺ — يسأله الخروج لبيعة أبى بكر ويخوفه الفتنة لو أنخر ، فخرج علّى بن أبى طالب إلى أبى بكر ، فلما رآه الصديق قال :

— أيها الناس هذا علّى بن أبى طالب ، لا بيعة لى فى عنقه وهو بالخيار من أمره ، ألا وأنتم بالخيار جميعا فى بيعتكم ، فإن رأيتم لها غيرى فأنا أول من يبايعه .

فقال علّى :

— ما غضبنا إلا فى المشورة، وإنا لنرى أبا بكر أحق الناس بها . إنه لصاحب الغار ، وإنا لنعرف له سنه ، ولقد أمره رسول الله — ﷺ — بالصلاة وهو حى . لا نرى غيرك ؛ امدد يدك .

وبايع علّى بن أبى طالب أبا بكر ، فأقبل الناس على علّى فقالوا :

— أصبت يا أبا الحسن وأحسنت .

وبعث إلى سعد بن عبادة :

— أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك .

فقال سعد فى غضب :

— أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبلى وأخضب سنان رمحى وأضربكم بسيفى ما ملكته يدى ، وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى . فلا أفعل وايم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى وأعلم ما حسابى .

فلما أوتى أبو بكر بذلك قال له عمر :

ــ لا تدعه حتى يبايع .

فقال له بشير بن سعد :

ــ إنه قد لج وأبى وليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل معه و لده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه فليس تركه بضاركم وإنما هو رجل واحد .

فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد؛ ثم إن الأنصار أصلحوا بين معن وعويم بن ساعدة وبين أصحابهما. ثم اجتمعت جماعة من قريش يوما وفيهم ناس من الأنصار وأخلاط من المهاجرين وذلك بعد انصراف الأنصار عن رأيها وسكون الفتنة، فاتفق ذلك عند قدوم عمرو بن العاص من سفر كان فيه، فجاء إليهم فأفاضوا فى ذكر يوم السقيفة وسعد ودعواه الأمر، فقال عمرو بن العاص :

ــ والله لقد دفع الله عنا من الأنصار عظيمة ولما دفع عنهم أعظم ، كادوا والله أن يحلوا حبل الإسلام كما قاتلوا عليه ويخرجوا منه من أدخلوا فيه . والله لئن كانوا سمعوا قول رسول الله ــ ﷺ : « الأئمة من قريش » ثم ادعوها لقد هلكوا وأهلكوا ؛ وإن كانوا لم يسمعوها فلما هم كالمهاجرين ولا سعد كأبى بكر ولا المدينة كمكة . ولقد قاتلونا أمس فغلبونا على البدء ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة .

فلم يجبه أحد وانصرف إلى منزله وقد ظفر ، فقال :

ألا قل لأوس إذا جئتها ... وقل إذا جئت للخزرج

تمنيتم الملك فى يثرب ... فأنزلت القدر لم تنضج

وأَخْدجتمُ الأمر قبل التما … م وأعجب بذا المَعَجل المخدج[1]
تريدون نتج الحيال العسا … رَ ولم تلقحوه فلم ينتج
عجبت لسعد وأصحابه … ولو لم يهيجوه لم يهتج
رجا الخزرجى رجاء السراب … وقد يخلف المرء ما يرتجى
فكان كمُنح على كفه … بكف يقطعها أهوج

فلما بلغ الأنصار مقالته وشعره بعثوا إليه لسانهم وشاعرهم النعمان بن العجلان وكان رجلا أحمر قصيرا تزدريه العيون ، وكان سيدا فخما ، فأتى عمرا وهو فى جماعة من قريش فقال :

— والله يا عمرو ما كرهتم من حربنا إلا ما كرهنا من حربكم . وما كان الله ليخرجكم من الإسلام بمن أدخلكم فيه .

إن كان النبى — ﷺ — قال : « الأئمة من قريش » فقد قال : « لو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ». والله ما أخرجنا كم من الأمر إذ قلنا : منا أمير ومنكم أمير . وأما من ذكرت فأبو بكر لعمرى خير من سعد ، ولكن سعدا فى الأنصار أطوع من أبى بكر فى قريش . فأما المهاجرون والأنصار فلا فرق بينهم أبدا ، ولكنك يا بن العاص وترت بنى عبد مناف بمسيرك إلى الحبشة لقتل جعفر وأصحابه ، ووترت بنى مخزوم بإهلاك عمارة بن الوليد .

ثم انصرف فقال :

فقل لقريش نحن أصحاب مكة
ويوم حنين والفوارس فى بدر

---

(١) المخدج : الناقص ويقال أخدج الأمر : اذا لم يحكمه.

وأصحـاب أحـد والـنضير وخـيبر
ونحن رجعنـا مـن قريظـة بالذكـر
ويوم بـأرض الشام أدخـل جعفـر
وزيـد وعبـد الله فى علـق يجرى
وفى كل يـوم ينكـر الكـلب أهلّـه
نطاعـن فيـه بالمثقفـة السُّمـر
ونضرب فى نقـع العجاجـة أرؤسا
ببـيض كأمثـال البروق إذا تسرى
نصرنـا وآوينـا النبـى ولم نخف
صروف الليالى والعظيم مـن الأمـر
وقلنـا لقـوم هاجـروا قبـلُ : مرحبـا
وأهـلا وسهـلا قـد أمنتم مـن الفقـر
نقاسمكـم أموالنـا وبيوتنـا
كقسمـة أيسار الجزور على الشطـر
ونكفيكـم الأمـر الـذى تكرهونـه
وكنـا أناسا نـذهب الـعسر بالـيسر
وقلتم : حرام نصب سعـد ونصبكـم
عتيـق بـن عثمان حـلالٌ أبـا بكـر
وأهـل أبـو بكـر لها خير قـائم
وإن عليـا كان أخلـق بالأمـر
وكان هوانـا فى علـىّ وإنـه
لأهل لها يا عمرو من حيث لا تدرى

فـذاك بعـون الله يدعـو إلى الهدى
ويـنهى عن الفحشاء والبغى والنكر

وصىّ النبى المصطفى وابن عمه
وقاتل فرسان الضلالة والكفر

وهـذا بحمد الله يهدى من العمى
ويفتح آذانا ثُقِلن من الوقر

نجىّ رسول الله فى الغار وحده
وصاحبه الصديق فى سالف الدهر

فلولا اتقاء الله لم تذهبوا بها
ولكن هـذا الخير أجمع للصبر

ولم نرض إلا بالرضا ولربما
ضربنا بأيدينا إلى أسفل القدر

فلما انتهى شعر النعمان وكلامه إلى قريش غضب كثير منها ، وألفى ذلك قدوم خالد بن سعيد بن العاص من اليمن ، وكان رسول الله — ﷺ — استعمله عليها ، وكان هوى خالد مع على بن أبى طالب ، فغضب للأنصار وشتم عمرو بن العاص وقال :

— يا معشر قريش إن عمرا دخل فى الإسلام حين لم يجد بدا من الدخول فيه ، فلما لم يستطع أن يكيده بيده كاده بلسانه ، وإن من كيده الإسلام تفريقه وقطعه بين المهاجرين والأنصار . والله ما حاربنا للدين ولا للدنيا . لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا وما بذلنا دماءنا لله فيهم ، وقاسمونا ديارهم وأموالهم وما فعلنا مثل ذلك بهم ، وآثرونا على الفقر وحرمناهم ، ولقد وصى رسول الله بهم وعزاهم عن جفوة السلطان ، فأعوذ بالله أن

أكون وإياكم الخلف المضيع والسلطان الجانى .

ثم إن رجالا من سفهاء قريش ومثيرى الفتن منهم اجتمعوا إلى عمرو بن العاص فقالوا له :

— إنك لسان قريش ورجلها فى الجاهلية والإسلام ، فلا تدع الأنصار وما قالت .

وأكثروا عليه فى ذلك فراح إلى المسجد وفيه ناس من قريش وغيرهم ، فتكلم وقال :

— إن الأنصار ترى لنفسها ما ليس لها ، وايم الله لوددت أن الله خلىَّ عنا وعنهم وقضى فيهم وفينا بما أحب ، ولنحن الذين أفسدنا على أنفسنا ، أخرناهم عن كل مكروه ، وقدمناهم إلى كل محبوب ، حتى أمنوا المخوف ، فلما جاز لهم ذلك صغَّروا حقنا ، ولم يراعوا ما أعظمنا من حقوقهم .

ثم التفت فرأى الفضل بن العباس بن عبد المطلب وندم على قوله للخئولة التى بين ولد عبد المطلب وبين الأنصار ، ولأن الأنصار كانت تعظّم عليا وتهتف باسمه حينئذ ، فقال الفضل :

— يا عمرو إنه ليس لنا أن نكتم ما سمعنا منك وليس لنا أن نجيبك وأبو الحسن شاهد بالمدينة ، إلا أن يأمرنا فنفعل .

ثم رجع الفضل إلى علىّ فحدثه ، فغضب وشتم عمرا وقال :

— آذى الله ورسوله .

ثم قام فأتى المسجد فاجتمع إليه كثير من قريش ، وتكلم مغضبا فقال :

— يا معشر قريش إن حب الأنصار إيمان وبغضهم نفاق ، ولقد قضوا ما عليهم وبقى ما عليكم . واذكروا أن الله رغب لنبيكم عن مكة فنقله إلى

المدينة ، وكره له قريشا فنقله إلى الأنصار . ثم قدمنا عليهم دارهم فقاسمونا الأموال وكفَونا العمل ، فصرنا منهم بين بذل الغنى وإيثار الفقير . ثم حاربنا الناس فوقّونا بأنفسهم . وقد أنزل الله تعالى فيهم آية من القرآن جمع لهم فيها بين خمس نِعم ، فقال ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[1]

ألا وإن عمرو بن العاص قد قام مقاما آذى فيه الميت والحى ، ساء به الواتر وسرّ به الموتور ، فاستحق من المستمع الجواب ومن الغائب المقت . وإنه من أحب الله ورسوله أحب الأنصار ، فليكفف عمرو عنا نفسه .

فمشت قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص فقالوا :

ـــ أيها الرجل أما إذا غضب على فاكفف .

وقال على للفضل :

ـــ يا فضل انصر الأنصار بلسانك ويدك ، فإنهم منك وإنك منهم .

فقال الفضل :

قلت يا عمرو مقالا فاحشا ... إن تعد يا عمرو والله فَلكْ

إنما الأنصار سيف قاطع ... من تصبه ظُبة السيف هلك

وسيوف قاطع مضربُها ... وسهام الله فى يوم الحلك

نصروا الدين وآووا أهله ... منزل رحب ورزق مشترك

وإذا الحرب تلظت نارها ... بركوا فيها إذا الموت برك

---

(١) الحشر ٩ .

ودخل الفضل على عليّ فأسمعه شعره ففرح به وقال :

— وريت بك زنادى يا فضل ، أنت شاعر قريش وفتاها ، فأظهر شعرك وابعث به إلى الأنصار .

فلما بلغ ذلك الأنصار قالت :

— لا أحد يجيب إلا حسّان الحسام .

فبعثوا إلى حسان بن ثابت فعرضوا عليه شعر الفضل ، فقال :

— كيف أصنع بجوابه ! إن لم أتحر قوافيه فضحنى ، فرويدا حتى أقفُو أثره فى القوافى .

فقال له خزيمة بن ثابت :

— اذكر عليا وآله يكفيك كل شىء .

فقال حسان بن ثابت :

جزى الله عنا والجزاء بكفه
أبا حسن عنّا ومن كأبى حسن

سبقت قريشا بالذى أنت أهلُه
فصدرك مشروح وقلبك ممتحن

تمنت رجال من قريش أعزة
مكانك ، هيهات الهزال من السمن

وأنتَ من الإسلام فى كل موطن
بمنزلة الدلو البطين من الرسن

غضبت لنا إذ قام عمرو بخطبة
أمات بها التقوى وأحيا بها الإحن

فكنت المرجى من لؤى بن غالب
لما كان منهم والذى كان لم يكن
حفظت رسول الله فينا وعهدَه
إليك ومن أولى به منك ومن ومن !
ألست أخاه فى الهدى ووصيَّه
وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن
فحقك ما دامت بنجد وشيجة
عظيم علينا ثم بعد على اليمن

وبعث الأنصار بهذا الشعر إلى علىّ بن أبى طالب فخرج إلى المسجد ، وقال لمن به من قريش وغيرهم :

ـــ يا معشر قريش إن الله جعل الأنصار أنصارا فأثنى عليهم فى الكتاب ، فلا خير فيكم بعدهم . إنه لا يزال سفيه من سفهاء قريش يتره الإسلام ودفعه عن الحق وأطفأ شرفه وفضل غيره عليه ، يقوم مقاما فاحشا فيذكر الأنصار . فاتقوا الله وارعوا حقهم ، فوالله لو زالوا لزلتُ معهم ، لأن رسول الله ــ ﷺ ــ قال لهم : « أزول معكم حيثما زلتم » .

فقال المسلمون جميعا :

ـــ رحمك الله يا أبا الحسن ! قلت قولا صادقا .

ولم يرض عقلاء المهاجرين عن فتنة عمرو بن العاص ، فترك عمرو المدينة وخرج عنها حتى رضى عنه على والمهاجرون .

وقام الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط يشتم الأنصار فقال :

ـــ إن الأنصار لترى لها من الحق علينا مالا نراه . والله لئن كانوا آووا لقد عزوا بنا ، ولئن كانوا آسوا لقد منوا علينا . والله ما نستطيع مودتهم

لأنه لا يزال قائل منهم يذكر ذلّنا بمكة وعزنا بالمدينة ، ولا ينفكون يعيرون موتانا ويغيظون أحياءنا ، فإن أجبناهم قالوا غضبت قريش على غاربها . ولكن قد هوّن عليّ ذلك منهم حرصُهم على الدين أمس.. واعتذارهم من الذنب اليوم .

ثم قال :

تباذخت الأنصار فى الناس باسمها ... ونسبتُها فى الأزد عمرو بن عامر
وقالوا لنا حق عظيم ومنّةٌ ... على كل باد من مِعدّ وحاضر
فإن يك للأنصار فضلٌ فلم تنل ... بحرمته الأنصار فضلَ المهاجر
وإن تكن الأنصار آوت وقاسمت ... معايشها من جاء قسمة جازر
فقد أفسدت ما كان منها بمنّها ... وما ذاك فعل الأكرمين الأكابر
إذا قال حسان وكعب قصيدة ... بشتم قريش غنيت فى المعاشر
وسار بها الركبان فى كل وجهة ... وأعمل فيها كل خفٍّ وحافر
فهذا لنا من كل صاحب خطبة ... يقوم بها منكم ومن كل شاعر
وأهل بأنْ يهجَوا بكل قصيدة ... وأهل بأن يرموا بنبل فواقر

ففشا شعره فى الناس فغضبت الأنصار ، وغضب لها من قريش قوم منهم ضرار بن الخطاب الفهرى وزيد بن الخطاب ويزيد بن أبى سفيان ، فبعثوا إلى الوليد فجاء ، فتكلم زيد بن الخطاب فقال :

— يا بن عقبة بن أبى معيط ، أما والله لو كنت من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا لأحببت الأنصار ، ولكنك من الجفاة فى الإسلام البطاء عنه الذين دخلوا فيه بعد أن ظهر أمر الله وهم كارهون ، إنا نعلم أنا أتيناهم ونحن فقراء فأغنونا ، ثم أصبنا الغنى فكفوا عنا ولم يرزءونا شيئا .

فأما ذكرهم ذلة قريش بمكة وعزها بالمدينة فكذلك كنا وكذلك قال الله تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾[1] . فنصرنا الله تعالى بهم وآوانا إلى مدينتهم .

وأما غضبك لقريش فإنا لا ننصر كافرا ولا نواد ملحدا ولا فاسقا ، وقد قلت وقالوا فقطعك الخطيب وألجمك الشاعر .

وأما ذكرك الذى كان فدع المهاجرين والأنصار فإنك لست من ألسنتهم فى الرضا ، ولا نحن من أيديهم فى الغضب .

وتكلم يزيد بن أبى سفيان فقال :

ـــ يا بن عقبة . الأنصار أحق بالغضب لقتلى أحد ، فاكفف لسانك فإن من قتله الحق لا يغضب له .

وتكلم ضرار بن الخطاب فقال :

ـــ أما والله لولا أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال « الأئمة من قريش » لقلنا الأئمة من الأنصار . ولكن جاء أمر غلب الرأى ، فأقمع شرتك أيها الرجل ولا تكن امرأ سوء ، فإن الله لم يفرق بين الأنصار والمهاجرين فى الدنيا ، وكذلك الله لا يفرق بينهم فى الآخرة .

وأقبل حسان بن ثابت مغضبا من كلام الوليد بن عقبة وشعره ، فدخل المسجد وفيه قوم من قريش فقال :

ـــ يا معشر قريش إن أعظم ذنبنا إليكم قتلنا كفاركم وحمايتنا رسول الله ـــ ﷺ . وإن كنتم تنقمون منا منة كانت بالأمس فقد كفى الله

---

(١) الأنفال ٢٦ .

شرها، فما لنا وما لكم ؟ والله ما يمنعنا من قتالكم الجبن ولا من جوابكم العى . إنا لحىّ فعال ومقال ، ولكنا قلنا إنها حرب أولها عار وآخرها ذل ، فأغضينا عليها عيوننا وسحبنا ذيولنا حتى نرى وتروا ، فإن قلتم قلنا وإن سكتم سكتنا .

فلم يجبه أحد من قريش ، ثم سكت كل من الفريقين عن صاحبه ورضى القوم أجمعون وقطعوا الخلاف والعصبية .

واحتبس خالد بن سعيد بن العاص عن أبى بكر فلم يبايعه أياما وقد بايع الناس ، وأتى بنى هاشم فقال :

ــ أنتم الظهر والبطن ، والشعار[1] دون الدثار ، والعصا دون اللحا ، فإذا رضيتم رضينا وإذا سخطتم سخطنا ، حدثونى إن كنتم قد بايعتم هذا الرجل .

ــ نعم .

ــ على برد ورضا من جماعتكم ؟

ــ نعم .

ــ فأنا أرضى وأبايع إذا بايعتم : أما والله يا بنى هاشم إنكم الطوال الشجر ، الطيب الثمر .

ثم إنه بايع أبا بكر . وبلغت أبا بكر فلم يحفل بها واضطغنها عليه عمر .

واستقرت الخلافة لأبى بكر فافتخرت تيم بنى مرة رهط الصديق ، فقال الفضل بن العباس :

ــ يا معشر قريش وخصوصا يا بنى تيم ، إنكم إنما أخذتم الخلافة بالنبوة ونحن أهلها دونكم . ولو طلبنا هذا الأمر الذى نحن أهله لكانت كراهة

---

(١) الشعار : ما يقى الشعر وهو تحت الدثار .

الناس لنا أعظم من كراهتهم لغيرنا ، حسدا منهم لنا وحقدا علينا . وإنا لنعلم أن عند صاحبنا عهدا هو ينتهى إليه .

وقال بعض ولد أبى لهب بن عبد المطلب بن هاشم :

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف
عن هاشم ثم منها عن أبى حسن

أليس أول من صلىّ لقبلتكم
وأعلم الناس بالقرآن والسنن

وأقرب الناس عهدا بالنبى ومَن
جبريل عون له فى الغسل والكفن

ما فيه ما فيهم لا يمترون به
وليس فى القوم ما فيه من الحسن

ماذا الذى ردهم عنه فنعلمه
ها إن ذا غَبْنُنا من أعظم الغبن

فبعث إليه على فنهاه وأمره ألا يعود وقال :

ــ سلامة الدين أحب إلينا من غيره .

* * *

وصعد أبو بكر المنبر ليخطب الناس فقام له الحسن بن علىّ فقال :

ــ انزل عن منبر أبى .

فقال أبو بكر فى هدوء :

ــ صدقت والله إنه لمنبر أبيك لا منبر أبى .

فبعث علىّ إلى أبى بكر :

ــ إنه غلام حدث وإنا لم نأمره .

فقال أبو بكر :

ــ صدقت ، إنا لم نتهمك .

٩

بويع لأبى بكر بالخلافة فأمر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ، وأن يمضى أسامة لما أمر به . ولكنه لم اشتهرت وفاة النبى — ﷺ — ظهر النفاق وقويت نفوس أهل النصرانية واليهودية ، وصارت المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية ، وارتدت طوائف من العرب وقالوا :

— نصلى ولا ندفع الزكاة .

وكلم الناس أبا بكر فقالوا :

— كيف يتوجه هذا الجيش إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة ؟

— والله الذى لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله — ﷺ — ما أرد جيشا وجهه رسول الله — ﷺ — ولا حللت لواء عقده . والله لأن تخطفنى الطير أحب إلى من أن أبدأ بشىء قبل أمر رسول الله — ﷺ .

ووقف أسامة بالناس عند الخندق وقال لعمر :

— ارجع إلى خليفة رسول الله — ﷺ — فاستأذنه أن يأذن لى أن أرجع بالناس ، فإن معى وجوه الناس ولا آمن على خليفة رسول الله — ﷺ — وثقله وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون .

وانطلق عمر ولحقت به الأنصار فقالوا :

— فإن أبى أبو بكر إلا أن يمضى فأبلغه منا السلام ، واطلب منه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة .

فقدم عمر على أبى بكر وأخبره بما قال أسامة ، فقال أبو بكر :

— والله لو تخطفنى الذئاب والكلاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله — ﷺ .

— فإن الأنصار أمرونى أن أبلغك أنهم يطلبون أن تولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة .

فوثب أبو بكر وكان جالسا وأخذ بلحية عمر وقال :

— ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب ، استعمله رسول الله — ﷺ — وتأمرنى أن أنزعه !

فخرج عمر إلى الناس فقال :

— امضوا ثكلتكم أمهاتكم ، ما لقيت اليوم بسببكم من خليفة رسول الله — ﷺ — خيرا .

فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة ، خرج أسامة فى ثلاثة آلاف فيهم ألف فارس ، ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب ، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبى بكر ، فقال له أسامة :

— يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن .

— والله لا تنزل ووالله لا أركب . وما علىّ أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ، فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وترفع عنه سبعمائة خطيئة .

حتى إذا انتهى قال :

— إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل .

فأذن له ، ثم قال أبو بكر لأسامة :

— اصنع ما أمرك به نبى الله — ﷺ ؛ ابدأ ببلاد قضاعة ثم ائت آبل ، ولا تقصرن فى شىء من أمر رسول الله — ﷺ — ولا تعجلن لما خلفت من عهده .

ثم التفت إلى الناس وقال :

— يأيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلُّوا ، ولا تغدِروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا . اندفعوا باسم الله .

وانطلق الجيش إلى الشام ، وخرج أبو بكر على ساعده قماش وهو ذاهب به إلى السوق فقال له عمر :

— أين تريد ؟

— السوق .

— تصنع هذا وقد وليت أمر المسلمين ؟!

— فمن أين أطعم عيالى ؟

— انطلق يفرض لك أبو عبيدة .

كان بلال خازن الرسول — ﷺ — وكان مؤذنه ، وقد اعتزل عمله وامتنع عن الأذان بعد أن قبر رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وأصبح أبو عبيدة على بيت مال المسلمين . فانطلق إليه أبو بكر وعمر فقال :

— أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا بأوكسهم ، وكسوة الشتاء وكسوة الصيف . وإذا أبليت شيئا رددته وأخذت غيره .

ففرض له كل يوم نصف شاة .

وكانت العداوة ناشبة بين غطفان وأسد ، فلما بلغ الحين موت رسول الله — ﷺ — قام عيينة بن حصن فى غطفان فقال :

— ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد ، وإنى لمجدد الحلف الذى كان بيننا فى القديم ومتابع طليحة . والله لأن نتبع نبيا من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش . وقد مات محمد وبقى طليحة فطابقوه على رأيه .

ففعل وفعلوا ، فلما اجتمعت غطفان على المطابقة لطليحة هرب ضرار بن الأزور وقضاعي وسنان ومن كان قام بشيء من أمر النبى — ﷺ — فى بنى أسد إلى أبى بكر ، وارفض من كان معهم .

وبلغت وفاة رسول الله — ﷺ — القبائل العربية من المدينة ، وكان رافع بن أبى رافع الطائى فى مجلس مع أصحابه ، فلما سمع بموت الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال :

— من وليه ؟

— أبو بكر .

فشرد رافع بن أبى رافع يتذكر ذلك اليوم الذى بعث رسول الله ـ ﷺ ـ جيشا فآمر عليهم عمرو بن العاص وفيهم أبو بكر وعمر أن يستنفروا من مروا به ، فمروا على طئ فاستنفروهم فنفروا معهم فى غزاة ذات السلاسل ، فقال رافع فى نفسه :

ـ والله لأختارن فى هذه الغزاة لنفسى رجلا من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أستهديه ، فإنى لست أستطيع إتيان المدينة .

فاختار أبا بكر وكان له كساء فدكى يجمع بين طرفيه بخلال من عود أو حديد إذا ركب ، ويلبسه إذا نزل ، فلما قضوا غزاتهم قال :

ـ يا أبا بكر إنى قد صحبتك وإن لى عليك حقا ، فعلمنى شيئا أنتفع به .

ـ قد كنت أريد ذلك لو لم تقل لى : تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتحج البيت ، وتصوم شهر رمضان ، ولا تتأمر على رجلين .

ـ أما العبادات فقد عرفتها . أرأيت نهيك لى عن الإمارة ! وهل يصيب الناس الخير والشر إلا بالأمارة ؟!

ـ إنك استجهدتنى فجهدت لك . إن الناس دخلوا فى الإسلام طوعا وكرها فأجارهم الله من الظلم ، فهم جيران الله وعواد الله وفى ذمة الله ، فمن يظلم منكم إنما يحقر ربه . والله إن أحدكم ليأخذ شويهة جاره أو بعيره فيظل عمله بأسا بجاره، والله ومن وراء جاره .

فشد رافع بن أبى رافع الطائى على راحلته وهو يعجب فى نفسه كيف رضى أبو بكر أن يستخلف بعد رسول الله ـ ﷺ ، وكان ينهاه عن الإمارة ! فأتى المدينة فجعل يطلب خلوة الصديق حتى قدر عليها فقال :

ـــ أتعرفنى ؟ أنا رافع بن أبى رافع الطائى . أتعرف وصية أوصيتنى بها ؟

ـــ نعم . إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قبض والناس حديثو عهد بالجاهلية ، فخشيت أن يفتنوا وإن أصحابى حملونيها .

فما زال أبو بكر يعتذر إليه حتى عذره .

وأتت فاطمة الزهراء والعباس بن عبد المطلب أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ـــ ﷺ ، كانا يطلبان أرض فدك وسهمه من خيبر، فقالت فاطمة :

ـــ أأنت ورثت رسول الله أم أهله ؟

ـــ لا ، بل أهله .

ـــ من يرثك إذا مت ؟

ـــ ولدى وأهلى .

ـــ فما لنا لا نرث رسول الله ـــ ﷺ ؟

ـــ سمعت رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول : « إن النبى لا يورث » . ولكنى أعول من كان رسول الله يعول ، وأنفق على من كان رسول الله ينفق .

وفكرت فاطمة فهى لم تسمع ذلك من أبيها ، وقد علمت أن أزواج النبى ـــ ﷺ ـــ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبى بكر ليسألنه ميراثهن ، فقالت عائشة : « أليس قد قال رسول الله ـــ ﷺ « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ؟ إنها لو كانت قد سمعت ذلك من أبيها ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ ما طالبت بميراثه ، ولكنها كانت تقرأ فى كتاب الله : ﴿ وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا

منطق الطير ﴾(١) . ﴿ كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا * وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ﴾(٢) .

وسألته فاطمة أن يتنظر علىّ بن أبى طالب على تلك الأرض وذلك السهم ، فقال :

ـــ لست بالذى أقسم من ذلك شيئا ، ولست تاركا شيئا كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يعمل به فيها إلا عملته .

وإنى أخشى إن تركت أمره أو شيئا من أمره أن أزيغ .

فقامت فاطمة مغضبة وساء أبا بكر غضبها . إنها غضبت من قبل على عمر وقالت إنها لن تكلمه حتى تلقى ربها ، والتقى الصاحبان فقال عمر لأبى بكر :

ـــ انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها .

فانطلقا جميعا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه فأدخلهما عليها . فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال .

ـــ يا حبيبة رسول الله . والله إن قرابة رسول الله أحب إلى من قرابتى ، وإنك أحب إلىّ من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك أنى مت لا أبقى بعده . أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك

---

(١) النمل ١٦ (٢) مريم ١ ـــ ٦

وميراثك من رسول الله ؟ ألا إنى سمعت أباك رسول الله — ﷺ — يقول : « لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » .

— أرأيتكما إن حدثتكما عن رسول الله — ﷺ — تعرفانه وتفعلان به ؟

— نعم .

— نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من رضاى وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة ابنتى فقد أحبنى ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضانى ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطنى .

— نعم ، سمعناه من رسول الله — ﷺ — .

— فإنى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى ، ولئن لقيت النبى لأشكونكما إليه .

فقال أبو بكر :

— أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة .

ثم انتحب يبكى وخرج باكيا ، فاجتمع إليه الناس فقال لهم :

— يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله ، وتركتمونى وما أنا فيه . لا حاجة لى فى بيعتكم ، أقيلونى بيعتكم .

— يا خليفة رسول الله إن هذا الأمر لا يستقيم وأنت أعلمنا بذلك ، إنه إن كان هذا لم يقم لله دين .

— والله لولا ذلك وما أخافه من رخاوة هذه العروة ، ما بت ليلة ولى فى عنق مسلم بيعة بعدما سمعت من فاطمة .

وودت عائشة أن تعلم السر الذى أفضى به النبي — ﷺ — إلى فاطمة قبل موته . إن فاطمة جاءت إليه — صلوات الله وسلامه عليه — لما دخل بيت عائشة وقد اجتمع نساؤه عنده ، تمشى لا تخطئ مشيتها مشية

أبيها ، فلما رآها — ﷺ قال :

— مرحبا با بنتى .

فأقعدها عن يمينه ثم سارها بشيء فبكت ، ثم سارها فضحكت ، فقالت لها عائشة :

— خصك رسول الله بالسرار وأنت تبكين ؟

وقامت فاطمة فهرعت عائشة إليها وقالت :

— أخبريني ما سارك ؟

— ما كنت لأفشى سر رسول الله .

* * *

وأتت فاطمة بالحسن والحسين إليه فقالت :

— يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئا .

— أما الحسن فإن له هيبتى وسؤددى ، وأما الحسين فإن له جرأتى وجودى .

* * *

إن عائشة لم تنس ذلك اليوم ، وقد لحق صلوات الله وسلامه بالرفيق الأعلى فلن يعد هناك ما يوجب أن تكتم فاطمة ذلك السر الذى كان بينها وبين أبيها — صلوات الله وسلامه عليه . فذهبت عائشة إلى فاطمة الزهراء وقالت :

— أسألك لما لى عليك من الحق لما أخبرتنى ما بسارك ؟

— أما الآن فنعم! سارنى فى أول الأمر قال لى: إن جبريل كان يعارضنى فى القرآن كل سنة مرة وقد عارضنى فى هذا العام مرتين. ولا أرى ذلك إلا لاقتراب أجلى، فاتقى الله واصبرى فنعم السلف أنا لك. فبكيت. ثم سارنى فقال: أما ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين؟

١٠

ذاع خبر موت رسول الله ـ ﷺ ـ فى القبائل القريبة من المدينة، فجاء رجال من عبس وذبيان وكلموا أبا بكر فى أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاه ، فراح أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يتشاورون فى الأمر ، فقال أبو بكر فى حزم :

ـ والله لو منعونى عناقا (عنزا) كانوا يؤدونه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ لقاتلتهم على منعه .

وكان رجال من الصحابة يرون موادعة القوم . فأسامة بن زيد وجلة الأنصار والمهاجرين قد انطلقوا إلى الشام لقتال الروم انتقاما لمقتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وابن رواحة يوم مؤتة . وكان عمر بن الخطاب من مؤيدى ذلك الرأى فقال لخليفة رسول الله :

ـ كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ـ ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله .

فقال أبو بكر لعمر فى شدة :

ـ أجبّار فى الجاهلية خوّار فى الإسلام ! والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال . وقد قال : إلا بحقها .

وما هو إلا أن رأى عمر الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرف أنه

الحق ، ورجع وفد عبس وذبيان إلى عشائرهم وأخبروهم بقلة أهل المدينة وأطمعوهم فيها ، وقال شاعرهم :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا   فيا لعباد الله ما لأبى بكر
أيورثنا بكرا إذا مات بعده   وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلا رددتم وفدنا بزمانه   وهلا حشيتم حسَّ راعية السكر
وإن التى سألوكُمُ فمنعتمُ   لكالتمر أو أحلى إلىَّ من التمر

ودعا أبو بكر كبار الصحابة : علىّ بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، فقال الصديق :

— إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم قلة ، وإنكم لا تدرون أليلا تؤتون أم نهارا ، وأدناهم منكم على بريد . وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم ونبذنا عهدهم ، فاستعدوا وأعدوا .

وخرج المسلمون يستعدون للدفاع عن مدينة الرسول فلبسوا عدة القتال ، وخرج علىّ والزبير وسعد وطلحة وعبد الله بن مسعود ونفر من المسلمين لحماية مشارف المدينة ، وبقى باقى المسلمين فى المسجد مدججين بالسلاح على استعداد للقتال ، وإن كانوا فى قرارة أنفسهم يتمنون ألا يدهم أحد المدينة حتى يعود جيش أسامة من الشام .

وانقضت ثلاثة أيام وصحابة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — عند مداخل المدينة ساهرون ، يرسلون العسس مستطلعين . وما كادت الشمس تغيب حتى أقبل بعض العسس مهطعين معلنين أن القبائل المجاورة قد تحركت قاصدة المدينة ، فبعث صحابة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — إلى أبى بكر رسولا ينبئه الخبر ، فأجابهم أن

الزموا أماكنكم .

وجاء أبو بكر فى أهل المسجد على الإبل ، ورأى مفاجأة الأعداء فى جوف الليل ، فانطلق المسلمون حتى بلغوا معسكر الأعداء فما سمعوا لهم همسا ولا حسا ، وانقض المسلمون على أعدائهم فأخذوا وولوا الأدبار . فاقتفى المسلمون أثرهم حتى ذا حسا ، وكان الأعداء قد تركوا هناك مددا من الرجال ليشدوا أزرهم عند الحاجة ، فانضم المدد إلى فلول الفارين ووقفوا فى وجه المسلمين المغيرين ، ودار قتال رهيب وإذا برواحل المسلمين تجفل ، ترى ما دهاها !

جاء الأعداء بأوعية من جلود نفخوها وربطوها بالحبال وضربوها بأرجلهم فى وجوه إبل أهل المدينة ، فنفرت الإبل واستمرت فى ارتدادها حتى دخلت مدينة الرسول .

ولاح للأعداء النصر ، فما إن تبرغ الشمس حتى يميلوا على المدينة بأسيافهم ويرغموا أهلها على التسليم لهم بعدم إيتاء الزكاة . إنهم كانوا يؤدونها لرسول الله — ﷺ — لأن صلاته كانت سكنا لهم ، فما بال أبى بكر يصر على جمعها ؟

وراح المسلمون يتأهبون لمعاودة الهجوم قبل أن يتنفس الصبح ، فلما كان الثلث الأخير من الليل خرجوا متسللين دون أن يسمع لهم ركز ، وبلغوا الأعداء مع الفجر ، فداهموهم وأعملوا سيوفهم فيهم . فهبوا من نومهم مذعورين يدافعون عن أنفسهم ، ولكن المنايا أطلت من أسياف أهل المدينة فراحت تحصدهم حصدا ، فلم يسع القوم إلا الفرار مدحورين مهزومين .

وراح صحابة رسول الله — ﷺ — يحرسون المدينة ويرقبون عودة

جيش أسامة فى لهفة وقلق ، فقد انقضى ستون يوما على خروج الجيش و لم يأت الخليفة رسول الله — ﷺ — من يبشره بعودة الجيش ظافرا سالما ، وكانت تلك العودة أمنية تداعب أخيلة أهل المدينة أجمعين .

كان أهل المدينة فى انتظار أخبار سارة مشجعة ، فبعد موت رسول الله — ﷺ — عاد رسل رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — إلى مسيلمة وطليحة ، عادوا إلى أبى بكر وأخبروه بما كان من أمر الأنبياء الكذبة ، فقال أبو بكر :

— لا تبرحوا حتى تجئ رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم وأمر ، وانتقاض الأمور .

فلم يلبثوا أن قدمت كتب أمراء النبى — ﷺ — من كل مكان بانتقاضة عامة أو خاصة ، فلم يكن أبو بكر بقادر على محاربة المرتدين ما دام جيش أسامة لم يعد بعد ، فحاربهم بما كان رسول الله — ﷺ — يحاربهم بالرسل ، فرد رسلهم بأمره ، وأتبع الرسل رسلا وانتظر بمصادمتهم قدوم أسامة .

وكان أول خبر سار جاء إلى المدينة بعد موت رسول الله — ﷺ — خبر مقتل الأسود العنسى النبى الكذاب ، فانشرح صدر أبى بكر بذلك الخبر وكبر المسلمون سرورا .

وكانت أعين صحابة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ساهرة . فسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وعلى بن أبى طالب والزبير بن العوام وأبو قتادة فى رجال من المسلمين يحرسون مشارف المدينة . وسقط الليل فأرهفت الحواس ، ونظر عبد الله بن مسعود فرأى أناسا على رواحلهم يندفعون إلى المدينة ، فأمر رجاله أن

يستعدوا للقتال . وإذا بفارس يقدم بالبشرى ويقول إن عدى بن صفوان قد أقبل بالصدقات .

كان رسول الله — ﷺ — قد أرسل عماله ليجمعوا الصدقات من القبائل ، وكان عدى بن حاتم فيمن أرسل . فلما سمع عبد الله بن مسعود الخبر لم ينتظر حتى يقبل عدى والذين معه بل انطلق إلى المسجد ليعلن على الملأ قدوم عدى ليحيى فى الناس موات الأمل .

وفى وسط الليل جاء صفوان وبشر بمقدمه سعد بن أبى وقاص ، فلم ينم الناس من شدة الفرح . وكان رسول الله — ﷺ — قد ولى الزبرقان بن بدر التميمى على صدقات قومه . فجاء بها فى آخر الليل وبشر به عبد الرحمن ابن عوف ونادى بالخبر . فقال الناس :

— طالما بشرت بالخير .

وترقب المسلمون عودة جيش أسامة ليقاتلوا ذبيان وعبس .

والقبائل التى بخلت بالصدقات ، وليحاربوا مسيلمة وطليحة وكل من شق عصا الطاعة من الخارجين عن الإسلام .

* * *

انطلق جيش أسامة إلى أهل أبنى فشن عليهم الغارة ، وارتفع شعار المسلمين يزلزل الأرض تحت أعداء المسلمين :

— يا منصور أمت .. يا منصور أمت .

وارتفعت السيوف المؤمنة لتطيح بالرءوس الكافرة ، وجعل أسامة يرقب قاتل أبيه ، ثم انقض عليه كوحش كاسر وطعنه طعنة تركته كأمس الدابر . وأنزل الله الرعب بقلوب الأعداء فساروا كالغنم الشاردة فى الليلة الشاتية ، فقتل من قتل وأسر من أسر و لم يقتل من المسلمين أحد .

كان أسامة يصول ويجول على فرس أبيه ، فلما انقشع غبار المعركة راح يقسم الغنائم فأسهم للفرس سهمين وللفارس سهما وأخذ لنفسه مثل ذلك .

وكان عمال رسول الله — ﷺ — على قضاعة وعلى كلب امرؤ القيس بن الأصبع الكلبى ، وعلى القين عمرو بن الحكم ، وعلى سعد هذيم معاوية بن فلان الوائلى ، فارتد وديعة الكلبى فيمن آزره من كلب وبقى امرؤ القيس على دينه ، وارتد زميل بن قطبة القينى فيمن آزره من بنى القين وبقى عمرو على دينه ، وارتد معاوية بن فلان فيمن آزره من سعد هذيم ، فكتب أبو بكر إلى امرئ القيس بن فلان فسار لقتال وديعة والذين معه ، وإلى عمرو بن الحكم فسار لقتال زميل ومعاوية العذرى ، فلما توسط أسامة بلاد قضاعة بعث فرسانه لقتال المرتدين وشد أزر المسلمين ، ففر المرتدون واجتمعوا إلى وديعة ، فلما رجعت خيول أسامة إليه أغار على الحمقتين فأصاب فى بنى الضبيب وجذام وفى بنى خليل من لخم .

وكانت فكرة الردة قد راودت أخيلة بعض قبائل العرب ، فلما رأوا خيل أسامة قالوا :

— لولا قوة أصحاب محمد — ﷺ — ما خرج مثل هؤلاء من عندهم .

فثبتوا على الإسلام .

وجاء المساء فأمر أسامة الناس بالرحيل ، وأسرع السير وبعث مبشرا إلى المدينة بسلامتهم ، فخرج أبو بكر فى المهاجرين والأنصار يلقون أسامة ومن معه فرحين مستبشرين ، وعانق أبو بكر أسامة وهنأه بسلامته وسلامه جيشه ، وقال له عمر :

— السلام عليك أيها الأمير .

فقال له أسامة :

— غفر الله لك ، تقول لى هذا ؟

— لا أزال أدعوك ما عشت : الأمير . مات رسول الله — ﷺ — وأنت على أمير .

وسار أسامة واللواء بين يده حتى انتهى إلى باب المسجد ، ثم انصرف إلى بيته وهو شارد يتمنى لو أن حبيبه رسول الله — ﷺ — كان قد تلقاه بابتسامته الآسرة التى كانت تنير له الطريق .

١١

مات رسول الله ـ ﷺ ـ واجتمعت أسد وغطفان وطيئ على طليحة الذى ادعى النبوة ، إلا ما كان من خواص أقوام فى القبائل الثلاث قد بقوا على دينهم . فاجتمعت أسد بسميراء وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة وطيئ على حدود أرضهم ، واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرَّة وعبس بالأبرق من الربذة ، وانضم إليهم ناس من بنى كنانة . وضاقت بهم الأرض فافترقوا فرقتين ، فأقامت فرقة منهم بالأبرق ، وسارت الأخرى إلى ذى القصة ، وأمدهم طليحة بحبال ، فكان حبال على أهل ذى القصة من بنى أسد ومن انضم إليهم من ليث والديل ومُدْلج .

وبعث المرتدون وفودا فقدموا المدينة فنزلوا على وجوه الناس ، ما خلا العباس فقد أبى أن ينزلوا عليه ، فأخذوهم إلى أبى بكر فطلبوا منه أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة ، فأبَى أبو بكر ورد وفود المرتدين خائبين .

وكان قتال بين أسد وغطفان وطيئ والفئة القليلة التى كانت بالمدينة بعد خروج جيش أسامة ، فعبأ أبو بكر الناس ، ثم خرج على تعبئة يمشى فى سواد الليل وعلى ميمنته النعمان بن مقرِّن وعلى ميسرته عبد الله بن مقرِّن وعلى الساقة سويد بن مقرِّن معه الفرسان . فما طلع الفجر إلا وهم والعدو فى صعيد واحد ، فما سمعوا للمسلمين همسا ولا حسا حتى وضعوا فيهم

السيوف ، فاقتتلوا ما بقى من الليل فما أشرقت الشمس حتى ولى المرتدون الأدبار ، وقد قتل حبال ذراع طليحة الأيمن .

وعاد جيش أسامة إلى المدينة والمرتدون لا يزالون بذى القصة ، فاستخلف أبو بكر أسامة على المدينة وقال له ولجنده :

ـــ أريحوا وأريحوا ظهركم (رواحلكم) .

ثم خرج أبو بكر فى رجال من المسلمين إلى ذى القصة لقتال أسد وغطفان والمرتدين الذين يريدون أى يمنعوا حق المال ، فقال له المسلمون :

ـــ ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك ، فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فإن أصيب أمرت آخر .

ـــ لا والله ولا أواسينكم بنفسى .

فخرج فى تعبئته إلى ذى حسى وذى القصة ، والنعمان وعبد الله وسويد على ما كانوا عليه حتى نزلوا على أهل الربذة بالأبرق ، فهزم الله المرتدين وأخذ الحطيئة أسيرا ، فطارت عبس وبنو بكر ، وأقام أبو بكر على الأبرق أياما وقد غلب بنى ذبيان على البلاد وقال :

ـــ حرام على بنى ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد إذ غنّمناها الله وأجلاها .

وانضمت عبس وذبيان إلى طليحة وكان قد ارتحل عن سميراء ونزل على بُزاخة وأقام عليها ، وأراح أسامة وجنده ظهرهم والتقطوا أنفاسهم ، وقد جاءت صدقات كثيرة إلى المدينة تفضل عنهم فشد ذلك أزر المسلمين ، فراح أبو بكر يعقد الألوية وهو بذى القصة . عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد ، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له . وعقد لعكرمة بن أبى جهل وأمره بمسيلمة الكذاب ،

وعقد للمهاجر بن أبى أمية وأمره بجنود العنسى فالأسود العنسى قد قتل ، وأمره بمعونة الأنباء على قيس بن المكشوح ومن أعانه من أهل اليمن عليهم ، ثم يمضى إلى كندة بحضر موت ، وعقد لخالد بن سعيد بن العاص وكان عمر بن الخطاب كارها لذلك ، فخالد بن سعيد أبى مبايعة أبى بكر لما عاد من اليمن ولم يبايع إلا بعد أن أستأذن بنى هاشم ، وبعث أبو بكر خالد بن سعيد إلى الحمقتين من مشارف الشام ، وعقد لعمرو بن العاص إلى جماعة قضاعة ووديعة والحارث ، وعقد لحذيفة بن مِحصَن الغلفانى وأمره بأهل دبا ، ولعرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة وأمرهما أن يجتمعا وكل واحد منهما فى عمله على صاحبه ، وبعث شرحبيل بن حسنة فى أثر عكرمة بن أبى جهل وقال :

— إذا فُرغ من اليمامة فالحق بقضاعة وأنت على خيلك ، تقاتل أهل الردة .

وعقد لطريفة بن حاجز وأمره ببنى سليم ومن معهم من هوازن ، ولسويد بن مقرن وأمره بتهامة واليمن ، وللعلاء الحضرمى وأمره بالبحرين،فعقد أحد عشر لواء وراح يوصى الأمراء، وكتب إلى من بعث إليه من جميع المرتدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من أبى بكر خليفة رسول الله — ﷺ — إلى من بلغه كتابى هذا من عامة وخاصة ، أقام على الإسلام أو رجع عنه . سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى . فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، نُقرّ بما جاء به ونكفر من أبى ونجاهده . أما بعد فإن الله تعالى أرسل محمدا بالحق من عنده إلى خلقه بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، لينذر من كان حيا ويحق القول على

الكافرين ، فهدى الله بالحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله — ﷺ — بإذنه من أدبر عنه ، حتى صار إلى الإسلام طوعا وكرها . ثم توفى رسول الله — ﷺ — وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذى عليه ، وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام فى الكتاب الذى أنزل ، فقال ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (١) . وقال ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مِتَّ فهم الخالدون ﴾ (٢) . وقال للمؤمنين : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾ (٣) . فمن كان إنما يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له ، فإن الله له بالمرصاد حىٌّ قيوم لا يموت . ولا تأخذه سنة ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوه ويجزيه . وإنى أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله ، وما جاءكم به نبيكم — ﷺ ، وأن تهتدوا بهداه وأن تعتصموا بدين الله ، فإن كل من لم يهده الله ضال ، وكل من لم يعافه مبتلى ، وكل من لم يعنه الله مخذول ، فمن هداه الله كان مهتديا ، ومن أضله كان ضالا . قال الله تعالى : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ (٤) . ولم يقبل منه فى الدنيا عمل حتى يقر به ، ولم يقبل منه فى الآخرة صرف ولا عدل . وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان . قال الله تعالى :

---

(١) الزمر ٣٠ (٢) الأنبياء ٣٤
(٣) آل عمران ١٤٤ (٤) الكهف ١٧

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾[١] . وقال : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ [٢] . وإنى بعثت إليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة ، وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله .

وقد أمرتُ رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الأذان ، فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم ، وإن أذنوا اسألوهم ما عليهم فإن أبوا فعاجلوهم ، وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغى لهم » .

وكتب العهود للأمراء : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله — ﷺ — لفلان ، حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله ، سره وعلانيته ، وأمره بالجد فى أمر الله ، ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان . بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ، ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم . لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم . فمن أجاب إلى أمر الله عز

---

(١) الكهف ٥٠ (٢) فاطر ٦

وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف . وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله . فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استقر به . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه ، لا يقبل من أحد شيئا أعطاه إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله ، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه ، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن لا يدخل فيهم حشدا حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، لا يكونوا عيونا ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ، يتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول ».

وانطلق الأمراء بجيوشهم لقتال أهل الردة الذين أقروا بالإسلام وعملوا به ثم نكصوا على أعقابهم بخلا بالأموال ، وحرمانا للفقراء والمساكين من حق فرضه الله فى أموال الأغنياء ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ (١)

---

(١) الحشر ٧

١٢

قتل جعفر بن أبى طالب فى مؤتة فترك زوجه عاتكة بنت زيد ، وكانت عاتكة شابة رائعة الحسن رضية الخلق ، فخطبها عبد الله بن أبى بكر وهام بها حبا ، فلما تأهب المسلمون لقتال هوازن خرج عبد الله مع الخارجين وخاض القتال حتى خلصت إليه الجراح وكان جرحه خطيرا ، فلما عاد إلى المدينة عكفت عاتكة على العناية به حتى اندمل جرحه .

وتفتح قلبه لعاتكة زوجه ، ففى عبد الله رقة آل أبى بكر ، فعشقها وهام بها حتى أصبح لا يطيق البعد عنها ، فكان إذا خرج عنها لحاجة أحس حنينا إليها فيسرع بالعودة إليها ، لا يحس ان هناك دنيا غير دنياها .

وبادلته عاتكة حبا بحب ، وعلمت مكانتها من نفسه فغلبته فى كثير من أمره ، فصار الرأى لها والتدبير تدبيرها . ولم تكتف بأنها سلبته قلبه بل راحت تسلبه لبه ، ففنى عبد الله فيها ، فساء ذلك أبا بكر خليفة رسول الله . إنه يرى ابنه يتلاشى فى زوجه ويقبع فى داره لا يخرج للجهاد ، فعبد الرحمن بن أبى بكر خرج فى جيش خالد بن الوليد ، أما عبد الله فهو إلى جوار عاتكة ينظر فى عينيها الساحرتين الأخاذتين ، فعزم أبو بكر على أن يعاتبه لعله يرعوى ويثوب إلى رشده .

وتقابل الأب والابن وتعاتبا ، وخرج عبد الله وقد وعد أباه أن يختلف إلى الأسواق كما كان يختلف ، وأن يسير إلى المسجد كما كان يسير . وما إن

عاد إلى الدار ، وما إن تطلع إلى عاتكة حتى نسى كل شيء ، نسى ما دار بينه وبين أبيه ، بل نسى أباه ، بل نسى نفسه ، و لم يعد يذكر إلا عاتكة حبيبة الفؤاد .

ومكث عبد الله معها فلم يختلف إلى الأسواق و لم يبادر إلى الغزوات و لم ينطلق إلى المسجد ، بل انطلق يحلق فى عوالم الحب والخيال . وانتظر أبو بكر لعل حب ابنه لزوجه يبلى على الأيام ، ولعل جذوته تخبو ، ولكن ما كان كر الأيام إلا ليزيد ذلك الحب لهيبا ، وما كان عتاب أبى بكر إلا ليؤجج ناره فى صدره .

إن عبد الله ليحاول مخلصا أن يبرأ من ذلك الحب الذى جر عليه عتاب أبيه ، ولكن متى كان للمرء سلطان على فؤاده ؟ حاول عبد الله أن يكبح جماح قلبه ولكنه أخفق ، وانطلق قلبه بلا جماح على هواه .

وخرج أبو بكر فى يوم الجمعة للصلاة فمر على عبد الله وهو يناغى عاتكة فى علية له . فلم يكلمه بل سار فى طريقه ، فما زال أمام عبد الله فسحة من الوقت قبل الصلاة . ثم أذن المؤذن وصلى الناس وعاد أبو بكر وقد انقضت الصلاة ، فألفى عبد الله لا يزال يناغى عاتكة ويداعبها . فغضب أبو بكر أشد الغضب فابنه يبيع آخرته بدنياه ، فناداه وقال له :

— يا عبد الله أجمعت ؟

فقال عبد الله فى ارتباك :

— أوصلى الناس ؟

فقال أبو بكر فى حدة :

— نعم .

ثم قال لابنه فى حزم :

ـــ لقد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة وقد ألهتك عن فرائض الصلاة .

وانصرف أبو بكر وقلبه يدمى ، إنه يعلم مقدار شغف ابنه بزوجه ولكنها ستفسد عليه دينه . وبقى عبد الله شارد اللب مطأطئ الرأس ، ثم سار يجر رجليه جرا وقد ارتسم على وجهه الألم الشديد يكاد فؤاده ينفطر وكبده تنصدع . إن نفسه لتدمى وإن كلمة أبيه الأخيرة لتدوى فى أذنيه فتزلزل كيانه ، فيالها من كلمة قوضت هناءه : « طلقها ». هذا ما هتف به الشيخ ، ولخروج روحه أهون عليه من خروج عاتكة من بين يديه . لطالما وعد أباه أن يرعوى فى حبه ولكن حبه قد غلبه . فما من الفراق بد . ليته مات يوم الطائف يوم رمى بسهم ! ليته قضى قبل أن يحل به هذا العذاب ! كان وقع السهم يومذاك أخف من وقع ما سمعه اليوم على نفسه . أصاب السهم جسمه فأدماه ، وأصابت الكلمة روحه وما لجرح الروح من دواء .

واستمر عبد الله باسر الوجه حزين الفؤاد حتى أقبلت عليه عاتكة ، فحاول أن يخفى عنها ما ألم به ولكن هيهات ! فما كان المحب بقادر على أن يخفى ما به عمن يحب ، وما كان المحبوب بحاجة إلى أن يفصح اللسان عما يخفى المحب ، فإن روحيهما لتتناجيان وإن قصر البيان .

وتكلف عبد الله الهدوء والاطمئنان وفتح لها ذراعيه وقد ارتسم على وجهه الابتسام ، فلم ترتم فى أحضانه كما اعتادت أن تفعل ، ولم ترن إليه فى حنان بل قالت فى قلق :

ـــ ما هناك ؟

ـــ لا شىء .

ــ وحبى يا عبد الله أصدقنى القول .

فجرت دموعه على خديه ولم ينبس ، وأرخى ذراعيه الممدودتين وأطرق وقد غلبته دموعه ، فقالت فى دهشه :

ــ أتبكى ؟

ــ إنه الفراق .

وراح عبد الله يهيم على وجهه وصورة عاتكة تتمثل له أنى صرف البصر . إنه ليهفو إليها ، ولكن عز الوصول وتقطعت الأسباب وأصبحت عاتكة ذكرى وصارت له خيالاً بعد أن كانت شيئا ينال . وذات ليلة حاول عبد الله النوم ولكن لم تغمض له عين ، فصعد إلى سطح له يرقب النجوم التى شهدت حبه وهناءه ليشهدها سهده وشقاءه . وتلفت عبد الله فعادت إليه ذكريات سعادته تتزاحم فى رأسه فهاجت نفسه فقال فى لوعة :

أعاتك لا أنساك ما ذر شارق   وما ناح قمرى الحمام المطوق
أعاتك قلبى كل يوم وليلة   لديك لما تخفى النفوس معلق
لها خلق جزل ورأى ومنطق   وخلق مصون فى حياء ومصدق
فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها   ولا مثلها فى غير شىء تطلق

وكان أبو بكر فى سطح له يصلى فمس أذنيه صوت ابنه الشاكى ، فهز أوتار قلبه ورق له ولم يستطع أن يصبر على عذاب ابنه فأشرف عليه وقال :

ــ يا عبد الله راجع عاتكة .

فأحس عبد الله نشوة الغريق غب انتشاله من اليم ، وصاح قائلا فى فرح :

ــ أشهدك أنى راجعتها .

ولحه أبو بكر وهو يهرول فى غبطة وانشراح ، ثم يشرف على غلامه أيمن ويقول فى سرور :

— يا أيمن أنت حر لوجه الله تعالى ، أشهدك أنى راجعت عاتكة .

فاطمأنت نفس الشيخ ، وأخذ عبد الله يجرى إلى مؤخر الدار حيث اعتكفت عاتكة وراح يقول :

أعاتك قد طلقت فى غير ريبة ... وروجعت للأمر الذى هو كائن

كذلك أمر الله غاد ورائح ... على الناس فيه ألفة وتباين

وما زال قلبى للتفرق طائرا ... وقلبى لما قد قرب الله ساكن

ليهنك أنى لا أرى فيك سخطة ... وأنك قد تمت عليك المحاسن

فإنك ممن زين الله وجهه ... وليس لوجه زانه الله شائن

عادت السعادة ترفرف على العش الصغير ، ولكن جرح عبد الله الذى أصيب به يوم الطائف تحرك فلزم الدار ، وجعلت عاتكة تعمل جاهدة على تمريضه ، إلا أن جهودها ذهبت أدراج الرياح فقد ثقلت عليه وطأة المرض . ومرت الأيام فكانت حالته تزداد سوءا، وراحت عجلة الزمن تدور لتسرع بيوم طيه .

ودنا يوم الرحيل فتطلع إلى عاتكة وحاول أن يبش لها ولكن خانته ملامحه فظل وجهه شاحبا لا يوحى إلا بقرب الفراق ، فغامت عينا عاتكة بالدمع فأشاحت بوجهها حتى لا يرى عبراتها المترقرقة فى مقلتيها .

وتذكر عبد الله أنه كان قد ابتاع الحلة التى أرادوا دفن رسول الله — ﷺ — فيها بتسعة دنانير ليكفن فيها فطلبها . فجاءوا له بها . وحضرته الوفاة فنظر فى الحلة وقال :

— لا تكفنونى فيها،فلو كان فيها خير كفن فيها رسول الله — ﷺ .

وانطلقت روح عبد الله من سجنها لتهيم طليقة فى السمـاوات ، وأحست عاتكة حزنا ثقلا ولوعة وأسى فراحت تبكى حتى لكاد قلبها ينفطر ، وأنشأت تقول :

فلله عينا من رأى مثله فتى ... أكر وأحمى فى الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها ... إلى الموت حتى يترك الرمح أحمرا
فآليت لا تنفك عينى بسخينة ... عليك ولا ينفك جلدى أغبرا
مدى الدهر ما غنت حمامة أيكة ... وما طرد الليل الصباح المنورا

وجهز الجسد الفانى ، ووقف أبو بكر يصلى عليه فى خشوع وفى القلب لوعة وفى النفس حسرة وفى العينين دموع ، ثم حمل ليقبر وانطلق الناس به حتى بلغوا البقيع ، فنزل فى قبره عمر وطلحة ، وغيب عبد الله فى التراب فانقضى كما ينقضى اللحن الجميل .

١٣

كان طليحة بن خويلد فى قومه بنى أسد وفى غطفان ، وانضم إليهم بنو عبس وذبيان ، وبعث إلى بنى جديلة والغوث وطئ يستدعيهم إليه فبعثوا أقواما منهم بين أيديهم ليلحقوهم على أثرهم سريعا ، فبعث الصديق عدى بن حاتم إلى قومه طئ وقال له :

ــ أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم .

فذهب عدى إلى قومه بنى طئ فأمرهم أن يبايعوا الصديق وأن يراجعوا أمر الله . فقالوا :

ــ لا نبايع أبا الفصيل أبدا .

وعقد أبو بكر لخالد بن الوليد سيد الأمراء ورأس الشجعان الصناديد ، وقال :

ــ سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله سله على الكفار والمنافقين .

وأمره أبو بكر أن يبدأ بطئ على الأكناف . ثم يكون وجهه إلى البزاخة ، ثم يثلث بالبطاح ، ولا يريم إذا فرغ من قوم حتى يحدث إليه ويأمره بذلك . وظهر أبو بكر أنه خارج إلى خيبر ومنصب عليه منها حتى يلاقيه بالأكناف ، أكناف سلمى .

وانطلق خالد وعلى مقدمة الأنصار الذين معه ثابت بن قيس بن

شماس . إنه خطيب الأنصار وخطيب النبى ــ ﷺ ــ وقال عنه ــ ﷺ : نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس . ولما أنزل على رسول الله ــ ﷺ : ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ (١) . اشتدت على ثابت وغلق عليه بابه وطفق يبكى ، فأخبر رسول الله ــ ﷺ ــ فسأله فأخبره بما كبر عليه منها وقال :

ــ أنا رجل أحب الجمال وأنا أسود قومى .

ــ إنك لست منهم ، بل تعيش بخير وتموت بخير ويدخلك الله الجنة .

ولما أنزل على رسول الله : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول ﴾ (٢) فعل مثل ذلك فأخبره النبى ــ ﷺ ــ فأرسل إليه فأخبره بما كبر عليه منها وأنه جهير الصوت وأنه يتخوف ممن حبط عمله ، فقال ــ ﷺ :

ــ إنك لست منهم ، بل تعيش حميدا وتقتل شهيدا ويدخلك الله الجنة .

وبعث خالد بين يديه ثابت بن أقرم وعكاشة بن محصن طليعة ، وكان ثابت حليف الأنصار شهد بدرا وما بعدها ، وكان ممن حضر مؤتة ، فلما قتل عبد الله بن رواحة دُفعت الراية إليه فسلمها لخالد بن الوليد وقال :

ــ أنت أعلم بالقتال منى .

أما عكاشة بن محصن فكان من سادات الصحابة وفضلائهم ، هاجر وشهد بدرا وأبلى يومئذ بلاء حسنا ، وانكسر سيفه فأعطاه رسول الله يومئذ سيفا شديد المتن وكان ذلك السيف يسمى العون ، وشهد أحدا

---

(١) النساء ٣٦ (٢) الحجرات ٢

والخندق وما بعدهما ، ولما ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب فقال عكاشة :

ـ يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم .

ـ اللهم اجعله منهم .

ثم قام رجل آخر فقال :

ـ يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم .

ـ سبقك بها عكاشة .

كان عمر عكاشة أربعا وأربعين سنة وكان من أجمل الناس ، فانطلق ثابت وعكاشة طليعة .

وقام طليحة فيمن معه فقال :

ـ أمرت أن تصنعوا رحى ذات عرى ، يرمى الله بها من رمى ، يهوى عليها من هوى .

ثم عبى جنوده ثم قال :

ـ ابعثوا فارسين ، على فرسين أدهمين ، من بنى نصر بن قعين ، يأتيانكم بعين .

وخرج طليحة وأخوه سلمة طليعتين ينظران ويسألان ، فلما وجدا ثابتا وعكاشة تبارزوا ، فأما سلمة فلم يمهل ثابتا أن قتله ، ونادى طليحة أخاه حين رأى أن قد فرغ من صاحبه أن أعنى على الرجل ، فإنه آكل ، فاعتونا عليه فقتلاه، ثم رجعا وقد أثلج صدر طليحة فقد انتقم لمقتل ابن أخيه حبال بذى القصة ، فقال :

عشية غادرت ابن أقرم ثاويا ... وعكاشة العمىَّ تحت مجالِ

أقمت له صدر الحمالة إنها ... مُعَّوذة قَبل الكماة نزال

فيومٌ تراها فى الحلال مصونـةً ويـوم تراهـا فى ظـلال عــوالى
وإن يك أولاد أصبـــن ونسوة فلم يذهبـوا فرغـا بقتـل حبــال

وكان أبو بكر قد اتفق مع خالد على أن يذهب أبو بكر إلى خيبر بمن معه مكيدة ليبلغ ذلك عدوه فيرعبهم ، فخرج أبو بكر إلى خيبر فقعدت طئ عن نصرة طليحة واللحوق بمن خرج منها إليه ، وخرج خالد إلى طليحة وكان فى جيشه كبار صحابة الرسول :

عمار بن ياسر ، وزيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، وكان زيد أكبر من عمر أسلم قديما وشهد بدرا وما بعدها وقد آخى رسول الله — ﷺ — بينه وبين معن بن عـدى الأنصارى ، وكانت رايـة المهاجرين بيده .

وسالم مولى أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة،وقد تبناه أبو حذيفة وزوجه بابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة ، فلما أنزل الله : ﴿ ادعوهـم لآبائهم ﴾ [(١)] دعوه سالم بن عبيد ، وكان من سادات المسلمين أسلم قديما وهاجر إلى المدينة قبل رسول الله — ﷺ — فكان يصلى بمن بها من المهاجرين وفيهم عمر بن الخطاب لكثرة حفظه القرآن ، وشهد بدرا وما بعدها . وهو أحد الأربعة الذين قال فيهم رسول الله — ﷺ : استقرئوا القرآن من أربعة ، فذكر منهم سالما مولى أبى حذيفة .

وأبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى الخزرجى ، شهد بدرا وأبلى يوم أحد وقاتل قتالا شديدا . وأعطاه رسول الله — ﷺ — يومئذ سيفا

---

(١) الأحزاب ٥٢

فأعطاه حقه . وكان يتبختر عند الحرب فقال — صلوات الله وسلامه عليه : إن هذه لمشية يبغضها الله إلا فى هذه المواطن . وكان يعصب رأسه بعصابة حمراء ، شعارا له بالشجاعة .

والطفيل بن عمرو الدوسى ، أسلم قبل الهجرة وذهب إلى قومه فدعاهم إلى الله فهداهم الله على يديه فلما هاجر النبى — ﷺ — إلى المدينة جاءه بتسعين أهل بيت من دوس مسلمين . إنه خرج فى جيش خالد ومعه ابنه عمرو ، فرأى الطفيل فى المنام كأن رأسه قد حلق وكأن امرأة أدخلته فى فرجها وكأن ابنه يجتهد أن يلحقه فلم يصل ، فأولها بأنه سيقتل ويدفن وأن ابنه يحرص على الشهادة فلا ينالها عامه ذلك .

وعباد بن بشير بن وقش الأنصارى،أسلم على يدى مصعب بن عمير قبل الهجرة،قبل إسلام معاذ وأسيد بن الحضير.وشهد بدرا وما بعدها،وكان ممن قتل كعب بن الأشرف ، وكان يوم خرج جيش خالد ابن خمس وأربعين سنة . وكان له بلاء وعناء ، وتهجد رسول الله — ﷺ — ذات ليلة فسمع صوت عباد فقال :

— اللهم اغفر له .

وعبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول ، كان من سادات الصحابة وفضلائهم ، شهد بدرا وما بعدها ، وكان أبوه رأس المنافقين وكان أشد الناس على أبيه ، ولو أذن له رسول الله — ﷺ — لضرب عنقه ، وكان اسمه الحباب فسماه رسول الله — ﷺ — عبد الله .

ومعن بن عدى ، وهو أخو عاصم بن عدى ، شهد العقبة وبدرا وأحد والخندق وسائر المشاهد ، وكان قد آخى رسول الله — ﷺ — بينه وبين زيد بن الخطاب ، وحين مات رسول الله عليه السلام بكى الناس عليه

وقالوا : والله وددنا أنا متنا قبله ونخشى أن نفتن بعده . قال معن بن عدى : ولكنى والله ما أحب أن أموت قبله لأصدقه ميتا كما صدقته حيا . وكان الذى أخبر عمر بحديث السقيفة واجتماع الأنصار لمبايعة سعد بن عبادة .

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، أخو هند زوجة أبى سفيان ، أسلم قبل أن يدخل المسلمون دار الأرقم ، وهاجر إلى الحبشة وإلى المدينة وشهد بدرا وما بعدها ، وآخى رسول الله — ﷺ — بينه وبين عباد بن بشر ، وكان عمره يوم خرج لقتال المرتدين ثلاثا وخمسين سنة ، وكان طويلا حسن الوجه له سن زائدة .

كانوا فرسانا لا يرهبون الموت وكانوا من حملة القرآن .

وأقبل خالد بالناس حتى مروا بثابت بن أقرم قتيلا فلم يفطنوا له حتى وطئته الإبل بأخفافها ، فكبر ذلك على المسلمين . ثم نظروا فإذا هم بعكاشة بن محصن صريعا فجزع لذلك المسلمون وقالوا :

— قتل سيدان من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم .

ورأى خالد ما بأصحابه من الجزع عند مقتل ثابت وعكاشة فقال لهم :

— هل لكم إلى أن أميل بكم إلى حى من أحياء العرب كثير عددهم ، شديدة شوكتهم ، لم يرتد منهم عن الإسلام أحد ؟

فقال له الناس :

— ومن هذا الحى الذى تعنى ؟ فنعم والله الحى هو .

— طئ .

— نعم الرأى ما رأيت .

كان عدى بن حاتم الطائى يفاوض بنى قومه بعد أن قالوا لا نبايع

أبا فصيل ، فقال :

— والله ليأتينكم جيش فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر .

و لم يزل عدى يزين لهم مبايعة الصديق حتى لا نوا ، فلما مال خالد إلى بنى طئ خرج إليه عدى فقال :

— أنظرنى ثلاثة أيام فإنهم قد استنظرونى حتى يبعثوا إلى من تعجل منهم إلى طليحة حتى يرجعوا إليهم ، فإنهم يخشون إن تابعوك أن يقتل طليحة من سار إليه منهم ، وهذا أحب إليك من أن يجعلهم إلى النار .

فلما كان بعد ثلاث جاءه عدى فى خمسمائة مقاتل ممن راجع الحق فانضافوا إلى جيش خالد . وارتحل خالد نحو الأنسر يريد جديلة ، فقال له عدى :

— إن طيئا كالطائر ، وإن جديلة أحد جناحى طئ ، فأجلنى أياما لعل الله أن ينتقذ جديلة كما انتقذ الغوث .

ففعل فأتاهم عدى ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، فجاءه بإسلامهم ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب ، فكان خير مولود ولد فى أرض طئ وأعظمه عليهم بركة .

وسار خالد حتى نزل بأجا وسلمى وعبى جيشه هناك ، والتقى مع طليحة الأسدى بمكان يقال له بزاخة ، ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينظرون على من تكون الدائرة . وجاء طليحة فيمن معه من قومه ومن التف معهم وانضاف إليهم ، وقد حضر معه عيينة بن حصن المطاع الخليع فى سبعمائه من قومه بنى فزارة . واصطف الناس وجلس طليحة ملتفا فى كساء له يتنبأ لهم ينظر ما يوحى إليه فيما يزعم .

ودار القتال وجعل عيينة يقاتل ما يقاتل ، حتى إذا ضجر من القتال يجئ إلى طليحة وهو ملتف فى كسائه فيقول :

— أجاءك جبريل ؟

— لا .

فيرجع فيقاتل ثم يرجع فيقول له :

— أجاءك جبريل ؟

— لا .

فيرجع فيقاتل ثم يرجع فيقول له :

— أجاءك جبريل ؟

— نعم .

— فما قال لك ؟

— قال لى إن لى رحاء كرحاه ، وحديثا لا تنساه .

فقال عيينة بن حصن فى سخرية :

— أظن أن قد علم الله سيكون لك حديث لا تنساه .

ثم التفت إلى قومه وقال :

— يا بنى فزارة انصرفوا .

— وانهزم وانهزم الناس عن طليحة ، فلما جاءه المسلمون ركب على فرس كان قد أعدها لنفسه وأركب امرأته النوار على بعير له ، ثم انهزم بها إلى الشام وتفرق جمعه ، وقد قتل الله طائفة ممن كان معه . فلما أوقع الله بطليحة وفزارة ما أوقع ، قالت بنو عامر وسليم وهوازن :

— ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلم لحكمه فى أموالنا وأنفسنا .

وأسر خالد عيينة بن حصن وقرة بن هبيرة ــ وكان أحد الأمراء مع طليحة ــ وبعث بهما إلى المدينة ، فدخل عيينة المدينة مجموعة يداه إلى عنقه ، فجعل الولدان والغلمان يطعنونه بأيديهم ويقولون :

ــ أى عدو الله ، ارتددت عن الإسلام ؟!

ــ والله ما كنت آمنت قط .

وقدم عيينة وقرة بن هبيرة على أبى بكر ، فقال له قرة :

ــ يا خليفة رسول الله ، إنى قد كنت مسلما ولى من ذلك على إسلامى عند عمرو بن العاص شهادة ، قد مر بى فأكرمته وقربته ومنعته .

فدعا أبو بكر عمرو بن العاص فقال :

ــ ما تعلم من أمر هذا ؟

كان رسول الله ــ ﷺ ــ قد بعث عمرو بن العاص إلى جيفر منصرفه من حجة الوداع ، فمات رسول الله ــ ﷺ ــ وعمرو بعمان ، فأقبل حتى إذا انتهى إلى البحرين وجد المنذر بن ساوى فى الموت فقال له المنذر :

ــ أشر علىّ فى مالى بأمر لى ولا علىّ .

ــ صدِّق بعقار صدقة تجرى من بعدك .

ففعل .

ثم خرج من عنده فسار فى بنى تميم ، ثم خرج منها إلى بلاد بنى عامر فنزل على قرة بن هبيرة ، وقرة يقدم رجلا ويؤخر رجلا . إنه يتأرجح بين الإسلام والردة وعلى ذلك بنو عامر كلهم إلا خواص ، فذبح قرة لعمرو وأكرم مثواه ، فلما أراد الرحلة خلا به قرة فقال :

ــ يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالأتاوة ، فإن أنتم أعفيتموها

من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم .

ـــ أكفرت ياقرة ؟

ـــ اجعلوا بيننا وبينكم موعدا .

ـــ أتواعدنا بالعرب وتخوفنا بها ؟ موعدك حِفش أمك ، والله لأوطئنه عليك الخيل .

وراح عمرو يقص على أبى بكر الخبر حتى انتهى إلى ما قال له من أمر الصدقة ، قال له قرة :

ـــ حسبك ، رحمك الله .

ـــ لا والله حتى أبلغ له كل ما قلت ؟

فبلغ له فتجاوز عنه أبو بكر وحقن دمه ودم عيينة بن حصن .

وأخذ المسلمون رجلا من بنى أسد فأتى به خالد بالغمر ، وكان عالما بأمر طليحة ، فقال له خالد :

ـــ حدثنا عنه عن ما يقول لكم .

ـــ والحمام واليمام ، والصُّرد الصوام ، قد صُمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام .

واجتمعت طائفة كثيرة من الفلال يوم بزاخة من أصحاب طليحة من بنى غطفان ، فاجتمعوا إلى امرأة يقال لها أم زمل ـــ سلمى بنت ملك بن حذيفة ـــ وكانت من سيدات العرب كأمها أم قرفة ، وكان يضرب بأمها المثل فى الشرف لكثرة أولادها وعزة قبيلتها وبيتها . فلما اجتمعوا إليها ذمرتهم لقتال خالد ، فهاجوا لذلك ، وناشب إليهم آخرون من بنى سليم وطيئ وهوازن وأسد فصاروا جيشا كثيفا . وتفحل أمر هذه المرأة ، فلما

سمع بهم خالد بن الوليد سار إليهم واقتتلوا قتالا شديدا وهى راكبة على جمل أمها الذى يقال له : من يمس جملها فله مائة من الإبل ، وذلك لعزها ، فهزمهم خالد وعقر جملها ، وبعث بالفتح إلى الصديق فكتب أبو بكر إلى خالد :

— « ليزدك ما أنعم الله به خيرا ، واتق الله فى أمرك ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . جد فى أمرك ولا تلن ولا تظفر بأحد من المشركين قتل من المسلمين إلا نكلت به » .

توفى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقد فرق فى بنى تميم عماله ، فكان الزبرقان بن بدر على الرِّباب وعوف والأبناء ، وسهم بن منجاب وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون ، وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو على بنى عمرو ـــ هذا على يَهْدَى وهذا على خضَّمَ قبيلتين من بنى تميم ، ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة على بنى حنظلة ـــ هذا على بنى مالك وهذا على بنى يربوع .

وجاء الخبر بموت رسول الله ـــ ﷺ ـــ فخرج صفوان إلى أبى بكر بصدقات بنى عمرو وما ولى منها وبما ولى سبرة ، وبقى سبرة فى قومه . وانتظر قيس ما يفعل الزبرقان فقد كانت بينهما جفوة ومنافسة ، وقد قال قيس وهو ينتظر لينظر ما يصنع ليخالفه :

ـــ واويلنا من ابن العُكليَّة (١) ! والله لقد مزقنى فما أدرى ما أصنع ؟! لئن أنا تابعت أبا بكر وأتيته بالصدقة لينحرنَّها فى بنى سعد فليسوِّدنى فيهم ، ولئن نحرتها فى بنى سعد ليأتين أبا بكر فليسودنى عنده .

كان قيس فى حيرة : إنه يخشى أن ينطلق بصدقات قومه إلى أبى بكر فينحر الزبرقان ما معه من الصدقات فى قومه فينال عندهم الحظوة ويصبح

---

(١) العكل بالكسر والضم : اللئيم .

السيد المطاع فيهم . وإنه يخشى أن ينحر الصدقات فى قومه فيذهب الزبرقان بما معه إلى خليفة رسول الله فينال عنده الحظوة . وأخيرا عزم قيس على قسمها فى قومه ففعل ، وعزم الزبرقان بن بدر على الوفاء فاتبع صفوان بصدقات الرِّباب وعوف والأبناء حتى قدم بها المدينة ، وهو يقول يُعرِّض بقيس :

وفيت بأذواد [1] الرسول وقد أبت
سعاة فلم يردد بعيرا مُجيرها

ونشب الشر بين أحياء بنى تميم وتشاغلوا وشغل بعضهم بعضا ، ثم ندم قيس بعد ذلك فلما أظله العلاء بن الحضرمى أخرج الصدقات ، ثم خرج معه إلى المدينة وقال :

ألا بلغا عنى قريشا رسالة … إذا ما أتتها بينات الودائع

ولم تهدأ قبائل بنى تميم ؛ بقى أناس على الإسلام وارتد أناس عنه فقامت بينهم حروب ، وكانت الإمدادات تأتى من بنى تميم إلى ثمامة بن أثال وهو يحارب مسيلمة الكذاب ، فلما حدث ذلك الشقاق عاد بنو تميم إلى عشائرهم فأضر ذلك ثمامة ، فراح ينتظر وفود عكرمة بن أبى جهل لينهض مرة أخرى لقتال المرتدين .

وراح مسلمو بنى تميم يحاربون المرتدين منهم ، وفيما هم يقتتلون فجأتهم سجاح بنت الحارس قد أقبلت من الجزيرة وكانت ورهطها فى بنى تغلب تقود أفناء ربيعة ، معها الهذيل بن عمران فى بنى تغلب ، وعقة بن هلال فى النَّمر، وزياد بن هلال فى أياد، والسليل بن قيس فى شيبان، فأتاهم

---

(١) الذود : ثلاثة أبعرة إلى العشرة .

أمر أدهى مما كانوا فيه .

كانت سجاح من نصارى العرب وقد ادعت النبوة بعد موت رسول الله — ﷺ — وخرجت لقتال أبي بكر ، فلما انتهت إلى الحَزْن راسلت مالك بن نويرة ودعته إلى الموادعة فأجابها ، ولواها عن غزو أبي بكر وحملها على غزو أحياء من بني تميم فقالت :

— نعم فشأنك بمن رأيت ، فإنى إنما امرأة من بنى يربوع ، فإن كان ملك فالملك ملككم .

فأرسلت إلى بنى مالك بن حنظلة تدعوهم إلى الموادعة فأجابها إلى ذلك وكيع ، فخرج عطارد بن حاجب وسروات مالك حتى نزلوا فى بنى العنبر على سبرة بن عمرو هرابا قد كرهوا ما صنع وكيع .

واجتمع وكيع ومالك وسجاح وقد وادع بعضهم بعضا ، واجتمعوا على قتال الناس وقالوا :

— بمن نبدأ ؟ بخضَّم أم بيهدى أم بعوف والأبناء أم بالرِّباب ؟

فقالت :

— أعدوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم أغيروا على الرِّباب ، فليس دونهم حجاب .

ودارت معركة رهيبة قتلت فيها قتلى كثيرة ، وانتصرت سجاح فانضم إليها الزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب ، واجتمع إليها رؤساء أهل الجزيرة فقالوا لها :

— ما تأمريننا ؟ فقد صالح مالك ووكيع قومهما فلا ينصروننا ولا يريدوننا على أن نجوز فى أرضهم ، وقد عاهدنا هؤلاء القوم .

— اليمامة .

ـــ إن شوكة أهل اليمامة شديدة ، وقد غلظ أمر مسيلمة .
فقالت فى إصرار :
ـــ عليكم باليمامة ، ودفوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة .

وخرجت لبنى حنيفة ، وبلغ ذلك مسيلمة فهابها وخاف إن هو شغل بها أن يغلبه ثمامة على حجر أو شرحبيل بن حسنة أو القبائل التى حولهم ، فأهدى لها ، ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يأتيها ، فنزلت الجنود على الأمواه وأذنت له وآمنته ، فجاءها وافدا فى أربعين من بنى حنيفة وكانت راسخة فى النصرانية قد علمت من علم نصارى تغلب ، فقال مسيلمة :

ـــ لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلت ، وقد رد الله عليك النصف الذى ردّت قريش ، فحباك به وكان لها لو قبلت .
ـــ لا يرد النصف إلا من حنف ، فاحمل النصف إلى خيل تراها كالسهف .
ـــ سمع الله لمن سمع ، وأطعمه بالخير إذ طمع ، ولا زال أمره فى كل ما سر نفسه يجتمع ؛ رآكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة خلاكم ، ويوم دنية أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكُبار ، رب الغيوم والأمطار .

وراح مسيلمة يدارسها فقال :
ـــ ما أوحى إليك ؟
ـــ هل تكون النساء يبتدئن ؟ ولكن أنت ما أوحى إليك ؟
ـــ ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من

بين صفاق وحشى .

— وماذا أيضا ؟

— أوحى إلىّ أن الله خلق النساء أفراجا ، وجعل الرجال لهن أزواجا ، فنولج فيهن قعسا إيلاجا ، ثم نخرجها إذا نشاء إخراجا ، فينتجن لنا سخالا إنتاجا .

— أشهد أنك نبى .

— هل لك أن أتزوجك ، فآكل بقومى وقومك العرب ؟

— نعم .

فأقاما فى القبة التى ضربت لهما ثلاثا ، ثم انصرفت إلى قومها فقالوا :

— ما عندك ؟

— كان على الحق فاتبعته فتزوجته .

— فهل أصدقك شيئا ؟

— لا .

— ارجعى إليه فقبيح بمثلك أن ترجع بغير صداق .

فرجعت ، فلما رآها مسيلمة قال :

— مالك ؟

— أصدقنى صداقا .

— من مؤذنك ؟

— شبث بن ربعى الرّياحى .

— علىّ به .

فجاء فقال :

— ناد فى أصحابك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم

صلاتين مما أتاكم به محمد ، صلاة العشاة الآخرة وصلاة الفجر .

وانصرفت سجاح إلى بنى تغلب ومعها أصحابها فيهم الزبرقان ابن بدر ، وعطارد بن حاجب ، وعمرو بن الأهتم ، وغيلان بن خرشة ، وشبث بن ربعى ، وقد حملت نصف غلات اليمامة . وخرج الزبرقان والأقرع بن حابس إلى أبى بكر وقالا :

ـــ اجعل لنا خراج البحرين ونضمن لك ألا يرجع من قومنا أحد .

كان بنو تميم يدينون بالمجوسية فى الجاهلية ، وكانوا يعتقدون أنهم أكثر حضارة من قريش ، وقد دخلوا فى الإسلام بعد فتح مكة وما كان الإسلام قد استقر فى أفئدتهم بعد . فرأى أبو بكر أن يتألفهم بالمال فقبل أن يجعل لهم خراج البحرين ، وكان الذى يمشى بينهم وبين أبى بكر طلحة بن عبيد الله . وكتب الكتاب وبعث إلى شهود ليشهدوا منهم عمر ، فلما أتى عمر بالكتاب فنظر فيه لم يشهد ، ثم قال :

ـــ لا والله ولا كرامة .

ثم مزق الكتاب ومحاه ، فغضب طلحة فأتى أبا بكر فقال :

ـــ أأنت الأمير أم عمر ؟

ـــ عمر ، غير أن الطاعة لى .

ـــ فسكت ، وندم الزبرقان والأقرع بن حابس فخرجا ليشهدا مع خالد المشاهد كلها ، وليحاربا الذين باعوا دينهم بدنياهم تكفيرا عن ردتهما لعل الله يرحمهما برحمته ويدخلهما جناته ، ذلك هو الفوز العظيم .

١٥

خرج خالد بن الوليد من ظفر وقد استبرأ أسدا وغطفان وطيئا ، وأراد السير فسار يريد البطاح دون الحزن وعليها مالك بن نويرة ، فترددت الأنصار عليه وقالوا :

ــ ما هذا بعهد الخليفة إلينا . إن الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا .

ــ إن يك عهد إليكم هذا فقد عهد إليّ أنْ أمضى ، وأنا الأمير وإليّ تنتهى الأخبار . ولو أنه لم يأتنى له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتنى لم أعلمه حتى أنتهزها ، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا ثم نعمل به . وهذا مالك بن نويرة بحيالنا وأنا قاصد إليه ومن معى من المهاجرينَ والتابعين بإحسان ولست أكرههم .

ومضى خالد ، وندمت الأنصار ودار بينهم الحوار وقالوا :

ــ إن أصاب القوم خيرا إنه لخير حرمتموه ، وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبنكم الناس .

فأجمعوا اللحاق بخالد وبعثوا إليه رسولا . فلحقه الرسول بعد يومين من مسيره والتمس منه الانتظار حتى يلحقوا به ، فانتظر فلما لحقوا به انطلق بالأنصار والمهاجرين إلى مالك بن نويرة .

كان مالك قد ارعوى وندم بعد انصراف سجاح إلى الجزيرة وتحير فى أمره ، ففرق قومه فى أموالهم ونهاهم عن الاجتماع وقال :

— يا بنى يربوع إنا قد كنا عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الدين ، وبطأنا الناس عنه فلم نُفلح ولمُ ننجح . وإنى قد نظرت فى هذا الأمر فوجدت الأمر يتأتى لهم بغير سياسة ، وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، فإياكم ومناوأة قوم صنع لهم ، فتفرقوا إلى دياركم وادخلوا فى هذا الأمر .

فتفرقوا على ذلك إلى أموالهم ، وخرج مالك حتى رجع إلى منزله .

وعرف وكيع وسماعة قُبح ما أتيا يوم وادعا سجاح ، واجتمعوا على قتال الناس فلم يتجبرا بل أخرجا الصدقات ، فاستقبلا بها خالدا فقال خالد :

— ما حملكما على موادعة هؤلاء القوم ؟

فقالا :

— ثأر كنا نطلبه فى بنى ضبة . وكانت أيام تشاغل وفرص .

وقدم خالد البطاح فلم يجد به أحدا ، فبعث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل من لم يجب وإن امتنع أن يقتلوه .

وانطلقت السرايا ووصية أبى بكر ترن فى ضمائرهم : « إذا نزلتم منزلا فأذنوا وأقيموا ، فإن أذن القوم وأقاموا فكفوا عنهم ، وإن لم يفعلوا فلا شىء إلا الغارة ثم تقتلوا كل قتلة الحرق فما سواه ، وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم ، فإن أقروا بالزكاة فاقبلوا منهم ، وإن أبوها فلا شىء إلا الغارة ولا كلمة .

وراح المسلمون يؤذنون فى أحياء بنى تميم فيؤذن الناس ويقيمون الصلاة ، فكان المسلمون يكفون عنهم ، ثم يسألونهم الزكاة فكانوا

يخرجونها طائعين . وجاءت الخيل بمالك بن نويرة فى نفر معه من بنى ثعلبة وقد ارتفعت الأصوات ، فقد اختلفت السرية فيهم ، وكان أبو قتادة الحارث بن ربعى أخو بنى سلمة فى السرية ، فشهد أن مالك بن نويرة قد أذن لما سمع أذان المسلمين وقال :

— لما غشونا القوم أخفناهم تحت الليل ، فأخذ القوم السلاح فقلنا : إنا المسلمون . فقالوا : ونحن المسلمون . قلنا فما بال السلاح معكم ؟ قالوا لنا : فما بال السلاح معكم ؟ قلنا : فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح . فوضعوها ثم صلينا وصلوا .

وقال ناس من الناس إن مالك بن نويرة والذين معه لم يؤذنوا ، فلما اختلفوا فيهم أمر خالد بهم فحبسوا فى ليلة باردة لا يقوم لها شيء ، وجعلت تزداد بردا ، فأمر خالد مناديا فنادى :

— أدفئوا أسراكم .

وكانت فى لغة كنانة إذا قالوا : دثروا الرجل فأدفئوه دفأة قتله . فظن القوم أنه أراد القتل فقتلوهم ، فقتل ضرار بن الأزور مالكا . وسمع خالد ما أثاره القتل من ضجة فخرج وقد فرغوا منهم : فقال :

— إذا أراد الله أمرا أصابه .

فقال له أبو قتادة فى ثورة :

— هذا عملك .

فنهره خالد فى شدة ، فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر . وتزوج خالد أم تميم ابنة المنهال امرأة مالك بن نويرة ، فراح الناس يهمسون أنه كان يحبها فى الجاهلية ، وأنه ما قتل زوجها إلا لينالها .

وأتى أبو قتادة أبا بكر وراح يقص عليه ما كان من فعل خالد ، فقال

عمر لأبى بكر :

ــ إن فى سيف خالد رَهَقا ، فإن لم يكن هذا حقا حق عليه أن تقيده .

وأكثر عليه فى ذلك ، وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال :

ــ هيه يا عمر ! تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد .

وجاء متمم بن نويرة إلى المدينة ، فجعل يشكو إلى الصديق خالدا وعمر يساعده ، وينشد الصديق ما قال فى أخيه من المراثى :

وكنا كندمانى جُذيمة برهة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
وعشنا بخير ما حيينا وقبلنا أباد المنايا قوم كسرى وتبعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وراح عمر يزين لأبى بكر عزل خالد وأبو بكر لا يلقى إليه سمعه ، وقال متمم :

لقد لامنى عند العبور على البكى
رفيقى لتذراف الدموع السوافك
وقال أتبكى كل قبر رأيته
لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى
فدعنى فهذا كله قبر مالك

وراح متمم بن نويرة ينشد أبا بكر دم أخيه ويطلب إليه فى سبيهم ، فكتب له برد السبى . وألح عليه عمر فى خالد أن يعزله فقال أبو بكر :

ــ لا يا عمر ، لم أكن لأشيم سيفا سله الله على الكافرين .

و لم يسكت عمر بل ظلّ يحرض الصديق ويذمره على عزل خالد عن

الإمرة ، ويقول :

ـــ عدو الله عدا على امرئ مسلم فقتله ، ثم نزا على امرأته .

وبعث الصديق إلى خالد فأقبل خالد قافلا حتى دخل المسجد وعليه قباء له عليه صدأ الحديد ، معتجرا بعمامة له قد غرز فى عمامته أسهما . فلما أن دخل المسجد قام إليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها ، ثم قال :

ـــ أرثاء ؟! قتلت امرأ مسلما ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك .

وسار خالد لا يكلمه ولا يظن إلا أن رأى أبى بكر على مثل رأى عمر فيه ، حتى دخل على أبى بكر . فلما أن دخل عليه أخبره الخبر واعتذر إليه فعذره أبو بكر وتجاوز عنه ما كان فى حربه تلك . فخرج خالد حين رضى عنه أبو بكر وعمر جالس فى المسجد فقال :

ـــ هلم إلى يا بن أم شلمة .

فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه فلم يكلمه ، ودخل بيته وفكرة عزل خالد عن قيادة الجيش تراوده ، فلما سار إليه الأمر كان أول ما فعله أن عزل خالدا عن إمرة الجيش .

وصفح أبو بكر عن خالد ، فساء ذلك أبا قتادة ، وعاهد الله ألا يشهد مع خالد بن الوليد حربا أبدا .

١٦

بعث أبو بكر عكرمة بن أبى جهل إلى مسيلمة وأتبعه شرحبيل بن حسنة ، وأراد عكرمة أن يكون له فخر هزيمة بنى حنيفة وحده ، فلم ينتظر وصول شرحبيل بل عجل بالهجوم على مسيلمة ، فدارت معركة بين المسلمين والمرتدين فهزم عكرمة ، وكتب إلى الصديق بالذى كان من أمره ، فكتب إليه أبو بكر :

ــ « يا بن أم عكرمة لا أرينك ولا ترانى على حالها ، لا ترجع فتوهن الناس ، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عمان ومهرة ، وإن شغلا فامض أنت ثم تسير وتسير جندك يستبرئون مما مررتم به حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أمية باليمن وحضر موت » .

وكان شرحبيل قد قام بالطريق حين أدركه خبر هزيمة عكرمة ، فكتب إليه أبو بكر يأمره بالمقام حتى يأتيه أمره . فلما قدم خالد على أبى بكر من البطاح بعد مقتل مالك بن نويرة رضى أبو بكر عن خالد وسمع عذره وقبل منه وصدقه ورضى عنه ، ووجهه إلى مسيلمة فكتب إلى شرحبيل : « إذا قدم عليك خالد ثم فرغتم إن شاء الله فالحق بقضاعة حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أبى منهم وخالف » .

وخرج الناس مع خالد بن الوليد ــ على الأنصار ثابت بن قيس والبراء ابن فلان ، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد بن الخطاب ، وعلى القبائل

على كل قبيلة رجل — وتعجل خالد حتى قدم على أهل العسكر بالبطاح ، وانتظر البعث الذى ضرب بالمدينة ، فلما قدم عليه نهض حتى أتى اليمامة لقتال بنى حنيفة .

كان عدد بنى حنيفة أربعين ألف مقاتل فى قراها وحجرها ، فسار خالد حتى إذا أظل عليهم وجد خيولا لعقة ، والهذيل ، وزياد وقد كانوا أقاموا على خرج أخرجه لهم مسيلمة ليلحقوا به سجاح ، فلما شعروا بجيش خالد انطلقوا بالخراج هرابا إلى الجزيرة ليقدموا ما حملوا إلى سجاح .

و لم ينتظر شرحبيل مقدم خالد وجنده بل فعل فعل عكرمة وبرز لقتال مسيلمة ، فلحقت الهزيمة بالمسلمين ، فاضطر شرحبيل إلى الانسحاب بعد أن خلف على أرض المعركة شهداء ، فلما قدم عليه خالد لامه ، وأمد أبو بكر خالدا بسليط ليكون ردءا له من أن يأتيه أحد من خلفه .

وكان مسيلمة يصانع كل أحد ويتألفه ولا يبالى أن يطلع الناس منه على قبيح ، وكان معه نهار الرَّجَّال بن عُنفوة وكان قد هاجر إلى النبى — ﷺ — وقرأ القرآن وفقه فى الدين ، فبعثه معلما لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة وليشدد من أمر المسلمين ، فكان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة ، شهد له أنه سمع محمدا — ﷺ — يقول إنه قد أشرك معه ، فصدقوه واستجابوا له .

وبلغ مسيلمة دنو خالد فضرب عسكره بعقرباء ، واستنفر الناس فجعل الناس يخرجون إليه . وخرج مجاعة بن مرارة فى سرية يطلب بثأر له فى بنى عامر وبنى تميم وقد خاف قواته ، وكان ثأرهم فى بنى عامر أن خولة بنت جعفر فيهم فمنعوهم منها ، وأما ثأرهم فى بنى تميم فنعَمٌ لمجاعة أخذها بنو تميم .

واستقبل خالد شرحبيل بن حسنة فقدمه ، وأمر على المقدمة خالد بن فلان المخزومى ، وجعل على المجنبتين زيدا وأبا حذيفة ، وجعل مسيلمة على مجنبتيه المحكم بن الطفيل والرجال بن عنفوة ، فسار خالد ومعه شرحبيل حتى إذا كان من عسكر مسيلمة على ليلة وجد أناسا نائمين . إنهم ما بين أربعين وستين ، ترى أهم مقدمة مسيلمة ؟

هجم شرحبيل عليهم فإذا هم مجاعة وأصحابه وقد غلبهم الكرى وكانوا راجعين من بلاد بنى عامر بعد أن استخرجوا خولة بنت جعفر فهى معهم . كانوا نياما وأرسان خيولهم بأيديهم تحت خدودهم وهم لا يشعرون بقرب الجيش ، فأنبهوهم وقالوا .

— من أنتم ؟

— هذا مجاعة وهذه حنيفة .

فأوثقوهم وأقاموا إلى أن جاءهم خالد بن الوليد فأتوه بهم فظن خالد أنهم جاءوا ليستقبلوه وليتقوه بحاجته فقال :

— متى سمعتم بنا ؟

— ما شعرنا بك ، إنما خرجنا لثأر لنا فيمن حولنا من بنى عامر وتميم .

ولو فطنوا لقالوا : تلقيناك حين سمعنا بك . فلو فعلوا لأتوا ببرهان أنهم سامعون مطيعون ، ولكنهم أقروا أنهم لا يزالون فى ردتهم سادرين . فأمر بهم أن يقتلوا ، فجادوا كلهم بأنفسهم دون مجاعة بن مرارة وقالوا :

— إن كنت تريد بأهل اليمامة غدا خيرا أو شرا ، فاستبق هذا ولا تقتله .

كان مجاعة سيدا فى بنى حنيفة شريفا مطاعا ، فقيده خالد وجعله فى الخيمة مع امرأته أم تميم ابنة المنهال التى كانت تحت مالك بن نويرة .

وسار خالد بالمسلمين حتى تواجه الجيشان ، فقال مسيلمة لقومه :

— اليوم يوم الغيرة ، اليوم إن هزمتم تستردف النساء سبيات ، وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم .

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرف على اليمامة ، فضرب عسكره وراية المهاجرين مع سالم مولى أبى حذيفة ، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس ، والعرب على راياتها ، ومجاعة بن مرارة مقيد فى الخيمة مع أم تميم امرأة خالد ، فاصطدم المسلمون والكفار وكان الرَّجَّال بحيال زيد بن الخطاب ، فلما دنا صفّاهما قال زيد :

— يا رجَّال ، الله الله ! فوالله لقد تركت الدين وإن الذى أدعوك إليه لأشرف لك وأكثر لدنياك .

فأبى فاجتلدا فقُتِل الرَّجَّال : فكانت جولة وانهزمت الأعراب ، حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد ، فأرادوا قتل أم تميم فمنعها مجاعة وقال :

— أنا لها جار ، فنعمت الحرة هى .

فدفعهم عنها لما قال :

— عليكم بالرَّجَّال .

فراحوا يضربون الفسطاط بالسيوف . ثم إن المسلمين تداعوا فقال ثابت بن قيس :

— بئسما عدَّدتم أنفسكم يا معشر المسلمين .

والتفت إلى أهل اليمامة فقال :

— اللهم إنى أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء .

ثم التفت ناحية المسلمين وقال :

ـــ وأبرأ إليك مما يصنعُ هؤلاء .

وقاتلت بنو حنيفة قتالا لم يعهد مثله ، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون :

ـــ يا أصحاب سورة البقرة ، بطل السحر اليوم .

وحفر ثابت بن قيس لقدميه فى الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو حامل لواء الأنصار بعد ما تحنط وتكفن ، فلم يزل ثابتا وهو ينادى بشعار المسلمين .

ـــ يا محمداه ! يا محمداه !

وقال المهاجرون لسالم مولى أبى حذيفة لما أعطى الراية بعد أن قتل صاحبها عبد الله بن حفص بن غانم :

ـــ أتخشى أن نؤتى من قبلك ؟

فقال سالم فى انفعال :

ـــ بئس حامل القرآن أنا إذًا .

وانقطعت يده اليمنى فأخذ الراية بيساره فقطعت ، فاحتضنها وهو يقول :

ـــ ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ (١) .

﴿ وكأين من نبى قاتل معه رِبِّيون كثير ﴾ (٢) .

وقال أبو حذيفة :

ـــ يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال .

وحمل على بنى حنيفة حملة صادقة حتى أبعدهم عن خيام المسلمين ،

---

(١) آل عمران ١٤٤ (٢) آل عمران ١٤٦

وخلصت إليه الجراح فراح يجود بأنفاسه الطاهرة .

وقال زيد بن الخطاب :

ـــ أيها الناس عضوا على أضراسكم ، واضربوا فى عدوكم وامضوا قدما .

وراح يتقدم كأسد جسور يلعب بسيفه ويقط الرءوس ؟ ودنا منه بعض المسلمين يحدثه فقال :

ـــ والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتى .

وطفق يقاتل ويغوص فى صفوف الأعداء حتى بلغ منه الجهد ، فدنا منه أبو مريم الحنفى فضربه ضربة كانت القاضية .

وصُرع سالم مولى أبى حذيفة أحد الأربعة الذين قال فيهم رسول الله ـــ ﷺ : « واستقرئوا القرآن من أربعة » . وقال لأصحابه وهو فى الرمق الأخير :

ـــ ما فعل أبو حذيفة ؟

ـــ قتل .

ـــ فما فعل فلان ؟

ـــ قتل .

ـــ فأضجعونى بينهما .

وجبّن المهاجرون والأنصار أهل البوادى ، وجبّنهم أهل البوادى ، فقال بعضهم لبعض :

ـــ امتازوا كي نستحيا من الفرار اليوم ، ونعرف اليوم من أين نؤتى .

ففعلوا وقال أهل القرى :

ـــ نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم .

فقال لهم أهل البادية :

ـــ إن أهل القرى لا يحسنون القتال وما يدرون ما الحرب ، فسترون إذا امتزتما من أين يجيء الخلل .

فامتازوا واشتد القتال ، وراح الرجال من الجانبين يسقطون صرعى : استشهد شجاع بن وهب رسول رسول الله إلى الحارث بن مثمر الغسانى ، والطفيل بن عمرو الدوسى ، وعياد بن بشر ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وعبد الله بن عبد الله بن أبىّ بن سلول ؛ وكانت المصيبة فى المهاجرين والأنصار أكثر منها فى أهل البادية .

وقام البراء بن مالك أخو أنس بن مالك ، فلما رأى ما صنع الناس أخذته العُرواء فوثب فقال :

ـــ أين يا معشر المسلمين ؟ أنا البراء بن مالك ، هلم إلىّ .

وفاءت فئة من الناس فقاتلوا القوم حتى قتلهم الله ، وخلصوا إلى محكم اليمامة وهو محكم بن طفيل ، فقال حين بلغه القتال :

ـــ يا معشر بنى حنيفة والله تستقحب الكرائم غير رضيات ، وينكحن غير حظيات ، فما عندكم من حسب فأخرجوه .

وثبت مسيلمة فعرف خالد أن الحرب لا تركد إلا بقتل مسيلمة ، ولم تحفل بنو حنيفة بقتل من قتل منهم . ثم برز خالد حتى إذا كان أمام الصف دعا إلى البراز وانتمى وقال :

ـــ أنا ابن الوليد العدد . أنا ابن عامر وزيد .

ونادى بشعار المسلمين :

ـــ يا محمداه !

فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله وهو يرتجز :

أنا ابـن أشيـاخ وسيفـي السُّحت [١]

أعظم شيء حين يأتيك النَّـفت [٢]

ودارت رحى المسلمين وطحنت ، ودنا خالد من مسيلمة فأدبر ، وشد المسلمون على الكافرين فنادى المحكم :

ـــ الحديقة . الحديقة .

فتدفق بنو حنيفة إلى حديقة كانت لمسيلمة ، وقبل أن يدخل محكم اليمامة مع الناس رماه عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق بسهم فوضعه فى نحره فقتله . وأغلق بنو حنيفة الحديقة عليهم وأحاط المسلمون بهم . وصرخ البراء بن مالك فقال :

ـــ يا معشر المسلمين احملونى على الجدار حتى تطرحونى عليه .

ففعلوا حتى إذا وضعوه على الجدار وأُرْعِد فنادى :

ـــ أنزلونى .

ثم قال :

ـــ احملونى .

ففعل ذلك مرارا ثم قال :

ـــ أف لهذا خَشَعا .

ثم قال :

ـــ احملونى .

فلما وضعوه على الحائط اقتحم عليهم فقاتلهم على الباب حتى فتحه

---

(١) السحت : القطع والاستئصال

(٢) النفث : الغضب .

للمسلمين وهم على الباب من خارج، فدخلوا فأغلق الباب عليهم، ثم رمى بالمفتاح من وراء الجدران فلم يبق أمام المسلمين إما أن يفنوا أو يفنوا بني حنيفة .

وكان أبو دجانة ممن اقتحم على بني حنيفة الحديقة فانكسرت رجله ، ولكنه استمر يقاتل فى شجاعة مع إخوانه ، وانتثرت الجثث تغطى أرض الحديقة ، وتطاير أنصار مسيلمة عنه وقال له بعضهم :

ـــ فأين ما كنت تعدنا ؟

ـــ قاتلوا عن أحسابكم .

وكان وحشي يحمل حربته . إنه قتل بها خير الناس بعد رسول الله ـــ ﷺ ـــ يوم أحد : قتل حمزة بن عبد المطلب وإنه ليرجو أن يقتل بها مسيلمة الكذاب شر الناس على وجه الأرض .

وأتيحت له الفرصة فهز حربته ثم أطلقها لتستقر بين رجليه ، فسقط مسيلمة وعلاه أبو دجانة بالسيف فتركه كأمس الدابر .

وقتل مسيلمة وغطت حديقة الموت الجثث ، فقد قتل فى المعركة وفيها عشرة آلاف مقاتل . وصرخ صارخ :

ـــ إن العبد الأسود قتل مسيلمة .

فخرج خالد بمجاعة يرسف فى الحديد ليريه مسيلمة وأعلام جنده ، فجعل يكشف له القتلى حتى مر بمحكم بن الطفيل وكان رجلا جسيما وسيما . فلما رآه خالد قال :

ـــ هذا صاحبكم ؟

ـــ لا، هذا والله خير منه وأكرم ، هذا محكم اليمامة .

ثم مضى خالد يكشف له القتلى حتى دخل الحديقة فقلب له القتلى ،

فإذا رُويجل أصفر أحينس فقال مجاعة :

ـــ هذا صاحبكم قد فرغتم منه .

فقال خالد لمجاعة :

ـــ هذا صاحبكم الذى فعل بكم مافعل ؟

ـــ قد كان ذلك يا خالد .

وقال عبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن عمر لخالد :

ـــ ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون .

ـــ دعانى أبث الخيل فألقط من ليس فى الحصون ثم أرى رأيى ، فبعث الخيول فحووا ما وجدوا من مال ونساء وصبيان فضموا هـذا إلى المعسكر . ونادى بالرحيل لينزل على الحصون فقال له مجاعة :

ـــ إنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس ، وإن الحصون لمملوءة رجالا فهلم لك إلى الصلح على ما ورائى .

أنهكت الحرب خالدا وأصيب معه من أشراف الناس من أصيب ، فقد رق وأحب الدعة والصلح فصالح مجاعة على الصفراء والبيضاء والحلقة ونصف السبى . ثم قال مجاعة :

ـــ أنطلق إليهم فأشاورهم وننظر فى هذا الأمر، ثم أرجع إليك .

فدخل مجاعة الحصون. وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفى ، فقال للنساء :

ـــ البسن الحديد ثم أشرفن على الحصون .

ففعلن . ثم رجع إلى خالد وقد رأى خالد الرجال فيما يرى على الحصون عليهم الحديد فأحس ضيقا ، فقد قتل من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة ثلثمائة وستون ، ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين

بإحسان ستمائة أو يزيدون . إنه لا يدرى ما هو كائن لو استؤنف القتال .

وانتهى مجاعة إلى خالد فقال :

ــ أبوا مصالحتك ، ولكن إن شئت صنعت شيئا فعزمت على القوم .

ــ ما هو ؟

ــ تأخذ منى ربع السبى وتدع ربعا .

واتفقا على أن يصطلحا على الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع وعلى نصف السبى وحائط من كل قرية يختاره خالد ومزرعة يختارها خالد ، واتفقا على ذلك ثم سرحه وقال :

ــ أنتم بالخيار ثلاثا ، والله لئن لم تتموا وتقبلوا لأنهدن إليكم ثم لا أقبل منكم خصلة أبدا إلا القتل .

فأتاهم مجاعة فقال :

ــ أما الآن فاقبلوا .

فقال سلمة بن عمير الحنفى :

ــ لا والله لا نقبل ، نبعث إلى أهل القرى والعبيد ، فنقاتل ولا نقاضى خالدا ، فإن الحصون حصينة والطعام كثير والشتاء قد حضر ، يا بنى حنيفة قاتلوا عن أحسابكم .

فقال مجاعة :

ــ يا بنى حنيفة أطيعونى واعصوا سلمة فإنه رجل مشئوم قبل أن يصيبكم ما قال مسيلمة ، قبل أن تستردف النساء غير رضيات ، وينكحن غير حظيات .

فأطاعوه وعصوا سلمة وقبلوا قضيته ، فخرج مجاعة سابع سبعة حتى أتى خالدا فقال :

ـ بعد شر ما رضوا ، اكتب كتابك .

فكتب : « هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد مجاعة بن مرارة وسلمة ابن عمير وفلانا وفلانا : قاضاهم على الصفراء والبيضاء ونصف السبى والحلقة والكراع وحائط من كل قرية ومزرعة على أن يسلموا ، ثم أنتم آمنون بأمان الله ولكم ذمة خالد بن الوليد وذمة أبى بكر خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ وذمم المسلمين على الوفاء » .

وفتحت الحصون فإذا ليس فيها إلا النساء والصبيان ، فقال خالد لمجاعة :

ـ ويحك خدعتنى .

ـ قومى و لم أستطع إلا ما صنعت .

وحشرت بنو حنيفة إلى البيعة والبراءة مما كانوا عليه إلى خالد وخالد فى عسكره ، فلما اجتمعوا قال سلمة بن عمير لمجاعة :

ـ استأذن لى على خالد أكلمه فى حاجة له عندى ونصيحة .

كان سلمة لا ينسى ما حل بقومه على يد خالد ؛ إنه أجمع أن يفتك به ، فكلم مجاعة خالدا فأذن له ، فأقبل سلمة بن عمير مشتملا على السيف يريد ما يريد ، فقال خالد :

ـ من هذا المقبل ؟

قال مجاعة :

ـ هذا الذى كلمتك فيه وقد أذنت له .

ـ أخرجوه عنى .

فأخرجوه عنه ففتشوه فوجدوا معه السيف فلعنوه وشتموه وأوثقوه وقالوا :

ــ لقد أردت أن تهلك قومك . وايم الله ما أردت إلا أن تستأصل بنو حنيفة وتسبى الذرية والنساء . وايم الله لو أن خالدا علم أنك حملت السلاح لقتلك ، وما نأمنه إن بلغه أن يقتل الرجال ويسبى النساء بما فعلت ويحسب أن ذلك على ملأ منا .

فأوثقوه وجعلوه فى الحصن ، وتتابع بنو حنيفة على البراءة مما كانوا عليه وعلى الإسلام . وعاهدهم سلمة على ألا يحدث حدثا ويعفوه فأبوا و لم يثقوا بحُمقه أن يقبلوا منه عهدا . فأفلت ليلا فعمد إلى عسكر خالد فصاح به الحرس ، وفزعت بنو حنيفة فاتبعوه فأدركوه فى بعض الحوائط فشد عليهم بالسيف فاكتنفوه بالحجارة ، وأجال السيف على حلقه فقطع أوداجه فسقط فى بئر فمات .

وقال خالد لمجاعة :

ــ زوجنى ابنتك .

ــ مهلا ، إنك قاطع ظهرى وظهرك معى عند صاحبك .

ــ أيها الرجل زوجنى .

فزوجه . وبعث خالد بن الوليد وفدا من بنى حنيفة إلى أبى بكر الصديق ، وساق الأسرى إلى المدينة وقد تسرى علىّ بن أبى طالب بجارية منهم وهى أم ابنه محمد الذى يقال له محمد بن الحنفية .

وجاء عبد الله بن عمر من اليمامة إلى المدينة ، فلما رآه أبوه قال :

ــ ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا واريت وجهك عنى !

ــ سأل الله الشهادة فأعطيها ، وجهدتُ أن تساق إلىّ فلم أعطها .

وأطرق عمر بن الخطاب هنيهة ثم قال :

ــ سبقنى إلى الحسنيين : أسلم قبلى واستشهد قبلى .

وجاء أبو مريم قاتل زيد بن الخطاب إلى عمر وقال :

— إن الله أكرم زيدا بيدى ولم يهنى على يده .

وقابل عمر متمم بن نويرة وهو يرثى أخاه مالكا ، فقال له عمر :

— لو كنت أحسن الشعر لقلت كما قلت .

فقال له متمم :

— لو أن أخى ذهب على ما ذهب عليه أخوك ما حزنت عليه .

— ما عزانى أحد بمثل ما عزيتنى به .

وبلغ أبا بكر أن خالدا تزوج ابنة مجاعة فكتب إليه كتابا يقطر الدم :

« لعمرى يا بن أم خالد إنك لفارغ تنكح النساء . وبفناء بيتك دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجف بعد ؟! » .

فلما نظر خالد فى الكتاب جعل يقول :

— هذا عمل الأعيسر .

وكان يعنى عمر بن الخطاب ، فالعداوة بين الرجلين مشبوبة .

١٧

كان رسول الله ـ ﷺ ـ قد بعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين ، وأسلم المنذر على يديه وأقام فى أهل البحرين العدل ، فلما توفى رسول الله ـ ﷺ ـ توفى المنذر بعده بقليل ، وكان قد حضر عنده فى مرضه عمرو بن العاص فقال له :

ـ يا عمرو هل كان رسول الله ـ ﷺ ـ يجعل للمريض شيئا من ماله ؟

ـ نعم ، الثلث .

ـ ماذا أصنع به ؟

ـ إن شئت تصدقت به على أقربائك ، وإن شئت على المحاويج ، وإن شئت جعلته صدقة من بعدك حبسا محرما .

ـ إنى أكره أن أجعله كالبحيرة [١] والسائبة والوصيلة والحام ، ولكنى أتصدق به .

ففعل ومات . فلما مات ارتد أهل البحرين وملكوا عليهم الغرور وهو المنذر بن النعمان بن المنذر .

وقال قائلهم :

---

(١) البحيرة والسائبة والوصيلة والحام : أنواع من الإبل والغنم كانوا يحرمون الانتفاع بها فى الجاهلية فأبطل ذلك الإسلام .

ــ لو كان محمد نبيا ما مات .

ولم يبق بها بلدة على الثبات سوى قرية يقال لها جواثا كانت أول قرية أقامت الجمعة من أهل الردة ، وقد حاصر المرتدون أهلها وضيقوا عليهم حتى منعوا من الأقوات وجاعوا جوعا شديدا . وقد قال رجل منهم يقال له عبد الله بن خدف أحد بنى بكر بن كلاب وقد اشتد عليه الجوع :

ألا أبلـــغ أبـــا بكـــــر رسولا   وفتيـــان المدينـــة أجمعينـــــا
فهـل لكـمُ إلى قـــوم كـــــرام   قعـــود فى جواثـــا محصرينـــا
كـــأن دماءهـــم فى كل فـــج   شعاع الشمس يغشى الناظرينا
توكلنـــا على الـــرحمن إنـــا   وجدنـــا الصبر للمتوكلينـــا

كان الجارود بن المعلى من عبد القيس وقد ساءه أن يرتد قومه بعد أن هداهم الله إلى النور ، كان الجارود قد قدم على رسول الله ــ ﷺ ــ مرتادا فقال :

ــ أسلم يا جارود .

ــ إن لى دينا .

ــ إن دينك يا جارود ليس بشىء وليس بدين .

ــ فإن أنا أسلمت فما كان من تبعة فى الإسلام فعليك ؟

ــ نعم .

فأسلم ومكث فى المدينة حتى فقه ، فلما أراد الخروج قال :

ــ يا رسول الله هل نجد عند أحد منكم ظهرا نتبلغ عليه ؟

ــ ما أصبح عندنا ظهر .

ــ يا رسول الله إنا نجد بالطريق ضوال من هذه الضوال .

ــ تلك حَرَقُ النار فإياك وإياها .

فلما قدم على قومه دعاهم إلى الإسلام فأجابوه كلهم ، وإنه ليسيئه أن يرتد قومه وأن يغلقوا أفئدتهم دون أنوار اليقين ، فبعث فيهم فجمعهم ثم قام فخطبهم فقال :

— يا معشر عبد القيس إنى سائلكم عن أمر فأخبرونى به إن علمتموه ، ولا تجيبونى إن لم تعلموا .

— سل عما بدا لك .

— تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضوا ؟

— نعم .

— تعلمونه أو ترونه ؟

— لا بل نعلمه .

— فما فعلوا ؟

— ماتوا .

— فإن محمدا — ﷺ — مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

— ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأنك سيدنا وأفضلنا .

ففاءت عبد القيس إلى الله . وأما بكر فقد خرج الحطم بن ضبيعة أخو بنى قيس بن ثعلبة فيمن اتبعه من بكر بن وائل على الردة ، ومن انضم إليه من غير المرتدين ممن لم يزل كافرا ، حتى نزل القطيف وهجر وكان قد اتفق مع قومه على أن يردوا الملك فى آل المنذر ، فملكوا المنذر بن النعمان بن المنذر ، فبعث المنذر الحطم إلى جواثا وقال له :

— اثبت فإنى إن ظفرت ملكتك بالبحرين ، حتى تكون

كالنعمان بالحيرة .

وانطلق الحطم إلى جواثا فحاصر قومها الذين ثبتوا على الإسلام ؛ وفى ذلك الوقت بعث أبو بكر العلاء بن الحضرمى على قتال أهل الـردة بالبحرين . فلما أقبل إليها فكان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال فى مسلمة بنى حنيفة ، وراح الأمراء يتلقون العلاء بالترحاب وينضمون إليه حتى نزل جيش المسلمين هجر . فأرسل العلاء إلى الجارود ورجل آخر أن انضما فى عبد القيس حتى تنزلا على الحطم مما يليكما ، وخرج هو فيمن جاء معه وفيمن قدم عليه ، حتى ينزل عليه مما يلى هجر .

وتجمع المشركون كلهم إلى الحطم إلا أهل دارين ، وتجمع المسلمون كلهم إلى العلاء الحضرمى ، وخندق المسلمون والمشركون وكانـوا يتراوحون القتال يرجعون إلى خندقهم ، فكانوا كذلك شهرا . فبينا الناس ليلة إذ سمع المسلمون فى عسكر المشركين ضوضاء شديدة كأنها ضوضاء هزيمة أو قتال ، فقال العلاء :

— من يأتينا بخبر القوم ؟

فقال عبد الله بن خدف :

— أنا آتيكم بخبر القوم .

وكانت أمه عِجلية ، فخرج حتى إذا دنا من خندقهم أخذوه فقالوا له :

— من أنت ؟

فانتسب لهم وجعل ينادى :

— يا أبجراه .

فجاء أبجر بن بجير فعرفه فقال :

ـــ ما شأنك ؟

وراح عبد الله بن خدف يتفرس فى القوم فإذا بهم سكارى قد لعبت بهم الخمر ، فقال :

ـــ لا أضيعنّ بين اللهازم ، علام أقتل وحولى عساكر من عجل وتيم اللات وقيس وعنزة . أيتلاعب بى الحُطم ونزاع القبائل وأنتم شهود ؟!

فتخلصه أبجر وقال :

ـــ والله إنى لأظنك بئس ابن الأخت لأخوالك الليلة .

كان الأبجر يترنح من السكر فقال له ابن خدف :

ـــ دعنى من هذا وأطعمنى فإنى قد متُّ جوعا .

فقرب له طعاما فأكل ثم قال :

ـــ زودنى واحملنى وجوزنى أنطلق إلى طيتى .

ففعل وقد غلب عليه الشراب وحمله على بعير وزوده وجوزه وخرج عبد الله بن خدف حتى دخل عسكر المسلمين فأخبرهم أن القوم سكارى ، فخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا عليهم عسكرهم فوضعوا السيوف فيهم حيث شاءوا . واقتحم المشركون الخندق هرابا فاندكت رقاب ونجا أناس وقطعت رءوس وأسرت زرافات ، واستولى المسلمون على ما فى العسكر لم يفلت رجل إلا بما عليه .

وأفلت أبجر ، ودهش الحُطم وطار فؤاده فقام إلى فرسه والمسلمون خلالهم يجوسون ليركبه ، فلما وضع رجله فى الركاب انقطع به ، فمر به عفيف بن المنذر أحد بنى عمرو بن تميم والحُطم يستغيث ويقول :

ـــ ألا رجل من بنى قيس بن ثعلبة يعقلنى ؟

فرفع صوته فعرف عفيف صوته فقال :

ـ أبو ضبيعة ؟

ـ نعم . أعطني رجلك أعقلك .

فأعطاه رجله يعقله فضربها بسيفه فقطعها من الفخذ وتركه ، فقال الحُطم :

ـ أجهز عليّ .

ـ إني أحب ألا تموت حتى أمضك .

كان عفيف يحب له أن يتألم كما تألم ، فقد كان معه عدة من ولد أبيه أصيبوا فى تلك الليلة ، وجعل الحطم لا يمر به فى الليل أحد من المسلمين إلا قال :

ـ هل لك فى الحُطم أن تقتله ؟

ويقول ذاك لمن لا يعرفه ، حتى مر به قيس بن عاصم فقال له :

ـ هل لك فى الحطم أن تقتله ؟

فمال عليه فقتله ، فلما رأى فخذه نادرة قال :

ـ واسوأتاه ! لو علمت الذى به لم أحركه .

وخرج المسلمون بعد ما أحرزوا الخندق على القوم يطلبونهم ، فاتبعوهم فلحق قيس بن عاصم أبجر ، وكان فرس أبجر أقوى من فرس قيس ؛ فلما خشى أن يفوته طعنه فى العرقوب فقطع العصب ، فسقط الفرس وسقط راكبه ، وأسر عفيف بن المنذر الغرور بن سويد ، فكلمه الناس فيه وسألوه أن يجيره ، فأتى به إلى العلاء وقال :

ـ إنى قد أجرت هذا .

ـ ومن هذا ؟

ـــ الغرور :

إن الغرور المنذر بن النعمان بن المنذر من ملكه أهل البحرين عليهم ينظر إلى العلاء بعينين متوسلتين قد تعلقتا بشفتى أمير القوم ، قال :

ـــ أنت غررت هؤلاء ؟

فقال الغرور فى انكسار :

ـــ أيها الملك إنى لست بالغرور ، ولكنى المغرور .

ـــ أسلم .

فأسلم وبقى بهجر .

وأصبح العلاء فقسم الأنفال ونفل رجالا من أهل البلاد ثيابا ، فكان فيمن نفل عفيف بن المنذر وقيس بن عاصم وثمامة بن أثال ، فأما ثمامة فنفل ثيابا فيها خميصة ذات أعلام كان الحُطم يباهى فيها .

وقصد معظم الهاربين من وجه سيوف المسلمين لدارين فركبوا إليها السفن ، ورجع الآخرون إلى بلاد قومهم . فكتب العلاء بن الحضرمى إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل لقتال هؤلاء الفلاَّل . وأرسل الرسل إلى سادات القبائل الذين تمسكوا بالإسلام بلزوم ما هم عليه والقعود لأهل الردة بكل سبيل .

و لم يزل العلاء مقيما فى عسكر المشركين فى الدهناء حتى رجعت إليه الكتب من عند من كان كتب إليه من بكر بن وائل ، وبلغه عنهم القيام بأمر الله والغضب لدينه . فلما جاءه عنهم من ذلك ما كان يشتهى أيقن أنه لن يؤتى من خلفه بشىء يكرهه على أحد من أهل البحرين ، وندب الناس إلى دارين حيث اجتمع فلول الهاربين ، ثم جمع المسلمين فخطبهم وقال :

ـــ إن الله قد جمع لكم أحزاب الشياطين وشرَّد الحرب فى هذا البحر ،

وقد أراكم من آياته فى البر لتعتبروا بها فى البحر ، فانهضوا إلى عدوكم ثم استعرضوا البحر إليهم فإن الله قد جمعهم .

ـــ نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هولا ما بقينا .

كان نصر الله عظيما يوم أن ركبوا المرتدين بأسيافهم فى الدهناء ، وإن ذلك النصر قد ثبت أقدامهم فارتحلوا حتى إذا بلغوا ساحل البحر راح العلاء يدعو وهم يدعون :

ـــ يا أرحم الراحمين . يا كريم يا حليم . يا أحد يا صمد يا حىّ . يا محيى الموتى . يا حى يا قيوم . لا إله إلا أنت يا ربنا .

وراحوا يخوضون ماء الخليج على ظهور الخيل والبغال والحمير والجمال ، يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل ، وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر . فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعا ، فالتقوا بالفرار واقتتلوا قتالا شديدا ، فدارت الدائرة على المرتدين وجاء نصر الله المبين .

ورجع العلاء إلى البحرين ، وانتشر الإسلام فيها وتوطدت أركانه ، وأقفل العلاء بن الحضرمى الناس فرجع الناس إلا من أحب المقام ، وقفل ثمامة بن أثال حتى إذا كانوا على ماء لبنى قيس بن ثعلبة فرأوا ثمامة ورأوا خميصة الحطم عليه ، دسوا له رجلا وقالوا :

ـــ سله عنها كيف صارت له وعن الحطم ، أهو قتله أو غيره .

فأتاه فسأله عنها فقال :

ـــ نفلتها .

ـــ أأنت قتلت الحطم ؟

ـــ لا ، ولوددت أنى كنت قتلته .

ـــ فما بال هذه الخميصة معك ؟

ـــ ألم أخبرك ؟

فرجع إليهم فأخبرهم فتجمعوا له ثم أتوه ، فتحرشوا به فقال :

ـــ ما لكم ؟

ـــ أنت قاتل الحطم .

ـــ كذبتم ، لست بقاتله ولكنى نفلتها .

ـــ هل ينفل إلا القاتل ؟

ـــ إنها لم تكن عليه ، إنما وجدت فى رحله .

ـــ كذبت .

فأصابوه .

وكان على المسلمين راهب فى هجر فأسلم ، فقيل له :

ـــ ما دعاك إلى الإسلام ؟

ـــ دعاء سمعته فى عسكرهم فى الهواء من السحر .

ـــ وما هو ؟

ـــ اللهم أنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك ، والبديع ليس قبلك شىء ، والدائم غير الغافل ، والحى الذى لا يموت ، وخالق ما يُرى وما لا يُرى ، وكل يوم أنت فى شأن ، وعلمت اللهم كل شىء بغير تعلم .

وكتب العلاء إلى أبى بكر بهزيمة أهل الخندق وقتل الحُطم ؛ « أما بعد فإن الله تبارك اسمه سلب عدونا عقولهم ، وأذهب ريحهم بشراب أصابوه من النهار ، فاقتحمنا عليهم خندقهم فوجدناهم سكارى فقتلناهم إلا الشريد ، وقد قتل الله الحطم » .

وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد بعث جرير بن عبد الله البجلى لهدم

صنم ذى الخلصة ، فلما مات رسول الله ـ ﷺ ـ غضبت خثعم رهط جرير لذى الخلصة ، وأرادوا إعادته ، فرد أبو بكر جريرا إلى قومه وأمره أن يدعو من ثبت منهم على أمر الله ليقاتل بهم من ولى عن أمر الله ، وأمره أن يأتى خثعم فيقاتل من خرج غضبا لذى الخلصة ومن أراد إعادته حتى يقتلهم الله ويقتل من شاركهم فيه ، ثم يكون وجهه إلى نجران فيقيم بها حتى يأتيه أمره .

وخرج جرير لينفذ ما أمره به ، فلم يقف فى سبيله إلا رجال فى عدة قليلة فقتلهم وتتبعهم ، ثم كان وجهه إلى نجران فأقام بها انتظارا لأمر أبى بكر الصديق الذى ثارت عليه الأرض بخلا بما فى أيدى الناس ، أو طمعا فى زعامة زائلة .

١٨

لم تضحك فاطمة الزهراء مذ مات أبوها ـ ﷺ ـ إنها تذوب حزنا عليه وشوقا إليه . ومرضت « أم أبيها » فراح الحسن والحسين وأم كلثوم يرنون إلى أمهم فى إشفاق وجزع ، إنها تذوى وبريق عينيها الجميلتين ينطفئ ، والموت يزحف إليها لتلحق برسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وبالأحبة زينب ورقية وأم كلثوم .

وجاءت أمية بنت زينب وألقت نظرة على خالتها فانقبض صدرها واعتصر قلبها الحزن ، فقد عاشت فى كنف الزهراء بعد موت أمها فأنستها بعطفها وحنانها وحبها آلام اليتم ، فكانت لها أما بعد أمها ؛ فلو ماتت فإنها ستكون قد تجرعت قسوة اليتم مرتين .

وشردت الزهراء فإذا بالذكريات تتدفق إلى رأسها ؛ إنها ترى ليلة زفاف على ابن عمها عليها . إن أباها الذى أصيبت به توضأ فى تلك الليلة وصب على علىّ وعليها ودعا لهما أن يبارك فى نسلهما ، إن عليا فارس الإسلام أصدقها درعه الخطمية باعها بأربعمائة درهم ، وقد بعث معها أبوها عليه الصلاة والسلام بخميلة ووسادة من أدم حشوها ليف ورحى وسقاة وجرتين .

كانت فى الخامسة عشرة من سنها وكانت تطحن وتنهض بأعباء دارها الصغيرة ، وكان علىّ بن أبى طالب يشفق عليها ويعاونها كلما سمح وقته

بالبقاء معها . إنها لتذكر ذلك اليوم الذى ورد فيه إلى المدينة سبى وسعة فقال لها زوجها :

ـــ والله لقد سنوت [١] حتى لقد اشتكيت صدرى ، وقد جاء الله أباك بسبى فاذهبى فاستخدميه .

ـــ وأنا والله لقد طحنت حتى محلت [٢] يداى .

إنها لترى نفسها وهى ابنة النبى ـــ ﷺ ـــ وتكاد تسمع صوته الجهورى فى أعماقها وهو يقول :

ـــ ما جاء بك أى بنية ؟

ـــ جئت لأسلم عليك .

واستحيت وهى راقدة فى فراشها كما استحيت فى ذلك اليوم أن تسأله ، ورأت نفسها وهى راجعة تتعثر فى مشيتها .

وسرى فى وجدانها صوت على :

ـــ ما فعلت ؟

ـــ استحييت أن أسأله .

ورأت بعين خيالها نفسها وهى تنطلق مع زوجها إلى أبيها صلوات الله وسلامه عليه وسمعت بأذن الخيال عليا يقول :

ـــ يا رسول الله والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى .

ـــ لقد طحنت حتى محلت يداى ، وقد جاءك الله بالسبى وسعة فأخدمنا .

---

(١) سنوت : سقيت الإبل ونحوها .

(٢) محلت يداى : أصابتها الخشونة من قسوة العمل .

ــ والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم ، لا أجد ما أنفق عليهم .

ورأت نفسيهما وقد عادا مطأطئ الرءوس ، ولكن أباها الرحيم أتاهما وقد دخلا فى قطيفتهما ، إذا غطت رءوسهما تكشفت أقدامهما وإذا غطت أقدامهما تكشفت رءوسهما ، فثارا فقال :

ــ مكانكما .

ثم قال :

ــ ألا أخبركما بخير مما سألتمانى ؟

ــ بلى .

ــ كلمات علمنيهن جبريل : تسبحان الله فى دبر كل صلاة عشرا وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا ، وإذا آويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثا وثلاثين ، واحمدا ثلاثا وثلاثين ، وكبرا أربعا وثلاثين .

فما تركتهن منذ ذلك الوقت .

كانت صابرة مع على بن أبى طالب على جهد العيش وضيقه . إنه لم يتزوج عليها ولكنه أراد أن يتزوج فى وقت بدرة بنت أبى جهل ، فأنف أبوها ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ من ذلك وخطب الناس فقال :

ــ لا أحرم حلالا ولا أحل حراما ، وإن فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها ، وإنى لأخشى أن تفتن عن دينها . ولكن إن أحب ابن أبى طالب أن يطلقها ويتزوج بنت أبى جهل فإنه والله لا تجتمع بنت نبى الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد أبدا .

فإن كان علىٌّ قد ترك الخطبة و لم يتزوج عليها فإنها تموت ، وإن عليا سيتزوج بعد موتها . فراحت توصى زوجها أن يتزوج أميمة بنت أختها

زينب بعد أن تلحق بأبيها .

وعلم أبو بكر بمرض حبيبة الرسول فأتاها أبو بكر فما يجب أن تموت فاطمة وهى ساخطة عليه . إنها سألته الميراث فأخبرها أن رسول الله — ﷺ — قال : لا نورث ما تركنا فهو صدقة . فسألت أن يكون زوجها ناظرا على هذه الصدقة فأبى ذلك وقال : إنى أعول ما كان رسول الله يعول ، وإنى أخشى إن تركت شيئا مما كان رسول الله — ﷺ — يفعله أن أضل . ووالله لقرابة رسول الله — ﷺ — أحب إلىّ أن أصل من قرابتى .

إنها وجدت فى نفسها من ذلك ، وأتاها أبو بكر واستأذن ، فدخل علىّ كرم الله وجهه على زوجه فقال :

— هذا أبو بكر يستأذن عليك .

فقالت فى صوت خافت :

— أتحب أن آذن له ؟

— نعم .

فأذنت له ، فدخل عليها يترضاها فقال :

— يا حبيبة رسول الله ، والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ومرضاة رسوله ومرضاتكم أهل البيت .

وراح يترضاها حتى رضيت ، فانصرف أبو بكر برضائها مسرورا .

وبقيت سيدة النساء صامتة وصور الماضى تتوافد على ذاكرتها . إنها ترى بيت مكة وخديجة أم المؤمنين تملؤه حياة ، وأم أيمن ترعى زينب ورقية وأم كلثوم ، ورسول الله — ﷺ — يخرج إلى الناس يدعوهم إلى الله ثم يعود مجهدا مهموما لإعراض قومه عن الحق المبين ، فتهرع إليه خديجة تواسيه

وتمسح عنه الآلام والأحزان .

إن أمها الطاهرة قد رقدت هناك فى مكة ، ودفنت زينب ورقية وأم كلثوم وأم أيمن هنا فى البقيع ، وقبر أبوها حيث قبض فى بيت عائشة . إنهم ماتوا ولكنها تراهم جميعا عند سريرها ينتظرونها لتنطلق معهم إلى حيث ذهب أبوها ، إلى الرفيق الأعلى .

كان الموت يطلبها حثيثا وإنها لتترك الدنيا غير آسفة على فراقها ، فما تنافست فى عزها وفخرها ، وما بهرتها زينتها ونعيمها ، وما جزعت من ضرائها وبؤسها . إنها عما قليل ستصبح ميتا يبكى ، وستخلف من ورائها دنيا لا خير فى شىء من أزوادها إلا التقوى .

وفتحت عينين واهنتين فرأت أبا الحسن والها حزينا ، والحسن والحسين وفى أعينهما دموع ، وأم كلثوم تكاد تموت من الأسى . فأرادت أن تواسيهم ولكن الكلمات ماتت على شفتيها ، ولم تجد الكلام الذى يعبر عما تعتمل به نفسها .

وحانت منها التفاتة فرأت أسماء بنت عميس فتذكرت جعفر بن أبى طالب زوج أسماء قبل أن يتزوجها أبو بكر ، فدعت الله أن تكون معه فى الجنة ، وأوصت أسماء أن تغسلها .

وفاضت الروح المطمئنة ورجعت إلى ربها راضية مرضية . فأُجهش أبو الحسن بالبكاء ، وراح الحسن والحسين وأم كلثوم يذرفون الدموع على أعظم أم فى الوجود ، ستيدة نساء أهل الجنة .

وقام على وأسماء بنت عميس وسلمى أم رافع وراحوا يغسلون الجسد الطاهر والعيون تسح الدموع ، واجتمع الناس فى المسجد وقد نزل بقلوبهم حزن ثقيل ، فقد جدد موت الزهراء أحزانهم على فراق أبيها نبى

الرحمة ورسول رب العالمين .

وصلى عليها زوجها علىّ وعمه العباس ، وفى سكون الليل خرجت الجنازة إلى البقيع وقد غامت أعين الرجال بالدموع ، وارتفع نشيج النساء من الدور . ودفنت على أضواء المشاعل فقد كانت الليلة ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة من هجرة أبيها العظيم .

وشعر علىّ بنار الحزن تلسع فؤاده فلم يقدر على أن يكتم ما به ، فوقف يناجى رسول الله — ﷺ — ويرثى زهراءه :

— السلام عليك يا رسول الله ، عنى وعن ابنتك النازلة إلى جوارك والسريعة اللحاق بك ، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورق عنها تجلدى ، إلا أن لي فى التأسى بعظيم فرقتك ، وفادح مصيبتك ، موضع تعز ، ولقد وسدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك .

إنا لله وإنا إليه راجعون . لقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة ، أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم . وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها ، فأحفها السؤال واستخبرها الحال ؛ هذا ولم يطل العهد ، ولم يخل منك الذكر . والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين .

١٩

نبع بعمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدى ، وكان يسمى فى الجاهلية الجُلندى ، وادعى النبوة . وتابعه الجهلة من أهل عُمان فحارب جيفرا وعبادا وألجأهما إلى الجبال والبحر ، فبعث جيفر إلى أبى بكر يخبره بذلك واستجاشه ، فبعث إليه الصديق بأميرين وهما حذيفة بن محصن الحميرى ، وعرفجة البارق من الأزد ؛ حذيفة إلى عُمان ، وعرفجة إلى مهرة ، وأمرهما أن يجتمعا ويتفقا ويبتدئا بعمان ، وحذيفة هو الأمير ، فإذا ساروا إلى بلاد مهرة فعرفجة الأمير .

وكان أبو بكر قد بعث عكرمة بن أبى جهل إلى مسيلمة وأتبعه بشرحبيل بن حسنة ، فعجل عكرمة وناهض مسيلمة قبل مجىء شرحبيل ليفوز بالظفر وحده ، فناله من مسيلمة قرح والذين معه ، فتقهقر فكتب إليه الصديق يلومه على تسرعه قال :

ـــ لا أرينك ولا أسمعن بك إلا بعد بلاء .

وأمره أن يلحق بحذيفة وعرفجة إلى عمان : « وكل منكم أمير على جيشه ، وحذيفة ما دمتم بعمان فهو أمير الناس . فإذا فرغتم فاذهبوا إلى مهرة ، فإذا فرغتم منها فاذهب إلى اليمن وحضر موت ، فكن مع المهاجر ابن أبى أمية ، ومن لقيته من المرتدين بين عمان إلى حضر موت واليمن فنكل به » .

فسار عكرمة لما أمره به الصديق ، فلحق حذيفة وعرفجة قبل أن يصلا إلى عمان ، وقد كتب إليهما الصديق أن ينتهيا إلى رأى عكرمة بعد الفراغ من السير من عمان أو المقام بها ، فساروا فلما اقتربوا من عمان راسلوا جيفرا . وبلغ لقيط بن مالك مجيء الجيش فخرج فى جموعه فعسكر بمكان يقال له دبا ، وهى مصر تلك البلاد وسوقها العظمى ، وجعل الذرارى والأموال وراء ظهورهم ليكون أقوى لحربهم .

واجتمع جيفر وعباد بمكان يقال له صحار ، فعسكروا به وبعثا إلى أمراء الصديق فقدموا على المسلمين ، فتقابل الجيشان هناك وتقاتلوا قتالا شديدا ، وابتلى المسلمون وكادوا أن يولوا ، فمن الله بكرمه ولطفه أن بعث إليهم مددا فى الساعة الراهنة من بنى ناجية وعبد القيس فى جماعة من الأمراء ، فقوى الله بهم أهل الإسلام ووهن الله بهم أهل الشرك ، فولى المشركون الأدبار وقتل منهم فى المعركة عشرة آلاف ، وركبهم المسلمون حتى أثخنوا وسبوا الذرارى وقسموا الأموال على المسلمين ، وبعثوا بالخمس إلى أبى بكر مع عرفجة ، وكان الخمس ثمانمائة رأس غير السبى ، وغنموا السوق بحذافيرها .

ورأى عكرمة وحذيفة أن يقيم حذيفة بعمان حتى يوطئ الأمور ويسكن الناس ، فراح حذيفة يدعو القبائل حول عمان إلى السكون . فلما فرغ عكرمة وعرفجة وحذيفة من ردة عمان خرج عكرمة فى جنده نحو مَهْرة . واستنصر من حول عمان وأهل عمان ، وسار حتى اقتحم على مهرة بلادها فوافق بها جمعين من مهرة ؛ أما أحدهما فبمكان من أرض مهرة يقال له جيروت عليهم شخريت رجل من بنى شخراة ، وأما الآخر بالنجد ، وقد انقادت مهرة جميعها لصاحب هذا الجمع عليهم المصبِّح أحد

بنى محارب والناس كلهم معه إلا ما كان من شخريت ؛ فكانا مختلفين كل واحد من الرئيسين يدعو الآخر إلى نفسه ، وكل واحد من الجندين يشتهى أن يكون النصر لرئيسهم .

ورأى عكرمة قلة مَن مع شخريت فدعاه إلى الرجوع إلى الإسلام فأجابه ، ووهن الله بذلك المصبِّح . ثم أرسل إلى المصبح يدعوه إلى الإسلام والرجوع عن الكفر فاعتز بكثرة من معه وازداد مباعدة مخالفة لشخريت ، فسار إليه عكرمة وسار معه شخريت فالتقوا هم والمصبح بالنجدة ، فاقتتلوا أشد من قتال دَبَا ، ثم إن الله كشف جنود المرتدين وقتل المصبح وركبهم المسلمون فقتلوا منهم ما شاءوا وأصابوا ما شاءوا ، وأصابوا فيما أصابوا ألفى نجيبة ، فخمس عكرمة الفيء فبعث بالأخماس مع شخريت إلى أبى بكر ، وقسم الأربعة الأخماس على المسلمين ، وبعث السائب أحد بنى عابد بن مخزوم بشيرا فقدم على أبى بكر بالفتح ، وقدم شخريت بعده بالأخماس .

وكان الأسود العنسى قد نبغ باليمن وأضل خلقا كثيرا من ضعفاء العقول حتى ارتد كثير منهم عن الإسلام ، وقد قتله الأمراء الثلاثة قيس بن مكشوح وفيروز الديلمى ، وداذويه ، وكان ذلك فى عهد رسول الله — ﷺ . فلما بلغهم موت رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ازداد بعض أهل اليمن فيما كانوا فيه من الحيرة والشك ، وطمع قيس بن مكشوح فى الإمرة باليمن فارتد عن الإسلام ، وتابعه عوام أهل اليمن .

وأرسل قيس إلى ذى الكلاع وأصحابه أن الأبناء نزاع بلادكم وثقلاء فيكم ، وإن تتركوهم لن يزالوا عليكم ، وقد أرى من الرأى أن أقتل رءوسهم وأخرجهم من بلادنا .

فتبرأ أهل ذى الكلاع فلم يمالئوه و لم ينصروا الأبناء ، واعتزلوا وقالوا :

ــ لسنا مما ها هنا فى شىء ، أنت صاحبهم وهم أصحابك .

فتربص لهم قيس واستعد لقتل رؤسائهم ، إخوان الأمس . فراح يدبر أمره سرا ، فاتصل برجال قد شقوا عصا الطاعة وراحوا يعيثون فى الأرض فسادا، وكاتبهم فى السر وأمرهم أن يتعجلوا إليه ليكون أمره وأمرهم واحد ، وليجتمعوا على نفى الأبناء من بلاد اليمن . فكتبوا إليه بالاستجابه له ، وأخبروه أنهم إليه سُراع ، فاستيقظ أهل صنعاء على خبر دنو أولئك الثوار منها .

وانطلق قيس إلى فيروز وهو يتصنع الدهشة والخوف من الأنباء التى ترامت إليه ، وأتى داذويه ، فاستشارهما ليخدعهما ولئلا يتهماه . فأداروا قداح الرأى بينهم ، واطمأن فيروز وداذويه إلى قيس .

ودعاهما قيس من الغد إلى طعام ، فخرج داذويه حتى دخل عليه ، فلما دخل عليه عاجله فقتله ، وخرج فيروز يسير والموت يتربص به حتى إذا دنا سمع امرأتين على سطحين تتحدثان ، فقالت إحداهما :

ــ هذا مقتول كما قتل داذويه .

فنكص على عقبيه وراح يركض ليفر من الموت ، وبلغ قيسا رجوع فيروز فخرج فرسان له يقتفون أثره فجعلوا يركضون وهو يـركض متوجها نحو جبل خولان ففيه أخوال ، واستمر السباق الرهيب والمطاردة المثيرة ، وقد انتهت بأن سبق فيروز الخيول إلى الجبل وامتنع بأخواله .

ورجعت الخيول إلى قيس ، فأحنقه انفلات فيروز من قبضته ، ثم جمع جموعه وانقض على صنعاء فأخذها ، وأتته خيول الأسود وانضمت إليه وتناست ما كان من اشتراك قيس فى مقتل العنسى ، وقام فيروز فى أخواله

فهرع إليه أناس ممن بقوا على إسلامهم ، وكتب إلى أبى بكر بالخبر ، فقال قيس فى استخفاف :

ـــ وما خولان وما فيروز وما فرار أووا إليه ؟!

وعمد قيس إلى الأبناء ففرَّقهم ثلاث فرق : أقر من أقام وأقر عياله ، وفرق عيال الذين هربوا إلى فيروز فرقتين ، فوجه إحداهما إلى عدن ليحملوا فى البحر ، وحمل الأخرى فى البر ، وقال لهم جميعا :

ـــ الحقوا بأرضكم .

وبعث معهم من يسيرهم فكان عيال الديلمى ممن يسير فى البر ، وعيال داذويه ممن يسير فى البحر . فلما رأى فيروز أن قد اجتمع عوام أهل اليمن على قيس ، وأن العيال قد سيروا وأنهم عرضة للنهب وأنه لا يستطيع أن يفارق عسكره لينقذهم ، أرسل إلى بنى عقيل بن ربيعة بن عامر بن صعصعة رسولا بأنه يستمدهم ويستنصرهم لإنقاذ عياله . فركبت عقيل وعليهم رجل من الحلفاء يقال له معاوية ، فاعترضوا خيل قيس فأنقذوا أولئك العيال وقتلوا الذين سيروهم ، ووثبت عك وعليهم مسروق فساروا حتى أنقذوا عيالات الأبناء ، وأمدت عقيل وعك فيروز بالرجال ، فلما أتته أمدادهم خرج فيمن كان اجتمع إليه وفى ذلك المدد لقتال قيس .

والتقى جيش المسلمين وجيش المرتدين دون صنعاء ، ودارت رحى معركة رهيبة ، المسلمون يدافعون عن الحق والمرتدون يقاتلون فى سبيل عرض الدنيا ، وارتفعت أصوات المسلمين بشعارهم :

ـــ وامحمداه ! وامحمداه !

فإذا بسيوف المسلمين تحصد الكافرين حصدا ، فهزم الله قيسا فى قومه ومن انضموا إليه ، فخرج هاربا فى جنده حتى عاد معهم وعادوا إلى المكان

الذى فروا إليه بعد مقتل العنسى .

وخرج عكرمة بن أبى جهل من مهرة سائرا نحو اليمن حتى ورد أبين ومعه بشرَ كثير ، فجمع النخع فقال لهم :

ـــ كيف كنتم فى هذا الأمر ؟

ـــ كنا فى الجاهلية أهل دين لا نتعاطي ما تتعاطى العرب بعضها من بعض . فكيف بنا إذا صرنا إلى دين عرفنا فضله ودخلنا حبه ؟

فسأل عنهم فإذا الأمر كما قالوا ، ثبت عوامهم على الإسلام وهرب من ارتد من خاصتهم ، واستبرأ النخع وحمير وقوى بهم .

ونزل بقيس هم ثقيل لهبوط عكرمة إلى اليمن ، فأرسل إلى عمرو بن معد يكرب لينضم إليه فجاءه عمرو ، وكان عمرو قد ارتد فيمن ارتد وجعله العنسى على جيش من جيوشه . ووقعت بين قيس وعمرو خلافات فتنازعا وتعايرا ، فنظم عمرو بن معد يكرب شعرا يعير فيه قيسا غدره بالأبناء وقتله داذويه ، فراح قيس يعيره بما فعله به خالد بن سعيد حين لقيه ، وكيف فر عمرو منه ، وكيف سلبه خالد بن سعيد فرسه وسيفه الصمصامة .

وبعث أبو بكر المهاجر بن أبى أمية إلى اليمن ، وكان المهاجر قد تخلف عن تبوك ، فرجع رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو عليه عاتب . فبينا أم سلمة تغسل رأس رسول الله ـــ ﷺ ـــ قالت :

ـــ كيف ينفعنى شىء وأنت عاتب على أخى ؟

فرأت منه رقة ، فأومأت إلى خادمها فدعته ، فلم يزل برسول الله ـــ ﷺ ـــ ينشر عذره حتى عذره ورضى عنه وأمَّره على كندة ، فاشتكى ولم يستطع الذهاب فكتب إلى زياد بن لبيد البياضى أمير رسول الله ـــ ﷺ ـــ

على حضر موت ليقوم له على عمله .

ولم يكن المهاجر بن أبى أمية ابن زاد الركب خرج حتى توفى رسول الله — ﷺ ، فأتم له أبو بكر إمرته وأمره بقتال من بين نجران إلى أقصى اليمن ، فاتخذ المهاجر مكة طريقا فمر بها فأتبعه خالد بن أسيد ، ومر بالطائف فأتبعه عبد الرحمن بن أبى العاص ، ثم مضى حتى إذا حاذى جرير ابن عبد الله ضمه إليه ، وانضم إليه عبد الله بن ثور فيمن استجاب له من أهل تهامة ، ثم قدم على أهل نجران فانضم إليه فروة بن مسيك .

ولما بلغ نجران وفاة رسول الله — ﷺ — وهم يومئذ أربعون ألف مقاتل ، بعثوا وفدا إلى أبى بكر ليجددوا عهدا فقدموا إليه ، فكتب لهم كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عبد الله أبى بكر خليفة رسول الله — ﷺ — لأهل نجران ، أجارهم من جنده ونفسه ، وأجاز لهم ذمة محمد — ﷺ ، إلا ما رجع عنه محمد — ﷺ — بأمر الله عز وجل فى أرضهم وأرض العرب : ألا يسكن بها دينان. أجارهم على أنفسهم بعد ذلك وملتهم وسائر أموالهم وحاشيتهم وعاديتهم وشاهدهم وأسقفهم ورهبانهم وبيعهم على ما وقعت وعلى ما ملكت أيديهم من قليل أو كثير ، عليهم ما عليهم ، فإذا أدوه فلا يحشرون ولا يعشرون ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ، ووفى لهم بكل ما كتب لهم رسول الله — ﷺ ، وعلى ما فى هذا الكتاب من ذمة محمد رسول الله — ﷺ — وجوار المسلمين ، وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحق »

وبلغت العداوة بين قيس وعمرو بن معد يكرب مداها ، ورأى عمرو أن لا قبل له بجيوش المسلمين ففارق قسينا وانطلق إلى المهاجر بن أبى أمية على غير أمان ليجيب داعى الإسلام ، فأوثقه المهاجر ، ومكنه الله من

قيس فأوثقه ، وكتب بحالهما إلى أبى بكر وبعث بهما إليه .

وجيء بقيس وعمرو على بكر فقال :

— يا قيس أعدوت على عباد الله تقتلهم وتتخذ المرتدين والمشركين وليجة من دون المؤمنين ؟!

ولم يجد أبو بكر أمرا جليا ، ونفى قيس أنه قتل داذويه ، وكان ذلك عملا عمل فى سر لم يكن به بينة ، وكان أبو بكر قد هم بقتله ولكنه لم يجد الحجج القوية التى تبرر القتل فاضطر إلى أن يتنازل عن دم داذويه ، فلأن يخطئ السلطان فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة .

وقال لعمرو بن معد يكرب :

— أما تخزى أنك كل يوم مهزوم أو مأسور ؟ لو نصرت هذا الدين لرفعك الله .

كان أبو بكر يرى أن عمرو بن معد يكرب فارس لا يشق له غبار ، وأنه لو أخلص للإسلام لأدى له خدمات جليلة ، فما إن قال عمرو فى توبة :

— لا جرم ، لأقبلن ولا أعود .

حتى أطلق أبو بكر سراحه وخلى سبيل قيس وردهما إلى عشائرهما ، وكتب أبو بكر إلى المهاجر وعكرمة : أن يسيرا حتى يقدما على حضر موت .

٢٠

أسلمت كندة وأسلم أهل بلاد حضر موت كلهم ، فأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بما يوضع من الصدقات أن يوضع صدقة بعض حضر موت فى كندة،ووضع صدقة كندة فى بعض حضر موت،وبعض حضر موت فى السكون ، والسكون فى بعض حضر موت ، فقال نفر من بنى وليعة :

ـــ يا رسول الله إنا لسنا بأصحاب إبل ، فإن رأيت أن يبعثوا إلينا بذلك على ظهر .

كانوا فى حاجة إلى إبل لحمل الصدقات ، وكانوا يرون أن يبعث إليهم أهل حضر موت بالإبل . فنظر رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى الحضرميين فقال :

ـــ إن رأيتم .

ـــ فإنا ننظر ، فإن لم يكن لهم ظهر فعلنا .

وكان زياد بن لبيد البياضى عامل رسول الله ـــ ﷺ ـــ على حضر موت ، فلما توفى ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ وجاء أوان جمع الصدقات ، دعا زياد الناس إلى ذلك فحضروه ، فقالت بنو وليعة لأهل حضر موت :

ـــ أبلغونا كما وعدتم رسول الله ـــ ﷺ ـــ.

ـــ إن لكم ظهرا فـهلموا فاحتملوا .

ورأى زياد بن لبيد أن لبنى وليعة إبلا وأنها قادرة على حمل صدقاتها ، فقال لهم :

— إن لكم ظهرا .

فاشتد النقاش بين بنى وليعة والحضرميين ، ثم قال بنو وليعة لزياد :

— أنتم معهم علينا .

فأبى الحضرميون أن يرسلوا إبلهم ، ولج الكنديون فرجعوا إلى دارهم وهم يفكرون فى الردة يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى . وولى زياد صدقات بنى عمرو بن معاوية بنفسه ، فقدم عليهم وهم بالرياض فراح يحملُ منهم الصدقات ، وكان أول من قابل غلاما يقال له شيطان بن حجر ، فخرج الغلام إليه بالصدقات ، فأعجبت زياد بكرة من الصدقة ، ودعا بنار فوضع على الإبل والنوق الميسم علامة الصدقات .

وجاء العداء بن حجر فنظر فإذا ناقته الأثيرة عنده بين نوق الصدقات ، إنه قد أطلق عليها اسم شذرة ، ولم يكن على العداء صدقة ، فذهب إلى أخيه يسأله الخبر فقال له أخوه :

— إنى قد أوهمت حين أخرجتها وظننتها غيرها .

فانطلقا إلى زياد وقال العداء :

— هذه ناقتى ، هذه شذرة .

فقال أخوه شيطان بن حُجر :

— صدق أخى ، فإنى لم أعطيكموها إلا وأنا أراها غيرها ، فأطلق شذرة وخذ غيرها فإنها غير متروكة .

ولم يكن لزياد أن يطلقها بعد أن وضع عليها علامة الصدقة ، فقال للغلام إن ذلك منه اعتلال ، واتهمه بالكفر ومباعدة الإسلام ، وأطل الشر

عليهما فغضب زياد وغضب الرجلان ، فقال زياد :

— لا ولا تنعم ولا هي لك ، لقد وقع عليها ميسم الصدقة وصارت في حق الله ، ولا سبيل إلى ردها فلا تكونن شذرة عليكم كالبسوس .

إن البسوس أشعلت نار حرب سقط فيها سادات صرعى ، وإن شذرة لتوشك أن توقد نار حرب لا يعلم إلا الله مداها ، فنادى العداء :

— يا آل عمرو بالرياض أضام وأضطهد ؛ إن الذليل من أكل في داره .

ونادى :

— يا أبا السُّميط .

فأقبل أبو حارثة بن سراقة بن معد يكرب في ثلة من الرجال ، فقصد لزياد بن لبيد وهو واقف فقال :

— أطلق لهذا الفتى بكرته وخذ بعيرا مكانها ، فإنما بعير مكان بعير .

— ما إلى ذلك سبيل .

— ذاك إذا كنت يهوديا .

واندفع إليها فأطلق عقالها ثم ضرب على جنبها فبعثها وقام دونها ، فأمر به زياد شبابا من حضر موت والسكون فقبضوا عليه وكتفوه وكتفوا أصحابه ، وارتهنوهم وأخذوا البكرة فعلقوها كما كانت .

وتصايح أهل الرياض وتنادوا ، وغضبت بنو معاوية لحارثة وأظهروا أمرهم ، وغضبت السكون لزياد ، وغضبت له حضر موت وقاموا جميعا دونه .

وتوافى عسكران عظيمان من هؤلاء وهؤلاء ، لا تعرف بنو معاوية مكان أسرائهم ولا تجد أصحاب زياد على بني معاوية سبيلا يتعلقون به ليبدءوا حربهم ، فلا بد من سبب مهما كان واهيا لشن الحرب وخوض

غمار الوغى ، فأرسل إليهم زياد :

ـــ إما أن تضعوا السلاح ، وإما أن تؤذنوا بحرب .

ـــ لا نضع السلاح أبدا حتى ترسلوا أصحابنا .

ـــ لا يرسلون أبدا حتى ترفضُّوا وأنتم صَغَرة قمأة . يا أخابث الناس ألستم سكان حضر موت وجيران السكون ؟ فما عسيتم أن تكونوا وتصنعوا فى دار حضر موت وفى جنوب مواليكم ؟

وراحت السكون يزينون له القتال ويقولون له :

ـــ ناهد القوم فإنه لا يفطمهم إلا ذلك .

فخرج إليهم ليلا فقتل منهم فانهزموا ، ولما هرب القوم خلى عن أبى السميط وأصحابه ورجع زياد إلى منزله منتصرا . ولما رجع الأسراء إلى أصحابهم راحوا يحضونهم على القتال وقالوا :

ـــ لا تصلح البلدة علينا وعلى هؤلاء حتى تخلوَ لأحد الفريقين .

فأجمعوا وعسكروا جميعا ونادوا بمنع الصدقة، فتركهم زياد ولم يخرج إليهم وتركوا المسير إليه . أرسل إليهم الحصين بن نمير سفيرا فما زال يغدو ويروح بينهم وبين زياد وحضر موت والسكون حتى سكن بعضهم عن بعض ، فأقاموا بعد ذلك يسيرا . ثم إن بنى عمرو بن معاوية خرجوا إلى المحاجر إلى أحماء حموها ، وكان رؤساء بنى عمرو بن معاوية : أبضعة وجمدا ويشرحا ومخوصا وأختهم العَمرَّدة ، فنزل جمد محجرا ومخوص محجرا ومشرح محجرا وأبضعة محجرا وأختهم العمردة محجرا ، ونزلت بنو الحارث بن معاوية محاجرها ، فنزل الأشعث بن قيس محجرا ، والسمط بن الأسود محجرا ، واتفقت معاوية كلها على منع الصدقة وأجمعوا على الردة ، إلا ما كان من شرحبيل بن السمط وابنه فإنهما قاما فى بنى

معاوية فقالا :

— والله إن هذا لقبيح بأقوام أحرار التنقل . إن الكرام ليكونون على الشبهة فيتكرمون أن يتنقلوا منها إلى أوضح منها مخافة العار ، فكيف بالرجوع عن الجميل وعن الحق إلى الباطل والقبيح ؟ اللهم إنا لا نمالئ قومنا على هذا ، وإنا لنادمون على مجامعتهم إلى يومنا هذا .

وخرج شرحبيل بن السمط وابنه السمط حتى أتيا زياد بن لبيد فانضما إليه ، وخرج ابن صالح وامرؤ القيس بن عابس حتى أتيا زيادا فقالا له :

— بَيِّت القوم فإن أقواما من السكاسك قد انضموا إليهم ، وقد تسرع إليهم قوم من السكون وشذاذ من حضر موت لعلنا نوقع بهم وقعة تورث بيننا عداوة وتفرّق بيننا . خشينا أن يرفضّ الناس عنا إليهم والقوم غارون لمكان من آتاهم ، راجون لمن بقى .

— شأنكم .

فجمعوا جمعهم وهجموا عليهم فى محاجرهم فوجدوهم حول نيرانهم جلوسا ، فعرفوا من يريدون فانقضوا على بنى عمرو بن معاوية وهم شوكة القوم من خمسة أوجه فى خمس فرق ، فأصابوا مشرحا ومخوصا وجمدا وأبضعة وأختهم العَمرَّدة وقتلوا فأكثروا ، وهرب من استطاع الهرب ، وعاد زياد بالسبى والأموال ، وأخذوا طريقا يقودهم إلى عسكر الأشعث وبنى الحارث بن معاوية ، فلما مروا بهم استغاث نسوة بنى عمرو ابن معاوية الأسيرات ببنى الحارث وناديته :

— يا أشعث ، يا أشعث .. خالاتك .. خالاتك .

وثار الأشعث فى بنى الحارث وهجم على الرجال الذين كانوا يحرسون النسوة الأسيرات فأنقذهن من أيديهن . وعلم الأشعث أن زيادا وجنده إذا

بلغهم ذلك لم يسكتوا عنه ولا عن بنى الحارث بن معاوية وبنى عمرو بن معاوية ، فجمع إليه بنى الحارث بن معاوية وبنى عمرو بن معاوية ومن أطاعه من السكاسك والخصائص من قبائل ما حولهم ، وتأهب للمعركة القادمة بين زياد والأشعث من بحضر موت من القبائل .

وثبت أصحاب زياد على طاعته ، وأظهرت كندة العداوة وأبدت القبائل ميلها إلى الأشعث ، فرأى زياد أن يكتب إلى المهاجر بن أمية ، فبعث إليه رسولا فتلقاه بالكتاب وقد قطع صهيد ، مفازة ما بين مأرب وحضر موت .

وعزم المهاجر على أن ينهض لمعاونة زياد فى حربه ، فاستخلف على الجيش عكرمة ، وتعجل فى سَرَعان الناس ، ثم سار حتى قدم على زياد فقوى به ساعدالمسلمين . فانقض على كندة وعليهم الأشعث ، ودارت رحى معركة شديدة ، المسلمون ينادون بشعارهم والمرتدون يدافعون عن باطلهم ، حتى انهزموا وخرجوا هرابا ، فالتجئوا إلى حصن النجير وقد رموه وحصنوه ، وجاء إليهم رجال من كندة ومعهم من استغووا من السكاسك والسكون وحضر موت .

كانت النجير على ثلاثة طرق ، فنزل زياد على أحدها ، ونزل المهاجر على الآخر ، وكان الثالث للمرتدين يغدون ويروحون فيه وتأتى منه الإمدادات والمؤن . وسرعان ما أقبل عكرمة بن أبى جهل فى جيش المسلمين فأنزله على ذلك الطريق ، فقطع عليهم الإمدادات والمؤن .

وفرق عكرمة فى كندة الخيول وأمرهم أن يوطئوهم ، فاستشرى القتل فى كندة ، وبلغ كندة وهم فى الحصار ما لقى سائر قومهم فقال

قائل منهم :

ــ الموت خير مما أنتم فيه ، جزوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم لله أنفسكم فأنعم عليكم فبؤتم بنعمه ، لعله أن ينصركم على هـؤلاء الظلمة .

فجزوا نواصيهم وتعاقدوا وتواثقوا ألا يفر بعضهم عن بعض ، فلما أصبحوا خرجوا من الحصن وهجموا على المسلمين فاقتتلوا بأفنية النجير حتى كثرت القتلى بحيال كل طريق من الطرق الثلاثة ، وجعل عكرمة يصول ويجول فهزمت كندة ، وعاد من بقى منهم على قيد الحياة إلى الحصن يلعق جراحه .

وكان أبو بكر الصديق قد كتب إلى المهاجر مع المغيرة بن أبى شعبة : « إذا جاءكم كتابى هذا ولم تظفروا ، فإن ظفرتم بالقوم فاقتلوا المقاتلة واسبوا الذرية إن أخذتموهم عنوة ، أو ينزلوا على حكمى . فإن جرى بينكم صلح قبل ذلك فعلى أن تخرجوهم من ديارهم ، فإنى أكره أن أقر أقواما فعلوا فعلهم فى منازلهم ، ليعلموا أن قد أساءوا و ليذوقوا وبال بعض الذى أتوا .

وانطلق المغيرة بالكتاب إلى اليمن وقد رأى أهل الحصن المواد لا تنقطع عن المسلمين ، وأيقنوا أنهم غير منصرفين عنهم ، فخشعت أنفسهم . ثم خافوا القتل وخاف الرؤساء على أنفسهم ، فعجل الأشعث فخرج إلى عكرمة بأمان وكان لا يأمن غيره ، وذلك أنه كانت تحته أسماء ابنة النعمان ابن الجون خطبها وهو يومئذ بالجند ينتظر قدوم المهاجر ، فأهداها إليه أبوها قبل أن يبادوا ، فانطلق به عكرمة إلى المهاجر واستأمنه له على نفسه ، فدخل الأشعث على المهاجر فاستأمنه على أهله وماله وتسعة ممن أحب ،

وعلى أن يفتح لهم باب الحصن فيدخلوا على قومه ، فقال له المهاجر :

ــ اكتب ما شئت واعجل .

فكتب أمانه وأمانهم وفيه أخوه وبنو عمه وأهلوهم ، ونسى نفسه من العجل والدهش ، ثم جاء بالكتاب فختمه ثم فتح باب الحصن للمسلمين فاقتحموه فلم يدعوا فيه مقاتلا إلا قتلوه ، وأسروا ألف امرأة ممن فى الحصن ، ووضع على السبى والفىء الحراس ، ودعا الأشعث بأولئك النفر الذين استأمن لهم ودعا بكتابه ، فإذا الأشعث ليس فيه فقال المهاجر :

ــ الحمد لله الذى خطأك نوءك ، يا أشعث يا عدو الله قد كنت أشتهى أن يخزيك الله .

وشده وثاقا وهم بقتله فقال له عكرمة :

ــ أخره وأبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم فى هذا ، وإن كان رجلا نسى اسمه أن يكتبه وهو ولى المخاطبة أفذاك يبطل ذاك ؟!

ــ إن أمره لبين ، ولكنى أتبع المشورة وأوثرها .

وأخره ، وجاء المغيرة بن أبى شعبة بكتاب أبى بكر والسبى على ظهور الإبل ، وقرئ الكتاب وعرف الأشعث بما فيه فاستشعر أسى ، فلو أنه صبر مع رجاله حتى يجئ المغيرة لصالح المسلمين على الجلاء ولنجا قومه من الموت وذل الأسر .

وانطلق الأشعث مع السبى إلى أبى بكر ، فراح المسلمون يلعنونه ويلعنه سبايا قومه ، وسماه نساء قومه عُرْف النار ، كلام يمانى يسمون به الغادر ، وشرد الأشعث يفكر ؛ إنه كان قد خطب أم فروة بنت أبى قحافة أخت أبى بكر لما قدم على رسول الله ــ ﷺ ــ فزوجه وأخرها إلى أن

يقدم الثانية ، وها هو ذا يقدم الثانية وهو مقيد بالحبال بعد أن فعل ما فعل ، ترى ماذا سيفعل أبو بكر به ؟

وسارت السبايا والأسرى فقدم القوم على أبى بكر بالفتح والسبايا والأسرى ، فدعا بالأشعث فقال :

ـــ استزلك بنو وليعة ولم تكن تستنزلهم ولا يرونك لذلك أهلا ، وهلكوا وأهلكوك . أما تخشى أن تكون دعوة رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد وصل إليك منها طرف ؟ ما ترانى صانعا بك ؟

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد لعن الملوك الأربعة جمدا ومخوصا وأبضعة وأختهم العَمرَّدة لما ارتدوا وانضموا إلى الأسود العنسى ، وإن أبا بكر ليخبر الأشعث أنه يخشى أن يكون طرف من هذه الدعوة قد أصابه ، فارتعدت فرائض الأشعث وقال لأبى بكر :

ـــ إنى لا أعلم برأيك وأنت أعلم برأيك .

ـــ فإنى أرى قتلك .

ـــ فإنى أنا الذى راوضت القوم فى عشرة ، فما يحل دمى .

ـــ أفوضوا إليك ؟

ـــ نعم .

ـــ ثم أتيتهم بما فوضوا إليك فختموه لك ؟

ـــ نعم .

ـــ فإنما وجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من فى الصحيفة ، وإنما قبل ذلك مراوضا .

إنه نسى أن يكتب اسمه فى الصحيفة لما فاوض المسلمين على فتح باب الحصن لقاء إحياء عشرة ، فكتب العشرة ونسى نفسه ، وقد ألزمه

الصديق الحجة فلم يجد أمامه إلا أن يطمع فى كرم خليفة رسول الله — ﷺ ، فقال لما خشى أن يقع به :

— أو تحسب فىّ خيرا فتطلق إسارى وتقيلنى من عثرتى وتقبل إسلامى وتفعل بى مثل ما فعلت بأمثالى وترد على زوجتى ، تجدنى خير أهل بلادى لدين الله .

إنه يلتمس من أبى بكر أن يصفح عنه كما صفح عن قيس وعمرو بن معد يكرب ، وأن يتم زواجه من أخته أم فروة بنت أبى قحافة ، فصفح عنه الصديق و لم يهدر دمه وقبل منه ورد عليه أهله وقال :

— انطلق فليبلغنى عنك خير .

وخلى عن القوم فذهبوا ، وقسم أبو بكر فى الناس الخمس واقتسم الجيش الأربعة الأخماس ، وكتب أبو بكر إلى المهاجر يخيره اليمن أو حضر موت فاختار اليمن . فكانت اليمن على أميرين فيروز والمهاجر ، وكانت حضر موت على أميرين عبيدة بن سعد على كندة والسكاسك وزياد بن لبيد على حضر موت .

وانصرف معاذ بن جبل من اليمن إلى المدينة ، وولى أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب القضاءَ ، فكان على القضاء أيام خلافته كلها ، وأمر عبد الرحمن بن عوف على الموسم فخرج ليحج بالناس .

٢١

كان أبو العاص بن الربيع مسجى فى فراشه يستشعر أنه يعيش فى ضباب ، لا هو فى دنيا الأحياء ولا هو فى دار البقاء ، إنه يرى الذين التفوا من حوله ، ويرى فى نفس الوقت الأحبة الذين ذهبوا . لا فرق عنده بين ابنته أمامة التى تجرى دموعها على خديها ، والحسن والحسين اللذين يرنوان إليه فى أسى ، وعلىّ بن أبى طالب الذى مال عليه يسأله فى رقة كيف أصبح ، وبين زوجه زينب التى كانت صورتها تملأ كل نفسه ، وخالته خديجة ، ورسول الله ــ ﷺ .

اختلط الماضى بالحاضر والأحياء بالأموات والحياة بالفناء ، ورن فى وجدانه صوت فاطمة الزهراء وهى توصى علىّ بن أبى طالب وهى تجود بأنفاسها أن يتزوج أمامة ابنة الحبيبة زينب بعد ذهابها . إن ذلك الصوت يمده بقوة فيفتح عينيه الذابلتين ويلقى نظرة على أمامة وعلىّ بن أبى طالب ، وتنبعث فيه أمنية أن يتزوج على من أمامة قبل أن يموت ليستريح . وسرعان ما تتلاشى الفكرة لتنبعث ذكرى . إنه يرى نفسه وهو ذاهب مع أمه هالة إلى بيت خالته خديجة ليخطب زينب فيحس فى أعماقه راحة ، وإن كانت أنفاسه مضطربة وحركته واهنة ، حتى أنه ليبذل جهدا ليرفع جفنيه المسبلين على ناظريه .

ووقع نظره على القلادة التى كانت فى جيد أمامة ، إنها قلادة خديجة

قدمتها إلى زينب ليلة زفافها . وطافت به خاطرة فقطب جبينه ، إن أمامة ليست لها أم لتقدم إليها القلادة الخالدة ، وغص حلقه لما خطر على قلبه أنه سيذهب قبل أن يرى زواجها .

وهيجت القلادة ذكرياته فرأى يوم بدر ، يوم وقع أسيرا فى أيدى المسلمين . إنه لا ينسى ذلك اليوم ، فلو أنه قتل كما قتل سادات قريش لمات على الكفر ، ولكن الله أكرمه حتى دخل فى دينه وعرف الهدى وطريق الحق .

وسرى فى ضميره صوت حكيم بن حزام وهو يحلف : والذى نجانى يوم بدر . إنه قسم عظيم لا يحس جلاله إلا من نجى الله من سيوف المسلمين ، فمن قتل بسيوفهم فقد أخزاه الله . إنه لن يستطيع أن يخر ساجدا شكرا لله ، ولكن كل حواسه كانت فى سجود ، وكل خوالجه كانت فى تسبيح .

وعادت القلادة لتحتل عقله ؛ إن زينب أرسلت فى فدائه قلادة أمها ، فلما رآها رسول الله — ﷺ — رق لها رقة شديدة ، فالرجل العظيم لم ينس حبه الكبير فقال فى تأثر عميق :

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا .

وطفا على سطح ذهنه ذكريات ذلك اليوم الذى مشى إليه فيه سادات قريش وقالوا :

— فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت .

كانت زينب قد آمنت برسالة أبيها وصدقته وشهدت أن ما جاء به الحق ، وثبت هو على شركه . وعلى الرغم من اختلافهما فى الدين كان قد

شغف بها حبا فقال :

ـــ لا والله ، إنى لا أفارق صاحبتى ولا أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش .

إنه يحبها حبا جما، وإن أقسى سنى حياته تلك السنوات الست التى فرق فيها الإسلام بينه وبينها ، وتلك السنوات القليلة التى انقضت مذ قبرها بالبقيع إلى ذلك اليوم الذى يعانى فيه سكرات الموت . وإن مما يخفف عنه كربه أنه لاحق بها ، نازل إلى جوارها .

وفتح عينيه فى جهد فوقعتا على الحسن والحسين فتذكر ابنه عليا ، وتذكر كيف أن جده العظيم كان يردفه خلفه يوم أن دخل مكة وكيف كان يحبه . فلو لم يخطفه الموت لكان الساعة إلى جوار ابنى خالته قائما عليه ، ولكان أبا لنسل رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه . إنه يشعر بأسى لانقطاع نسل رسول الله ـــ ﷺ ـــ منه بموت على .

وقفزت إلى ذاكرته أحداث ذلك اليوم الذى طرحت فيه زينب ما فى بطنها . إنه يرى نفسه عائدا إلى مكة بعد أن أطلقه رسول الله عليه السلام من الأسر ، وقد دخل على زينب الحبيبة وأمرها ونياط قلبه تتمزق أن تلحق بأبيها . إنه يخلى سبيلها لأنه وعد أباها العظيم ذلك ، فخرجت تتجهز للحوق بأبيها فلقيتها هند بنت عتبة فقالت :

ـــ يا بنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟

ـــ ما أردت ذلك .

ـــ أى ابنة عمى لا تفعلى ، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك أو بمال فى سفرك أو بمال تتبلغين به إلى أبيك فإن عندى حاجتك فلا

تستحى منى ، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال .

إنها ما قالت ذلك إلا لتفعل ، ولكن زينب خافتها فأنكرت أن تكون تريد ذلك . وكانت هند آكلة كبد حمزة أرق من زوجها أبى سفيان بن حرب ، فأبو سفيان قد خرج فى أثرها وهى فى هودج لها حتى أدركها بذى طوى ، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد فروعها هبار بالرمح وهى فى هودجها وكانت حاملا ، ونخس الراحلة فسقطت زينب على صخرة فهلك جنينها ، ولم تزل تهريق الدماء حتى ماتت .

إنه عزم على أن يثأر من هبار ، وإن رسول الله — ﷺ — كان يوصى سراياه إذا ما عثروا على هبار أن يقطعوا يديه ورجليه ، ولكن هبارا جاء إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بالمدينة بعد فتح مكة وأعلن إسلامه ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— الإسلام يجب ما قبله .

وحقن هبار بالإسلام دمه .

وتذكر أبو العاص أروع حدث فى حياته ، الحدث الذى قاده إلى طريق النور . إنه قبيل فتح مكة خرج تاجرا إلى الشام بمال له وأموال لرجل من قريش ، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلا لقيته سرية لرسول الله — ﷺ — كان أميرها أسامة بن زيد ، فأصابوا ما معه وفر هاربا يترقب . وفى جنح الليل أقبل حتى دخل على زينب فاستجار بها فأجارته ، فلما خرج رسول الله — ﷺ — إلى الصبح فكبر وكبر الناس معه صرخت زينب من سقيفة النساء :

— إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

فلما سلم رسول الله — ﷺ — من الصلاة ، أقبل على الناس فقال :

— أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟

— نعم .

— أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم .

ثم انصرف رسول الله — ﷺ — فدخل على ابنته فقال :

— أى بنية أكرمى مثواه ولا يخلصن إليك ، فإنك لا تحلين له .

وبعث رسول الله — ﷺ — إلى السرية الذين أصابوا ماله فقال لهم :

— إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به .

— يا رسول الله بل نرده عليه .

فردوه عليه . إنه لينفعل وهو مسجى فى فراشه للذكرى ، وإن صوته ليسرى فى عين ذاته بشهادة الحق التى نطقها فى تأثر عميق فى ذلك اليوم ، وإن أصوات الناس وصوته يرن فى وجدانه أقوى مما كان ساعة أن دار بينه وبينهم الحوار الأخاذ :

— هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال؟ فإنها أموال المشركين .

— بئس ما أبدأ به إسلامى أن أخون أمانتى .

إنه انطلق إلى مكة فأدى إلى كل ذى مال من قريش ماله ، ثم قال :

— يا معشر قريش هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟

— لا. فجزاك الله خيرا ! فقد وجدناك وفيا كريما .

ـــ فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت .

أكرمه الله بأن أسلم قبل الفتح ، فكان من المهاجرين و لم يكن من الطلقاء . ورفت على شفتيه ابتسامة كانت تتسع ، فهو يرى وإن أسبل عينيه رسول الله ـــ ﷺ ـــ وخالته خديجة أم المؤمنين وزينب الحبيبة قد أتوا ليصحبوه فى رحلة الخلود ، فشهق شهقة لم يلتقط بعدها نفسا ، فالرجل الذى زكاه رسول الله ـــ ﷺ ـــ قبل إسلامه وبعده قد أسلم الروح .

٢٢

أقبل رجل على خليفة رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، وراح يقص عليه ما فعله العلاء بن الحضرمى فى مقاتلة المرتدين فى البحرين ، وكيف انضم إليه المثنى بن حارثة الشيبانى ، وكيف سار المثنى شمالا حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وأنه بلغ مصب دجلة والفرات ، فقال أبو بكر :

ـــ ومن هو المثنى هذا ؟

ـــ هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيبانى !

ـــ ومن أى قبيلة هو ؟

ـــ من بنى بكر بن وائل .

وراح أبو بكر يتأمل ما سمع ؛ إن معنى سير المثنى حتى مصب الفرات مناجزة الفرس . ومن يدرى لعل فى ذلك خيرا للإسلام ، ولعل فى ذلك انصراف المسلمين عما خلفته حروب الردة فى النفوس من أحقاد وما نشأ من ثارات ، والقضاء على ثورة الناس بسلطان المدينة .

وقدم المثنى بن حارثة إلى المدينة وقابل خليفة رسول الله ، وراح يقص عليه أخبار فارس وضعفها ويهون عليه أمر فتح العراق . وجعل يروى ما تلاقيه قبائل العرب التى نزلت بدلتا الدجلة والفرات من ظلم جور الدهاقين ، وأن ذلك الظلم يجعلهم كمرجل يغلى بالمقت لهم . فإذا ما

هاجم المسلمون العراق ثار العرب النازلون به للتخلص من جور الدهاقين وما هم فيه من عار ، ثم قال المثنى :

ــ أمرنى على من قبلى من قومى أقاتل من يلينى من أهل فارس ، وأكفك ناحيتى .

ــ سأشاور أصحابى فى الأمر .

وأرسل أبو بكر إلى عمر وعلى وعثمان وسعد والزبير وكبار الصحابة يدعوهم إليه ، فرأوا جميعا ضرورة استشارة خالد فى الأمر . وكان خالد باليمامة قد فرغ من أمرها فبعث أبو بكر إليه رسولا فجاء على عجل ، ولما عرف ما جاء المثنى فيه رأى ضرورة أن يعد الخليفة للحرب عدتها ، وأن يعتبر ما قام به المثنى من قبل طليعة فتح يلقى إليه المسلمون بأجنادهم . فأمر أبو بكر المثنى على من قبله ، وعاد خالد إلى اليمامة ، فراح المثنى يحارب الفرس يناجزهم على العراق ، وجعل الفرس يجمعون الجموع . فخشى أبو بكر أن ينتصروا على المثنى فكتب إلى خالد أن سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند وهى الأبلة ، وتألف الناس وادعهم إلى الله عز وجل ، فإن أجابوا وإلا خذ منهم الجزية ، فإن امتنعوا عن ذلك قاتلهم .

وأمره أن لا يكره أحدا على السير معه ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام وإن كان عاد إليه ، وأمره أن يستصحب كل امرئ مر به من المسلمين . وشرع أبو بكر فى تجهيز السرايا والبعوث والجيوش أمدادا لخالد . وانطلق خالد حتى نزل النباح والمثنى بن حارثة معسكر بخَفَّان ، فكتب إليه خالد ابن الوليد ليأتيه ، وبعث إليه بكتاب من أبى بكر يأمره فيه بطاعته ، فذهب المثنى إلى خالد سامعا مطيعا .

وراح خالد يتذكر ما أوصاه به الصديق حين وجهه لقتال أهل الردة : سر على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا عن الحملة ، فإنى لا آمن عليك الجولة . واستظهر بالزاد وسر بالأدلاَّء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن فى العرب غرة ، وأقل من الكلام فإنما لك ما وعى عنك ، واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله فى سرائرهم .

كان أبو بكر جنديا وقد مارس الحرب على عهد رسول الله — ﷺ — كانت نصائحه نصيحة مجرب حكيم ، فكان خالد يتذكر وصاياه كلما أقدم على معركة ، فقدم الأدلاَّء وسار ليتألف أهل فارس ومن كان فى ملكهم من الأمم ، فمضى حتى نزل بقريات من السواد يقال لها بانقيا وباروسما ، فدارت معركة بين الفريقين . فلما قتل من أهل بانقيا وباروسما خلق كثير عرضوا على خالد الصلح ، فقبل خالد منهم الجزية ، وكان الذى صالحه عليها ابن صلوبا وذلك فى سنة اثنتى عشرة ، فكتب لهم كتابا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد لابن صلوبا السوادى ونزله بشاطئ الفرات . إنك آمن بأمان الله — إذ حقن دمه بإعطاء الجزية — وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان فى قريتيك بانقيا وباروسما ألف درهم فقبلتها منك ، ورضى من معى من المسلمين بها منك ، ولك ذمة الله وذمة محمد — ﷺ — وذمة المسلمين على ذلك ».

وصالح خالد أهل الحيرة على أن يكونوا له عيونا ففعلوا ، فقد كانوا يقاسون أشد أنواع الاضطهاد لما كانوا فى حكم الفرس . وكتب خالد بن الوليد إلى أهل المدائن : « من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس ، سلام

على من اتبع الهدى . أما بعد فالحمد لله الذى فض خدمتكم وسلب ملككم ووهن كيدكم ، وإنه من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ما لنا وعليه ما علينا . أما بعد فإذا جاءكم كتابى فابعثوا إلى بالرُّهُن واعتقدوا منى الذمة ، وإلا فوالذى لا إله غيره لأبعثن إليكم قوما يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

كان أبو بكر قد كتب إلى خالد وهو باليمامة ألا يكره أحدا على المسير معه ، فقفل أهل المدينة وما حولها إلى دورهم فاستمد خالد أبا بكر فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمى ، فقال الناس لأبى بكر :

— أتمد رجلا قد ارفض عنه جنوده برجل ؟!

— لا يهزم جيش فيهم مثل هذا .

وانطلق القعقاع بن عمرو ليشد أزر خالد . وبلغ كتاب خالد هرمز صاحب الثغر فدهش من جرأة القائد العربى ، إن هرمز يحارب العرب فى البر والهند فى البحر ، وإنه ينزل الرعب فى قلوب العرب فكل العرب عليه مغيظ . وقد كانوا ضربوه مثلا فى الخبث حتى قالوا أخبث من هرمز ، وأكفر من هرمز .

بعث هرمز بكتاب خالد إلى شيرى بن كسرى وأردشير بن شيرى ، وجمع هرمز وهو نائب كسرى جموعا كثيرة وسار بهم إلى كاظمة وعلى مجنبتيه قباذ وأنوشجان وهما من بيت الملك . واقترن الجند فى السلاسل وكان أناس يعارضون ذلك ، فقال المعارضون للمؤيدين :

— قيدتم أنفسكم لعدوكم فلا تفعلوا ، إن هذا طائر سوء .

— أما أنتم فيحدثوننا أنكم تريدون الهرب .

وقدم خالد بمن معه من الجيش وهرمز فى ثمانية عشر ألفا ، فنزل تجاههم

على غير ماء ، فشكى أصحابه ذلك فقال :

— جالدوهم حتى تجلوهم عن الماء ، فإن الله جاعل الماء لأصبر الطائفتين .

فلما اشتد بالمسلمين المنزل وهم ركبان على خيولهم ، بعث الله سحابة فأمطرتهم حتى صار لهم غدران من ماء ، فقوى المسلمون بذلك وفرحوا فرحا شديدا . ورأى هرمز أن فى خالد يكمن الخطر ، فجمع أصحابه وراح يخطط معهم للغدر بقائد المسلمين ، فلما كان الغد خرج هرمز يخطر فى ثيابه المزركشة وعلى رأسه قلنسوة بمائه ألف تتألق فيها الجواهر . فوقف بين الصفين ودعا خالد للمبارزة وكان واثقا من غدر فرسانه بخالد .

ونزل خالد ومشى إليه فالتقيا فاختلفا ضربتين ، واحتضنه خالد ، وحملت حامية هرمز وغدرت وانقضوا على خالد ، فما شغله ذلك عن قتل هرمز . ورأى القعقاع خيانة أصحاب هرمز فحمل عليهم ، فلما انتهى خالد من خصمه انضم إلى القعقاع وراح يفتك بالخونة ، والمسلمون يكبرون فتنخلع قلوب الغادرين . وانجلى القتال عن قتل كل الخونة الذين واطئوا هرمز على الخيانة .

وراح خالد يسير فى الصفوف يحرض الناس على القتال ويقول :

— يا أهل الإسلام ، إن الصبر عز ، وإن الفشل عجز ، وإن مع الصبر النصر .

وصبر المسلمون .

وانهزم أهل فارس فى وقعة ذات السلاسل ، وأفلت قباذ وأنوشجان .

وكانت قلنسوة هرمز فى الأنفال ؛ إنها مفصصة بالجوهر ، وإن الناس لينظرون إليها فى عجب . ونادى منادى خالد بالرحيل ، وسار الناس

واتبعت خالد الأثقال فنزل بموضع الجسر الأعظم من البصرة ، وبعث خالد بالفتح وما بقى من الأخماس وقلنسوة هرمز وفيل أخذوه من المعركة ، وقدم زِرّ بن كليب إلى المدينة بالفيل مع الأخماس فيطيف به المدينة ليراه الناس ، فجعل ضعيفات النساء يقلن :

— أمن خلق الله هذا أم شيء مصنوع ؟

فرد الصديق الفيل مع زر ، ونفل خالدا سلب هرمز ، وكانت قلنسوته بمائة ألف .

وبعث خالد المثنى بن حارثة الشيبانى وأخاه المعنى فى آثار القوم ، وخرج المثنى حتى انتهى إلى نهر وكان عنده حصن نزلت فيه امرأة حاكم المنطقة ، فخلف المعنى بن حارثة عليه فحاصر المرأة فى قصرها . ومضى المثنى إلى الرجل فحاصره ثم أرغمه على أن ينزل من حصنه هو ورجاله ، فقتلهم واستفاء أموالهم . ولما بلغ ذلك المرأة صالحت المثنى وأسلمت فتزوجها المعنى . وترك خالد وأمراؤه الفلاحين فى أراضيهم تنفيذا لوصية أبى بكر فيهم ، وسبى أولاد المقاتلة الذين كانوا يخدمون الأعاجم .

وقد كان هرمز كتب إلى أردشير وشيرى أن خالد بن الوليد قد سار إليه من اليمامة ، وأنه بعث إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام أو الحرب ، فأمده كسرى بقارن بن فريانس ، فخرج قارن من المدائن مددا لهرمز . حتى إذا انتهى إلى المذار بلغته الهزيمة ، وانتهى إليه فلول الذين هاموا على وجوههم فرارا من سيوف المسلمين ، فراح يحرض بعضهم بعضا لقتال جيش المسلمين ، وقال فلال الأهواز وفارس لفلال السواد والجبل :

— إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبدا ، فاجتمعوا على العود مرة واحدة ، فهذا مدد الملك وهذا قارن ، لعل الله يديلنا ويشفينا من عدونا وندرك

بعض ما أصابوا منا .

واجتمع فلاّل الأهواز وفارس ، وفلال السواد والجبل وانضموا إلى قارن ، وهم يعتزمون أن يخوضوا معركة تشفى غليل صدورهم . وعسكر قارن بالمذار واستعمل على مجنبتيه قباذ وأنوشجان .

وعلم المثنى والمعنى بالخبر فأرسلا إلى خالد وهو يقسم الفيء على من أفاء الله عليه ، ونفّل من الخمس ما شاء الله ، وبعث ببقيته وبالفتح إلى أبى بكر ، وبالخبر عن القوم وباجتماعهم مع الوليد بن عقبة .

وخرج خالد سائرا حتى ينزل المذار على قارن فى جموعه ، فالتقوا وخالد على تعبئته فاقتتلوا والصدور تغلى بالحنق والحفيظة ، ووصية أبى بكر ترن فى وجدان خالد : فرّ من الشرف يتبعك الشرف واحرص على الموت توهب لك الحياة .

وخرج قارن يدعو للبراز فبرز له خالد ومعقل بن الأعشى بن النباشى فابتدراه ، فسبقه إليه معقل فقتله ، وقتل عاصم بن عمرو الأنوشجان ، وقتل عدى بن حاتم قباذ ، فدبت الهزيمة فى صفوف جيش قارن ، وراحت سيوف المسلمين تطعن القلوب وتطيح بالرءوس ، فقتل فى ليلة المذار ثلاثون ألفا سوى من غرق . وفروا عراة وأشباه عراة إلى السفن ، ومنعت المياه المسلمين من طلبهم ، ولولا المياه لأوتى على آخرهم .

وأقام خالد بالمذار وسلم الأسلاب لمن سلبها بالغة ما بلغت ، وقسم الفيء ونفّل من الأخماس أهل البلاد ، وبعث إلى أبى بكر ببقية الأخماس مع سعيد بن النعمان . وراح يسبى عيالات المقاتلة ومن أعانهم ، وأقر الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج وأقام لعدوه يتحسس الأخبار .

٢٣

نزل القرآن على رسول الله ـــ ﷺ ـــ مفرقا . ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ (١) وأول ما نزل من القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ (٢) ، أنزل عليه وهو فى غار حراء يتعبد فى شهر رمضان . واستمر نزول الوحى فى مكة والمدينة قرابة عشرين عاما ، وكان يكتب الوحى فى مكة عبد الله بن أبى السرح وهو أول من كتب لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه من قريش ، ثم ارتد وصار يقول :

ـــ كنت أصرف محمدا حيث يريد ، كان يملى علىّ : عزيز حكيم . فأقول : أو عليم حكيم فيقول : نعم كل صواب .

ونزل فيه : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ (٣) . ثم لما كان يوم الفتح وأمر ـــ ﷺ ـــ بقتله فر إلى عثمان بن عفان لأنه كان أخاه من الرضاعة أرضعت أمه عثمان ، فغيبه عثمان ثم جاء به بعد ما اطمأن الناس واستأمن له رسول الله ـــ ﷺ ، فصمت رسول الله ﷺ ـــ طويلا ثم قال :

---

(١) الإسراء ١٠٦ (٢) العلق ١

(٣) الأنعام ٢١

— نعم .

فلما انصرف عثمان قال النبى — ﷺ — لمن حوله ، وكان بعضهم قد أقسم أن يقتل ابن أبى السرح إن رآه :

— ما صمت عنه إلا لتقتلوه .

ثم أسلم وحسن إسلامه ، ودعا الله أن يختم عمره بالصلاة فمات ساجدا فى صلاة الصبح .

وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وعامر بن فهيرة يكتبون لرسول الله — ﷺ — فى مكة وفى المدينة ، وكان أبىّ بن كعب أول من كتب له — ﷺ — من الأنصار بالمدينة . كان فى أغلب أحواله يكتب الوحى ، وكان — ﷺ — يقول :

— خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبىّ بن كعب .

وكان زيد بن ثابت ملازما للكتابة بين يدى رسول الله — ﷺ — فى الوحى وغيره . وكان المغيرة بن شعبة ، والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، والعلاء بن الحضرمى ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن رواحة ، ومحمد بن مسلمة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبىّ بن سلول — وقد استظهر القرآن حفظا رجال من المهاجرين ومن الأنصار . وقد حفظه على عهد النبى — ﷺ — أربعة كلهم من الأنصار : أبىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد أحد عمومة أنس بن مالك ، وزيد بن ثابت .

وكان جبريل إذا نزل بآية أو سورة يشير إلى مكانها بالنسبة للآيات والسور التى نزلت قبلها ، فكان ترتيب الآيات والسور من لدن العزيز الحكيم .

وكان رسول الله — ﷺ — يقرأ على جبريل القرآن مرة فى رمضان كل عام ، وقد قرأه عليه مرتين فى شهر رمضان من السنة التى توفى فيها — صلوات الله وسلامه عليه . ولحق عليه السلام بالرفيق الأعلى والقرآن محفوظ فى صدور القراء ومكتوب فى الرقاع والأكتاف والعُسُب .

وقتل كثير من الحفاظ فى اليمامة فراح عمر يفكر فى مصير القرآن لو قتل القراء فى مواطن أخرى ، فشرح الله صدره لجمع القرآن . فانطلق إلى أبى بكر خليفة الرسول وهو بمجلسه من المسجد فقال له :

— إن القتل قد استحر بقراء القرآن يوم اليمامة ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن كلها فيذهب قرآن كثير ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن .

ولاحت الدهشة فى وجه الصديق فعمر يطلب منه أن يفعل شيئا لم يفعله رسول الله — ﷺ ، فقال فى إنكار :

— كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله — ﷺ ؟

ودار حوار طويل بين الرجلين انتهى بأن اقتنع الصديق بوجاهة الفكرة ، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأقبل على خليفة رسول الله وعنده عمر ، فقال أبو بكر لزيد :

— إن عمر أتانى وقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى لأخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعوه — وإنى لأرى أن يجمع القرآن . فقلت له : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله — ﷺ ؟

فقال : هو والله خير . فلم يزل عمر يراجعنى فيه حتى شرح الله لذلك صدرى فرأيت الذى رأى عمر .

وكان عمر عنده جالسا لا يتكلم ، فأقبل أبو بكر على زيد بن ثابت وقال :

— إنك شاب عاقل ولا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله فتتبع القرآن واجمعه .

إن زيد بن ثابت يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، ولكن لم يكن ذلك وحده يكفى . فوالله لو أن أبا بكر كلفه نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليه مما أمره به من جمع القرآن .

وراح زيد بن ثابت يتتبع القرآن لا يعتمد على حفظه ، بل كان يجمعه من الرقاع والأكتاف (١) والعُسُب وصدور الرجال ، حتى وجد من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم يجدهما مع غيره : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ (٢) . كانت هاتان الآيتان آخر ما نزل على رسول الله — ﷺ ، وقد مات بعد نزولهما بتسعة أيام ، فكان خزيمة بن ثابت قد دونهما قبل أن يشتغل الناس بوفاة الرسول — ﷺ .

وجمع زيد بن ثابت القرآن كما أنزل فى صحف ، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله فقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه :

— إن أعظم الناس أجرا فى المصاحف أبو بكر ، إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين لوحين .

---

(١) جمع كتف وهى اللوحة من عظم الكتف كان العرب ينظفونها ويجففونها ويكتبون عليها كتاباتهم .

(٢) التوبة ١٢٨ — ١٢٩

٢٤

وقع الخبر بأردشير بمصاب قارن وأهل المذار ؛ فأرسل لأندر زغر — وكان فارسيا من مولدى السواد ولم يكن ممن ولد فى المدائن ولا نشأ بها —، وأرسل بهمن جاذويه فى أثره فى جيش ، وأمره أن يعبر طريق الأندر زغر . وكان الأندر زغر قبل ذلك على فرج خراسان ، فخرج سائرا من المدائن حتى أتى كسكر ، ثم جازها إلى الولجة . وخرج بهمن جاذويه فى أثره وأخذ غير طريقه ، فسلك وسط السواد . وقد حشر إلى الأندر زغر من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين ، فعسكروا إلى جنب عسكره بالولجة . فلما اجتمع له ما أراد واستتب أعجبه، ما هو فيه وامتلأ غرورا ، فأجمع السير إلى خالد .

وبلغ خالد خبر الأندر زغر ونزوله الولجة فنادى بالرحيل ، وخلّف سويد بن مقرن وأمره بلزوم الحفير ، وتقدم إلى من خلف فى أسفل دجلة وأمرهم بالحذر وقلة الغفلة وترك الاغترار . وخرج سائرا فى جنوده نحو الولجة حتى ينزل على الأندر زغر وجنوده ومن انضم إليهم .

ووضع خالد لأعدائه كميناً فى ناحيتين عليهما يسر بن أبى درهم وسعيد بن مرة العجلى ، ونزل خالد على الأندر زغر بالولجة ، فاقتتلوا بها قتالا شديدا حتى ظن الفريقان أن الصبر قد أفرغ . وبارز خالد رجلا من أهل فارس يعدل بألف رجل فقتله ، فلما فرغ اتكأ عليه ودعا

بغدائه.وأصاب فى أناس من بكر بن وائل ابنا لجابر بن بجير وابنا لعبد الأسود .

واستبطأ خالد كمينه فخرج من الكمين فى وجهين ، فانهزمت صفوف الأعاجم وولوا فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم ، فلم ير رجل منهم مقتل صاحبه . ومضى الأندرزغر فى هزيمته فمات عطشا .

وقام خالد فى الناس خطيبا يرغبهم فى بلاد العجم ويزهدهم فى بلاد العرب ، وقال :

ــ ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب ؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به .

وسار خالد فى الفلاحين على سيرته فلم يقتلهم ، وسبى ذرارى المقاتلة ومن أعانهم ، ودعا أهل الأرض إلى الجزية والذمة فقبلوا ذلك .

ولما أصاب خالد يوم الولجة من أصاب من بكر بن وائل من نصاراهم الذين أعانوا أهل فارس ، غضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا هم الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم ، فاجتمعوا إلى أليس وعليهم عبد الأسود العجلى . إنه يتحرق شوقا للثأر لابنه الذى قتله خالد .

وكتب أردشير إلى بهمن جاذويه أن سر حتى تقدم أليس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب ، فقدم بهمن جاذويه جابان وأمره بالحث وقال :

ــ كفكف نفسك وجندك من قتال القوم حتى ألحق بك إلا أن

يعجلوك .

ومضى جابان حتى أتى أليس فنزل بها ، واجتمعت إليه المسالح التى كانت بإزاء العرب ، وعبد الأسود فى نصارى العرب من بنى عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة . وساند جابر بن بجير عبد الأسود فقد قتل خالد ابنه .

وبلغ خالدا تجمع عبد الأسود وجابر ومن انضم إليهما ، فخرج لهم ولا يشعر بدنوه جابان ، وليس مع خالد إلا من اجتمع له من عرب الضاحية ونصاراهم ، فأقبل فلما طلع على جابان بأليس قالت الأعاجم لجابان :

— أنعاجلهم أم نغدى الناس ولا نريهم أنا نحفل بهم ثم نقاتلهم بعد الفراغ ؟

— إن تركوكم والتهاون بهم فتهاونوا ، ولكن ظنى بهم أن سيعجلوكم ويعاجلونكم عن الطعام .

فعصوه وبسطوا البسط ووضعوا الأطعمة وتداعوا إليها وتوافوا إليها . فلما انتهى خالد إليهم وقف وأمر بحط الأثقال ، فلما وضعت توجه إليهم وجعل خلفه حماة يحمون ظهره ، ثم برز أمام الصف فنادى :

— أين أبجر ؟ أين عبد الأسود ؟ أين مالك بن قيس ؟

فلم يخرج له إلا مالك ، فقال له خالد :

— يا بن الخبيثة ما جرأك علىّ من بينهم ؟ وليس فيك وفاء .

فضربه فقتله ، وأجهض الأعاجم عن طعامهم قبل أن يأكلوا فقال جابان :

— ألم أقل لكم يا قوم ؟ أما والله ما دخلتنى من رئيس وحشة قط حتى

كان اليوم .

فقالوا حيث لم يقدروا على الأكل وخالد أمامهم كمارد جبار :

— ندعها حتى نفرغ منهم ونعود إليها .

كانوا يستخفون بالمسلمين وقد ظنوا أنها جولة ثم يعودون إلى أبسطتهم وأطعمتهم ، فقال جابان :

— وأيضا أظنكم والله لهم وضعتموها وأنتم لا تشعرون ، فالآن فأطيعونى ، سُمُّوها فإن كانت لكم فأهون هالك ، وإن كانت عليكم كنتم قد صنعتم شيئا وأبليتم عذرا .

أشار عليهم أن يضعوا السم فى أطعمتهم فإن انتصروا فما أهون الطعام الذى هلك ، وإن هزموا فتك السم بأعدائهم ، فأبوا . فجعل جابان على مجنبتيه عبد الأسود وأبجر ، والتحم الجيشان ودار قتال رهيب بين الجانبين ، المشركون صابرون يزيدهم استبسالا من يتوقعون من قدوم بهمن جاذويه ، والمسلمون يبذلون الجهد ليقضوا على أعدائهم قبل أن يأتيهم المدد . وراح خالد يصول ويجول فى صفوف أعدائه ويقول :

— اللهم إن لك علىّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحدا قدرنا عليه ، حتى أجرى نهرهم بدمائهم .

وحمل المسلمون على المشركين حملة صادقة فانكشفوا ، وراحت السيوف تعمل فى رقابهم ، فأمر خالد مناديه فنادى :

— الأسر الأسر ، لا تقتلوا إلا من امتنع .

فأقبلت الخيول بهم أفواجا مستأسرين يساقون سوقا ، وهزم القوم وأجلوا عن عسكرهم ، ورجع المسلمون من أجلهم ودخلوا عسكر المشركين فوقف خالد على الطعام فقال :

— قد نفلتكموه فهو لكم ، كان رسول الله — ﷺ — إذا أتى على طعام مصنوع نفله .

فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل ، وجعل من لم ير الأرياف ولا يعرف الرقاق يقول :

— ما هذه الرقاع البيض ؟

وجعل من قد عرفها يجيبهم ويقول لهم مازحا :

— هل سمعتم برقيق العيش ؟

— نعم .

— هو هذا .

فسمي الرقاق . وبعث خالد الخبر مع رجل يدعى جندلا من بنى عجل ، فقدم على أبى بكر بالخبر ، وبفتح أليس ، وبقدر الفىء ، وبعدة السبى ، وبما حصل من الأخماس ، وبأهل البلاء من الناس . وبلغت قتلى المشركين سبعين ألفا جلهم من أمغيشيا . فلما فرغ خالد من وقعة أليس نهض فأتى أمغيشيا ففر أهلها وجلوا عن الديار وتفرقوا فى السواد ، فأفاءها الله على المسلمين بغير حرب ، فأمر خالد بهدم أمغيشيا ، وأصابوا فيها ما لم يصيبوا مثله قط ، فقد بلغ سهم الفارس ألفا وخمسمائة سوى ما نفله خالد أهل البلاء ، وجاء الخبر إلى أبى بكر فقام فى الناس فقال :

— يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله[1] أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد .

ولما أخرب خالد أمغيشيا علم الأزاذبة أنه غير متروك ، وكان مرزبان

---

(١) خراذيل : عرين .

الحيرة فتهيأ لحرب خالد ، وقدم ابنه ثم خرج فى أثره حتى عسكر خارجا من الحيرة ، وأمر ابنه بسد الفرات . ولما استقل خالد من أمغيشيا وحمل الرجال فى السفن مع الأنفال والأثقال ، فاذا بخالد يفاجأ بأن السفن قد جنحت ، فارتاع المسلمون لذلك فقال الملاحون :

— إن أهل فارس فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه ، فلا يأتينا الماء إلا بسد الأنهار .

وفكر خالد فرأى أن ينطلق إلى ابن الآزاذبة وأن يعيد الفرات إلى مجراه . فخرج فى فرسانه وفاجأ الفرس وهم آمنون لا يفكرون فى أن يغير خالد عليهم ، فأعمل فيهم السيوف وقتل ابن الآزاذبة ، ثم سار من فوره وسبق الأخبار إلى ابن الآزاذبة ، وهجم على الفرس فقتل فيهم مقتلة عظيمة ، وفر الآزاذبة ، وفجر خالد الفرات وسد الأنهار وسلك الماء سبيله .

وقصد خالد وجنده إلى الحيرة ، فقدم الخورنق وقد قطع الآزاذبة الفرات هاربا من غير قتال ، وإنما حداه على الهرب أن وصل إليه خبر موت أردشير ومصاب ابنه .

وتتام أصحاب خالد بالخورنق ، فخرج من عسكره حتى عسكر بموضع عسكر الآزاذبة بين الغرِّيين والقصر الأبيض ، وأهل الحيرة متحصنون فى القصور . فأدخل خالد الحيرة الخيل من عسكره ، وأمر بكل قصر رجلا من قواده يحاصر أهله ويقاتلهم ، فكان ضرار بن الأزور محاصرا القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائى ، وكان ضرار بن الخطاب محاصرا قصر القدسيين وفيه عدى بن عدى ، وكان ضرار بن مقرن المزنى محاصرا قصر بنى مازن وفيه ابن أكال ، وكان المثنى محاصرا قصر ابن

بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح ، وكان خالد قد عهد إلى أمرائه أن يبدءوا بالدعاء ، فإن قبلوا قبلوا منهم وإن أبوا أن يؤجلهم يوما وقال :

— لا تمكنوا عدوكم من آذانكم فيتربصوا بكم الدوائر ، ولكن ناجزوهم ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم .

كان ضرار بن الأزور على قتال أهل القصر الأبيض ، فأصبحوا وهم مشرفون فدعاهم إلى إحدى ثلاث : الإسلام أو الجزية أو المنابذة . وأطلقوا سهام الخوف فقال ضرار لرجاله :

— تنحوا لا ينالكم الرمى حتى ننظر فى الذى هتفوا به .

فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر من رجال متعلقى المخالى يرمون المسلمين ، فقال ضرار لرجاله :

— ارشقوهم .

فدنوا منهم فرشقوهم بالنبل فأعروا رءوس الحيطان . ثم أغاروا عليهم وصبح أمير كل قوم أصحابه بمثل ذلك فافتتحوا الدور والديرات وأكثروا القتل . فنادى القسيسون والرهبان :

— يا أهل القصور ! ما يقتلنا غيركم .

فنادى أهل القصور :

— يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فادعوا بنا وكفوا عنا حتى تبلغونا خالدا .

فخرج إياس بن قبيصة وأخوه إلى ضرار بن الأزور ، وخرج عدى بن عدى وزيد بن عدى إلى ضرار بن الخطاب ، وخرج عمرو بن عبد المسيح إلى ضرار بن مقرن ، وابن آكال إلى المثنى بن حارثة ، فأرسلوهم إلى خالد وهم على مواقفهم ، مع كل رجل منهم ثقة ليصالح عليه أهل الحصن .

خلا خالد بأهل كل قصر منهم دون الآخرين ، وبدأ بأصحاب عدى وقال :

ـــ ويحكم ! ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟

فقال له عدى :

ـــ بل عرب عاربة وأخرى متعربة .

ـــ لو كنتم كما تقولون ، لم تحادوناوتكرهوا أمرنا ؟

ـــ ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان بالعربية .

ـــ صدقت .. اختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا فى ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن ناهضتم وهاجرتم وإن أقمتم فى ديار كم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة .

ـــ بل نعطيك الجزية .

ـــ تبا لكم ! ويحكم إن الكفر فلاة مضلة ، فأحمق العرب من سلكها .

ودخل عمرو بن عبد المسيح على خالد ، فقال له خالد :

ـــ من أين أثرك ؟

ـــ من ظهر أبى .

ـــ من أين خرجت ؟

ـــ من بطن أمى .

ـــ ويحك على أى شىء أنت ؟

ـــ على الأرض .

— ويلك ! فى أى شىء أنت ؟

— فى ثيابى .

— ويحك ، تعقل ؟

— نعم وأقيد .

— إنما أسألك .

— وأنا أجيبك .

— أسلم أنت أم حرب ؟

— بل سلم .

— فما هذه الحصون التى أرى ؟

— بنيناها للسفيه نحبسه حتى يجىء الحليم فينهاه .

وكتب خالد بينه وبينهم كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمرا ابنى عدى، وعمرو بن عبد المسيح، وإياس بن قبيصة ، وحيرم بن أكال ، عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا ، رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيسا عن الدنيا ، تاركا لها وعلى المنعة ، فإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة » .

ولما فتح خالد الحيرة صلى صلاة الفتح ثمانى ركعات ، لا يسلم فيهن ، ثم انصرف وقال :

— لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع فى يدى تسعة أسياف ، وما لقيت قوما كقوم لقيتهم من أهل فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوما كأهل أليس .

٢٥

كان أهل فارس مختلفين بالمدائن لموت أردشير ، فدعا خالد رجلا من أهل الحيرة و كتب معه إلى أهل فارس، وقال للرجل :

ــ ما اسمك ؟

ــ مرة .

ــ خذ الكتاب فأت به أهل فارس لعل الله أن يمر عليهم عيشهم أو يسلموا أو ينيبوا .

وبلغ الرسول المدائن وقدم الكتاب ، فقرأ مرازبة فارس : « بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس ، أما بعد فأسلموا تسلموا . وإلا فاعتقدوا من الذمة وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر ».

كانوا مختلفين فيمن يولونه أمورهم بعد موت أردشير وإن اجتمعت كلمتهم على قتال خالد ، وخرج عمال الخراج يجمعون الخراج ويكتبون للناس : « بسم الله الرحمن الرحيم . براءة لمن كان من كذا و كذا من الجزية التى صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد . وقد قبضت الذى صالحهم عليه خالد ، وخالد والمسلمون لكم يد على من بدل صلح خالد ما أقررتم بالجزية وكففتم . أمانكم أمان ، وصلحكم صلح ، نحن لكم على الوفاء ».

وأقام خالد فى عمله سنة ومنزله الحيرة وأهل فارس مختلفون على من يولونه عليهم ، إنها لسنة كأنها سنة نساء .

وكان أبو بكر قد عهد إلى خالد أن يأتى العراق من أسفل منها ، وإلى عياض بن غنم أن يأتى العراق من فوقها : « وأيكما ما سبق إلى الحيرة فهو أمير على الحيرة، فإن اجتمعتما بالحيرة إن شاء الله وقد قضضتما مسالح ما بين العرب وفارس ، وأمنتم أن يؤتى المسلمون من خلفهم ، فليقم بالحيرة أحدكما وليقتحم الآخر على القوم ، وجالدوهم عما فى أيديهم واستعينوا بالله واتقوه وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم ، ولا تؤثروا الدنيا فتسلبوهما ، واحذروا ما حذركم الله بترك المعاصى ومعاجلة التوبة ، وإياكم والإصرار وتأخير التوبة ».

إن خالدا قد نزل الحيرة واستقام له الأمر . وفرق سواد الحيرة على جرير ابن عبد الله وضرار وسويد وغيرهم ؛ أما عياض فإنه كان فى حاجة إلى أن يمد له خالد يده فى قتال أهل دومة الجندل ، وكان خالد كارها لذلك الأمر ، فما دون فتح فارس شيء . وقال خالد للمسلمين :

ــ لولا ما عهد إلى الخليفة لم أنتقذ عياضا .

وخرج خالد لإغاثة عياض ، واستخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو ، فسلك الفلوجة حتى نزل بكربلاء وعلى مسلحتها عاصم بن عمرو، وعلى مقدمة خالد ابن الأقرع بن حابس ، لأن المثنى كان على ثغر من الثغور التى على المدائن يناوش أهل فارس . وأقام خالد على كربلاء أياما ثم انطلق إلى الأنبار .

تحصن أهل الأنبار وخندقوا عليهم وأشرفوا من حصنهم يرقبون مقدم جيش المسلمين ، وكان على تلك الجنود سيرزاذ صاحب ساباط وكان

أعقل أعجمى يومئذ ، وقدم خالد على المقدمة فطاف بالخندق وأنشب القتال وكان قليل الصبر عنه إذا رآه أو سمع به ، وتقدم إلى رماته فأوصاهم وقال :

— إنى أرى أقواما لا علم لهم بالحرب ، فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها .

وأرسلت السهام إلى العيون ففقئ ألف عين يومئذ ، فسميت تلك الواقعة ذات العين .

وتصايح القوم :

— ذهبت عيون أهل الأنبار .

فقال شيرزاذ :

— ما يقولون ؟

ففسر له فقال :

— آباذ آباذ .

فراسل خالدا فى الصلح على أمر لم يرضه خالد فرد رسله.وأتى خالد أضيق مكان فى الخندق وراح ينحر النحائر ويلقى بها فى الخندق حتى ملأه ، ثم اقتحم الخندق والذبائح جسور المسلمين ، فاجتمع المسلمون والمشركون فى الخندق وفر القوم إلى حصنهم . وأرسل شيرزاذ خالدا فى الصلح على ما أراد ، فقبل منه على أن يخليه ويلحقه بمأمنه فى كوكبة من الخيل ليس معهم من المتاع والأموال شىء ، فخرج شيرزاذ حتى قدم على بهمن جاذويه ، فأخبره الخبر فلامه فقال :

— عرفت أن المسألة أسلم .

واطمأن خالد بالأنبار . ورأى أهل الأنبار يكتبون بالعربية ويتعلمونها

فسألهم :

— ما أنتم ؟

— قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر .

— ممن تعلمتم الكتابة ؟

— تعلمنا الخط من إياد .

ولما فرغ خالد من الأنبار واستحكمت له ، استخلف على الأنبار الزبرقان بن بدر ، وقصد لعين التمر وبها يومئذ : مهران بن بهرام جوبين فى جمع عظيم من العجم ، وعقة بن أبى عقة فى جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لافهم ، فلما سمعوا بخالد قال عقة لمهران :

— إن العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالدا .

— صدقت ، لعمرى لأنتم أعلم بقتال العرب ، وإنكم كمثلنا فى قتال العجم .

فخدعه واتقى به وقال :

— دونكموهم وإن احتجتم إلينا أعناكم .

فلما مضى نحو خالد قالت له الأعاجم :

— ما حملك على أن تقول هذا القول لهذا الكلب ؟

— دعونى ، فإنى لم أرد إلا ما هو خير لكم ، شرّ لهم . إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفلّ حدكم فاتقيته بهم . فإن كانت لهم على خالد فهى لكم ، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهنوا ، فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون .

فاعترفوا له بفضل الرأى ، فلزم مهران العين ، ونزل عقة لخالد على

الطريق وعلى ميمنته بجير بن فلان أحد بنى عبيد بن سعد بن زهير ، وعلى ميسرته الهزيل بن عمران ، فقدم عليه خالد وهو فى تعبئة جنده فعبأ خالد جنده وقال لمجنبتيه :

— اكفونا ما عنده فإنى حامل .

وحمل خالد على عقة وهو يقيم صفوفه فاحتضنه فأخذه أسيرا ، وانهزم صفه من غير قتال فأكثروا فيهم الأسر . وهرب بجير والهذيل واتبعهم المسلمون . ولما جاء الخبر مهران فى جنده وترك الحصن ، ولما انتهى فُلال عقة من العرب والعجم إلى الحصن اقتحموه واعتصموا به .

وأقبل خالد فى الناس حتى ينزل على الحصن ومعه عقة أسير ، وكان من فى الحصن يرجون أن يكون خالد كمن كان يغير عليهم من العرب . فلما رأوه يناجزهم ويحاول أن يقتحم الحصن سألوه الأمان فأبى إلا حكمه ، فنزلوا على حكمه ، فلما فتحوا الحصن دفعهم إلى المسلمين ، وأمر خالد بعقة وكان خفير القوم فضربت عنقه ، وسبى كل من حوى الحصن وغنم ما فيه ، ووجد فى بيعتهم أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل عليهم باب مُغلق ، فكسره عنهم وقال :

— ما أنتم ؟

— رهن .

فقسمهم فى أهل البلاء. منهم أبو زياد مولى ثقيف، ومنهم نصير أبو موسى بن نصير، ومنهم أبو عمرة جد عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر، وسيرين أبو محمد بن سيرين، وحُريث وعلاثة، فصار أبو عمرة لشرحبيل بن حسنة، وحريث لرجل من بنى عباد، وعلاثة للمعنى، وحُمران لعثمان. وكان نصير ينسب إلى بنى يشكر، وأبو عمرة إلى بنى مرة.

كان عياض بن غنم قد شن الغارة على أهل دومة الجندل ، و لم يفتح ذلك الحصن الحصين أمرا هينا ، فحاصر عياض القوم ، وما لبث أهل الدومة أن خرجوا من حصنهم وحاصروا جيش المسلمين وقد أخذوا عليه الطريق .

وقدم الوليد بن عقبة من عند خالد بن الوليد على أبى بكر بما بعث إليه من الأخماس ، وكان أمر عياض قد بلغ الصديق فوجه الوليد إلى عياض وأمده به ، فقدم عليه الوليد وعياض محاصرهم وهم محاصروه ، فقال له :

ــ الرأى فى بعض الحالات خير من جند كثيف ، ابعث إلى خالد فاستمده .

فبعث عياض إلى خالد بن الوليد فقدم عليه رسوله عقب وقعة العين مستغيثا ، فأحس خالد شيئا من الضيق ، فقد كادت فارس أن تفتح له أبوابها ، ولكنه وجد أن لا بد من إغاثة عياض وجنوده ، فخلف على عين التمر عويم بن الكاهل الأسلمى ، وخرج فى تعبيته التى دخل فيها العين . ولما بلغ أهل دومة سير خالد إليهم بعثوا إلى أحزابهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضَّجاعم ، فأتاهم وديعة فى كلب ، وابن الأيهم فى طوائف من غسان وتنوخ ، وابن الحديرجان فى الضجاعم ، فقاتلوا عياضا وقاتلهم عياض . فلما بلغهم دنو خالد وهم على رئيسين : أكيدر بن عبد الملك

والجودى بن ربيعة ، اختلفوا فقال أكيدر :

ــ أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائرا منه ، ولا أحد فى حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعونى وصالحوا القوم .

فأبوا عليه فقال :

ــ لن أمالئكم على حرب خالد ، فشأنكم .

فخرج إلى حيِّه ، وبلغ ذلك خالدا فبعث عاصم بن عمرو معارضا له فأخذه ، فقال :

ــ إنما تلقيت الأمير خالدا .

فلما أتى به خالدا أمر به فضربت عنقه وأخذ ما كان معه من شىء .

ومضى خالد حتى ينزل على أهل دومة وعليهم الجودى بن ربيعة ووديعة الكلبى وابن الأيهم وابن الحدرجان ، فجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض ، وكان النصارى الذين أيدوا أهل دومة من العرب محيطين بحصن دومة لم يحملهم الحصن .

ونزل خالد يتأهب للقتال فخرج إليه الجودى ووديعة ، وخرج ابن الحدرجان وابن الأيهم إلى عياض . وزلزلت تكبيرات المسلمين قلوب الأعداء فدبت الهزيمة فيهم ، وراح خالد وفرسانه يصولون ويجولون ويضربون الأعناق ، وراح عياض وجنوده يشدون على الأعداء ويحاربون فى سبيل الله صفا واحدا كأنهم بنيان مرصوص . وثار النقع وسالت الدماء ، واختلطت صيحات الفزع بالأنات ، وانهزم الجودى ووديعة على يدى خالد ، وهزم عياض من يليه وركبهم المسلمون . فأما خالد فإنه أخذ الجودى أخذا ، وأخذ الأقرع بن حابس وديعة ، وفر بقية الناس إلى

الحصن فلم يحملهم ، فلما امتلأ الحصن أغلق من فى الحصن الحصن دون أصحابهم ، فبقوا حوله ينتظرون الموت .

وقال عاصم بن عمرو :

ــ يا بنى تميم حلفاؤكم كلب آسروهم وأجيروهم ، فإنكم لا تقدرون لهم على مثلها .

وراح بنو تميم يأسرون حلفاءهم ولا يقتلونهم لوصية عاصم بن عمرو ، وأقبل خالد على الذين كانوا حول الحصن فقتلهم حتى سد بهم باب الحصن . ودعا خالد بالجودى فضرب عنقه ، ودعا بالأسرى فضرب أعناقهم إلا أسرى كلب فإن عاصما والأقرع وبنى تميم قالوا :

ــ قد آمناهم .

فأطلقهم لهم خالد وقال :

ــ مالى ولكم ! أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام ؟

فقال له عاصم :

ــ لا تحسدوهم العافية ، ولا يحوزهم الشيطان .

ثم أطاف خالد بباب الحصن فلم يزُل عنه حتى اقتلعه ، وتدفق جنود المسلمين إليه فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرارى والنساء فأقاموهم فيمن يزيد ، فاشترى خالد ابنة الجودى وكانت معروفة بالحسن والجمال .

وأقام خالد بدومة ، فأطمع ذلك الفرس فى المسلمين ، فرأوا أن يناجزوهم وأن يجلوهم عن ديارهم . وأدار رءوسهم أن عرب الجزيرة كاتبوهم للنهوض لقتال المسلمين غضبا لعقة الذى قتله خالد ، فخرج زَرْمَهر من بغداد ومعه روزبة يريدان الأنبار ، فكتب الزبرقان وهو على الأنبار إلى القعقاع بن عمرو وهو يومئذ خليفة خالد على الحيرة ، فبعث

القعقاع أعبد بن فدكى السعدى وأمره بالحصيد ، وبعث عروة بن الجعد البارقى وأمره بالخنافس ، فقد جاءته الأخبار أن الفرس وعرب الجزيرة اتعدوا أن يلتقوا بحصيد والخنافس . وقال القعقاع للأميرين :

— إن رأيتما مقدما فاقدما .

وانتظر روزبة وزرمهر من كاتبهما من ربيعة ليشنوا الحرب على المسلمين . فلما رجع خالد من دومة إلى الحيرة فى فرسانه ، وبلغه ما فعلت الفرس ، عزم على مصادمة أهل المدائن ؛ ولكنه كره خلاف أبى بكر فقد عهد إليه أن يبقى بالحيرة ، فأرسل القعقاع بن عمرو وأبا ليلى بن فدكى إلى روزبة وزرمهر .

وجاء إلى خالد كتاب امرئ القيس الكلبى أن الهزيل بن عمران قد عسكر بالمضيح ، ونزل ربيعة بن بجير بالثنى وبالبشر فى عسكر غضبا لعقة . أينتظر خالد حتى يصلا إلى زرمهر وروزبة ؟ فخرج خالد وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، واستخلف على الحيرة عياض بن غنم ، وأخذ طريق القعقاع وأبى ليلى إلى الخنافس .

وقدم عليهما خالد وهما بعين التمر ، فبعث القعقاع إلى الحصيد وأمره على الناس ، وبعث أبا ليلى إلى الخنافس فلم يتحرك زرمهر وروزبة ؛ كانا ينتظران أن يوافيهما عرب الجزيرة . فلما رأى القعقاع ذلك سار نحو حصين ، فلما رأى روزبة أن القعقاع قصد له استمد زرمهر فأمده بنفسه ، واستخلف على عسكره المهبوذان .

والتقى الجيشان بحصيد ، فراح القعقاع يمشى إلى أعدائه مشى الوعول ، حتى إذا ما بلغ زرمهر عاجله بضربة فتركه كأمس الدابر وقتل عصمة بن عبد الله روزبة ، فمشت الهزيمة فى صفوف الفرس ، فقتل الله

العجم مقتلة عظيمة . وكان القعقاع يصول ويجول كأسد هصور ، وصدق الصديق لما قال : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا .

وهرب فلول جيش الفرس إلى حصيد مرعوبين ، وانضموا إلى المهبوذان ، وراحلوا يوسعون الأرض بأخبار صناديد المسلمين . فلما بلغهم أن أبا ليلى بن فدكى بمن معه قادم نحو الخنافس لقتالهم ، أطلقوا لسيقانهم الريح ، وهرب المهبوذان ومن معه إلى المضيِّح حيث نزل هذيل ابن عمران .

وانتهى الخبر إلى خالد بمصاب أهل الحصيد وهرب أهل الخنافس ، فكتب إلى القعقاع وأبى ليلى وأعبد وواعدهم أن يجتمعوا بالمضيِّح . وخرج خالد من العين قاصدا المضيح على الإبل يجنب الخيل ، فلما كانت تلك الساعة من ليلة الموعد إذا رجل يدعى حرقوص بن النعمان من النمر ، وإذا حوله بنوه وامرأته وبينهم جفنة من خمر وهم عليها عكوف ، يقولون له :

— ومن يشرب فى هذه الساعة وفى أعجاز الليل ؟!

— اشربوا شرب وداع ، فما أرى أن تشربوا خمرا بعدها . هذا خالد بالعين وجنوده بحصيد وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا .

وانقضت عليهم بعض الخيل فضرب رأس حرقوص فإذا هو فى جفنته ، وأخذت بناته أسرى ، وقتل بنوه ، وأغار المسلمون على الهذيل ومن معه ومن أوى إليهم وهم نائمون من ثلاثة أوجه فقتلوهم، وأفلت الهذيل فى أناس قليل ، وامتلأ الفضاء قتلى كأنما غنم قد نحرت . وقد قتل جرير بن عبد الله عبد العزى بن أبى رهم ولبيد بن جرير ، وكان معهما كتاب من أبى بكر بإسلامهما .

وبلغ المدينة خبر مقتليهما فراح عمر يحاول أن يوغر صدر الصديق على

خالد بن الوليد ، ويطلب عزله عن إمارة الجيش كما فعل يوم قتل مالك بن نويرة ، فودى أبو بكر عبد العزى ولبيدا وأوصى بأولادهما وقال :

ـــ أما إن ذلك ليس عليَّ إذ نازلا أهل الحرب .

وكان ربيعة بن بجير التغلبى قد نزل الثنّى والبشر غضبا لعقة ، وواعد روزبة وزرمهر والهذيل . فلما أصاب خالد أهل المضيح بما أصابهم به أمر القعقاع وأبا ليلى أن يرتحلا أمامه ، وواعدهما الليلة ليغيروا على ربيعة التغلبى ، وقد أقسم ليبغتن تغلب فى دارها .

وخرج خالد من المضيح فنزل حوران ثم الرفق ثم الحماة ، ثم اجتمع هو وأصحابه فشنوا الغارة على ربيعة من ثلاثة أوجه ، فلم يفلت من سيوف المسلمين أحد واستبى الذرارى والنساء ، وبعث بخمس الله إلى أبى بكر مع النعمان بن عوف بن العمان الشيبانى ، وقسم النهب والسبايا .

وفى المدينة استقبل الناس الغنائم والسبى بالفرح ، واشترى علىّ بن أبى طالب بنت ربيعة بن بجير التغلبى فاتخذها فولدت له عمر ورقية .

وكان الهذيل حين نجا أوى إلى عتاب بن فلان وهو بالبشر فى عسكر ضخم ، فما أرخى الليل ستائره حتى هجم جيش المسلمين من ثلاثة أوجه على جيش الأعداء وشنها غارة شعواء ، وكانت أنباء مقتل ربيعة قد تسربت إليهم فأورثتهم خيفة فهزموا بالرغب ، فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا قبلها مثلها ، وأصابوا منهم ما شاءوا ، وبر خالد بقسمه فقد باغت تغلب فى عقر دارها .

وخرج خالد من البشر إلى الرضاب وبها هلال بن عقة ، فلما سمع أصحاب هلال بقدوم خالد فروا من وجهه ، وفر هلال فى أثرهم . فدخل خالد الرضاب دون قتال ، ثم قصد إلى الفرائض . إنها تخوم الشام والعراق

والجزيرة ، فلما اجتمع المسلمون بها هبت الروم واغتاظت ، فها هو ذا خالد على حدودهم يهددهم . ونسى الروم ما كان بينهم وبين الفرس من عداوة أمام الخطر الجديد ، فاستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس ، واستمدوا تغلب وأياد والنمر فأمدوهم ، ثم انطلقوا إلى خالد ، حتى إذا صار الفرات بينهم قالوا :

— إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم .

قال خالد :

— بل اعبروا إلينا .

— فتنحوا حتى نعبر .

— لا نفعل ، ولكن اعبروا أسفل منا .

فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض :

— احتسبوا ملككم . هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم ، والله لينصرن ولنخذلن .

ثم لم ينتفعوا بذلك فعبروا أسفل من خالد ، فلما التأم جمعهم قالت الروم :

— امتازوا حتى نعرف اليوم ما كان من حسن أو قبيح من أينا يجىء .

فراحت كل جماعة تذكر مناقبها وترفع صوتها بشعارها .

ودارت رحى معركة رهيبة ، السيوف تعلو والرءوس تطير ، والوقت يمر وئيدا وئيدا ، وتكبيرات المسلمين تجلجل ، والعرق يختلط بالدم ، وجثث الروم ومن هب لنجدتهم تغطى ساحة القتال ، وخالد يصيح فى جنوده :

— ألحوا عليهم ولا ترفعوا عنهم .

فينقض عليهم فرسان المسلمين ويحشرونهم برماحهم ويسوقونهم زمرا إلى القتل ، فقتل فى المعركة وفى الطلب مائة ألف . وذاق الروم مرارة الهزيمة ، وأقام خالد على الفراض بعد الوقعة عشرا ، ثم أذن بالرحيل إلى الحيرة ، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بهم ، وأمر شجرة بن الأعز أن يسوقهم ، وأظهر خالد أنه فى الساقة ، فقد استولت عليه فكرة وعزم على إنفاذها دون أن يشعر به أصحابه .

٢٧

وافى الموسم فخرج الناس للحج ، وخرج أبو بكر على الناس ، وخرج خالد حاجا من الفراض لخمس بقين من ذى القعدة لا يعلم بخروجه أحد إلا عدة من أصحابه خرجوا معه . فسار طريقا من طرق أهل الجزيرة لم ير طريق أعجب منه ولا أشد على صعوبته منه ، فكانت غيبته عن الجند يسيرة . فما توافى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع صاحب الساقة الذى وضعه فقدما معا ، وخالد وأصحابه محلقون ، لم يعلم بحجه إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة ، و لم يعلم أبو بكر بذلك إلا بعد فأرسل إليه كتابا فوافاه الكتاب منصرفه من حجه فقرأه :

« .. سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فإنه لم يُشج [١] الجموع من الناس بعون الله شجيك ، و لم ينزع الشجى من الناس نزعك ، فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتم الله لك ، ولا يدخلنك عُجب فتسخر وتخذل ، وإياك أنْ تدِل بعمل فإن الله له المن وهو ولى الجزاء » .

كان أبو بكر الصديق قد رأى بعد أن رجع من الحج إلى المدينة أن يجهز

---

(١) يشج الجموع : يفرق جمع الأعداء ، والشجى : الشوكة والعجب والدل : الافتخار والغرور .

الجيوش إلى الشام ، فكان أول لواء عقده لواء خالد بن سعيد بن العاص ، فجاء عمر إلى أبى بكر فقال :

— أتؤمره بعد ما قال حين أقدم من اليمن بعد وفاة رسول الله — ﷺ : يا بنى عبد مناف لقد طبتم نفسا عن أمركم يليه غيركم .

إن خالد بن سعيد لم يبايع أبا بكر إلا بعد أن رضى بنو هاشم ، فلم يحفلها عليه أبو بكر ، وأما عمر فاضطغنها عليه و لم يزل بأبى بكر حتى عزله ، وأمر يزيد بن أبى سفيان فخرج يزيد فى سبعة آلاف مقاتل .

وكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص : « إنى كنت قد رددتك على العمل الذى كان رسول الله — ﷺ — ولاكه مرة وسماه لك أخرى : مبعثك إلى عمان إنجازا لمواعيد رسول الله — ﷺ — فقد وليته ثم وليته . وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك إلى خير لك فى حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك » .

فكتب إليه عمرو : « إنى سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها ، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئا إن جاءك من ناحية من النواحى » .

وكان أبو بكر قد شيع الوليد بن عقبة لما خرج لجمع صدقات قضاعة ، وقال له :

— اتق الله بالسر والعلانية ، فإن من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله .

إنك فى سبيل من سبل الله ، لا يسعك فيه الإذهان والتفريط والغفلة عما فيه قوام دينكم وعصمة أمركم ، فلا تَنِ ولا تفتر .

إن أبا بكر يريد أن يوجهه إلى الشام أيضا ، فكتب إليه وإلى عمرو : « استخلفا على أعمالكما واندبا من يليكما » . فراح عمرو والوليد يندبان الناس لقتال الروم ، فتتام إليهما بشر كثير ، وانتظرا أمر أبي بكر .

وقام أبو بكر فى الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال :

— ألا إن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهى حسبه [١]، ومن عمل لله كفاه الله .. عليكم بالجد والقصد [٢] فإن القصد أبلغ ، ألا إنه لا دين لأحد لا أمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له . ألا وإن فى كتاب الله من الثواب على الجهاد فى سبيل الله لما ينبغى للمسلم أن يخصَّ به : هى التجارة التى دل الله عليها ونجى بها من الخزى ، وألحق بها الكرامة فى الدنيا والآخرة .

فأمد عمر ببعض من انتدب إلى من اجتمع إليه وأمره على فلسطين ، وكتب إلى الوليد وأمره بالأردن وأمده ببعضهم ، ودعا يزيد بن أبى سفيان فأمره على جند عظيم وهم جمهور من انتدب له وفى جنده سهيل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة وشيعه ماشيا ، واستعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع وأمره على حمص وخرج معه وهما ماشيان والناس معهما وخلفهما .

وكان أبو بكر قد سمى لكل أمير من أمراء الشام كورة ، فسمى لأبى عبيدة حمص ، وليزيد بن أبى سفيان دمشق ، ولشرحبيل بن حسنة الأردن ، ولعمرو بن العاص ولعلقمة بن مَجزِّز فلسطين . فلما شارفوا

---

(١) حسبه : تكفيه .

(٢) القصد : الاعتدال .

الشام دهم كل أمير منهم خلق كثير ، فهرقل إمبراطور الروم خرج حتى نزل بحمص وأرسل إلى عمرو أخاه تذارق فخرج نحوهم فى تسعين ألفا ؛ وبعث جَرجَة بن توذرا نحو يزيد بن أبى سفيان فعسكر بإزائه ؛ وبعث الدراقص فاستقبل شرحبيل بن حسنة ؛ وبعث الفيقار بن بسطوس فى ستين ألفا نحو أبى عبيدة ، فهابهم المسلمون وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفا سوى عكرمة بن أبى جهل وكان ردءا لهم فى ستة آلاف . ففزعوا جميعا بالكتب وبالرسل إلى عمرو بن العاص وإلى أبى بكر الصديق : « ما الرأى ؟ » فكاتبهم عمرو وراسلهم : « إن الرأى الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يُقرِن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعدَّ لنا لكل طائفة منا . فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به ، وجاءهم كتاب أبى بكر : « اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فإنهم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى منكم من قلة وإنما يؤتى العشرة الآلاف والزيادة على العشرة الآلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب ، واحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه » .

وتطابق رأى أبى بكر مع رأى عمرو ، فسار أمراء المسلمين إلى اليرموك .

وبلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده أن اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلا واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب ، فخرجت جيوش الروم من ألوية الثغور وقد رفعت النسر الرومانى على ألوية فوق الرءوس. كانت السرايا تطوى الأرض طيا لتصل إلى اليرموك كل سرية من ثلاثمائة أو أربعمائة جندى

يقودهم رائد ، فكلما اجتمعت ست سرايا أو سبع أو ثمانى تكون منها كتيبة بقيادة دوق ، وقد احتفظوا بسر عددهم حتى لا يستطيع العرب تقدير حجم جيوشهم .

ارتدى الرومان الدروع وغطوا رءوسهم بالخوذات وتسلحوا بالقسى والرماح والسيوف ، واجتمع الجيش الجرار وعلى المقدمة جرجة ، وعلى مجنبتيه باهان والدراقص ، وعلى القلب النيقار . و لم يكن باهان قد وصل بعد فنادى المنادى فيهم ليرفع من روحهم المعنوية .

ــ أبشروا فإن باهان فى الأثر . مدد لكم .

ونزل جيش الروم الواقوصة وهى على ضفة اليرموك ، وصار الوادى خندقا لهم وهو هاوية لا يدرك ، وإن كانت انتصارات المسلمين فى العراق قد صكت أسماعهم ، فأراد قواد هرقل أن تستفيق الروم ويأنسوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم التى طارت شعاعا .

وانتقل المسلمون من عسكرهم الذى اجتمعوا به ، فنزلوا عليهم بحذائهم على طريقهم ، وليس للروم طريق إلا عليهم فقال عمرو بن العاص :

ــ أيها الناس أبشروا ! حصرت والله الروم وقل ما جاء محصور بخير .

فأقاموا بإزائهم وعلى طريقهم ومخرجهم صفر سنة ثلاث عشرة وشهرى ربيع لا يقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون إليهم ، وكان بين الجيشين مناوشات ، وكلما شن المسلمون غارة عادوا منهزمين ، فالخندق يحول بينهم وبين الالتحام مع أعدائهم ، فكانت سهام الروم تصيب الصدور بينما سيوف المسلمين البتارة لا تصل إلى أعناق أعدائهم .

وكتب أمراء الشام إلى أبى بكر يصفون له ما هم فيه ، وكان كل جند

يحارب مع أميره لا يجمعهم أحد ، وكان عسكر أبى عبيدة مجاورا لعسكر عمرو بن العاص وعسكر شرحبيل مجاورا لعسكر يزيد بن أبى سفيان ، فكان أبو عبيدة ربما صلى مع عمرو وشرحبيل مع يزيد، فأما عمرو ويزيد فإنهما كانا لا يصليان مع أبى عبيدة وشرحبيل .

وقرأ أبو بكر كتاب أمراء الشام فكتب إلى خالد بن الوليد ليأتى جموع المسلمين فى اليرموك،فخرج خالد فى أهل العراق ومعه القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى وعياض بن غنم وهاشم بن عتبة ، وراح يستحث جنوده فى السير فهو يتحرق شوقا لقتال الروم .

وطلع خالد على المسلمين فارتج المكان بالتكبير ، وفى نفس الوقت ارتفعت صيحات فرح فى معسكر الروم فقد طلع عليهم باهان وقدم قدامه الشمامسة والرهبان والقسيسين يغرونهم ويحضونهم على القتال .

كان جيش الروم أربعين ومائتى ألف منهم ثمانون ألف مقيد ، وأربعون ألفا منهم مسلسل للموت ، وأربعون ألفا مربطون بالعمائم ، وثمانون ألف فارس وثمانون ألف راجل ، والمسلمون سبعة وعشرون ألفا ممن كان مقيما ، إلى أن قدم خالد فى تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين ألفا .

ونشط الروم بمددهم فخرجوا لقتال المسلمين ، فراح كل أمير من الأمراء يقاتلهم بجنده ، فهزم الله الروم فعادوا يتحصنون فى خندقهم ، وراح القسيسون والشمامسة والرهبان يحضونهم على القتال وينعون لهم النصرانية حتى زينوا لهم الخروج لمناجزة المسلمين الذين جاءوا لقتالهم .

وأحس المسلمون خروجهم ، وأراد كل أمير أن يخرج بجنده فلم يرتح خالد لذلك ، فسار فيهم فحمد الله وأثنى عليه وقال :

— إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى . أخلصوا

جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده . ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى . وإن مَنْ وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعلموا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته .

— فهات ، فما الرأى ؟

— إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ، ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم ، إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه إن دانوا له .

إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله — ﷺ — هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها . فهلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعونى أليكم اليوم .

إنه طلب لنفسه الإمارة أول يوم فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم وأن الأمر أطول مما صاروا إليه ، وكان خالد قد عزم أن يخوض اليوم معركة قاصمة لظهر الروم ولا تقوم لها قائمة بعدها أبدا .

خرج الروم فى تعبية لم ير الراءون مثلها قط ، وخرج خالد فى تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك ، فخرج فى ستة وثلاثين كردوسا إلى الأربعين ، وقال :

— إن عدوكم قد كثر وطغى ، وليس من التعبية تعبية أكثر فى رأى العين

من الكراديس .

فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة ، وجعل الميسرة كراديس وعليها زيد بن أبى سفيان ، وكان على كردوس من كراديس أهل العراق القعقاع بن عمرو ، وعلى كردوس مذعور بن عدىّ ، وعياض بن غنم على كردوس ، وهاشم بن عتبة على كردوس ، وزياد بن حنظلة على كردوس ، وخالد على كردوس ، وابن سعيد دحية بن خليفة على كردوس ، وامرؤ القيس على كردوس ، ويزيد بن يحنس على كردوس ، وأبو عبيدة على كردوس ، وعكرمة بن أبى جهل على كردوس ، وسهيل ابن عمرو على كردوس ، وعبد الرحمن بن خالد على كردوس وهو يومئذ ابن ثمانى عشرة سنة ، وحبيب بن مسلمة على كردوس ، وصفوان بن أمية على كردوس ، وسعيد بن خالد على كردوس ، وأبو الأعور بن سفيان على كردوس ، وابن ذى الخمار على كردوس ، وفى الميمنة عمارة بن مخشى بن خويلد على كردوس ، وشرحبيل على كردوس ومعه خالد بن سعيد ، وعبد الله بن قيس على كردوس ؛ وعمرو بن عبسة على كردوس ، والسمط بن الأسود على كردوس ، وذو الكلاع على كردوس ، ومعاوية بن حُدَيْج على آخر ، وجندب بن عمرو بن حُممة على كردوس ، وعمرو بن فلان على كردوس . ولقيط بن عبد قيس بن بجرة على كردوس ؛ وفى المسيرة يزيد بن أبى سفيان على كردوس ، والزبير بن العوام على كردوس ، وحوشب ذو ظليم على كردوس ، وقيس ابن عمرو على كردوس ، وعصمة بن عبد الله على كردوس ، وضرار بن

الأزور على كردوس ، ومسروق بن فلان على كردوس ، وعتبة بن ربيعة ابن بهز على كردوس . وكان القاضى أبو الدرداء وكان القاص أبو سفيان بن حرب ، وكان على الطلائع قباث بن أشيم ، وكان على الأقباض عبد الله بن مسعود ، وكان القارئ المقداد ، وقد سن رسول الله — ﷺ — بعد بدر أن يقرأ القارئ سورة الجهاد عند اللقاء وهى الأنفال .

وكان فى الجيش ألف من أصحاب رسول الله — ﷺ — فيهم نحو من مائة من أهل بدر ؛ وراح أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس فيقول :

— الله الله ، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك .

كان مع المسلمين يوم بدر فرس واحد ، أما فى اليرموك فكانوا على ظهور جيادهم العربية ؛ فرسول الله — ﷺ — عرف أهمية الفرسان بعد وقعة أحد ، فراح يرعى الخيول ويشجع المسلمين على تربيتها ، وقد وضع عنها الزكاة ، وروى أحاديث عن خيرها ، وأعطى للفرس من الفىء ضعف الفارس ، فكانت ثمرة ذلك تلك الخيول التى فتح المسلمون على ظهورها الأمصار ، ورفعوا فيها راية الإسلام .

وقال رجل لخالد :

— ما أكثر الروم وأقل المسلمين !

فقال خالد فى ثقة :

— ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان ، ولا بعدد الرجال .

٢٨

لما رجع خالد من حجه وافاه كتاب أبى بكر بالخروج فى شطر الناس ، وأن يخلف على الشطر الباقى المثنى بن حارثة ، وقال :

ـــ لا تأخذن نجدا إلا خلفت له نجدا ، فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ، ثم أنت على عملك .

وأحضر خالد أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ واستأثر بهم على المثنى وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة ممن لم يكن له صحبة . ثم نظر فيمن بقى فاختار من كان قدم على النبى ـــ ﷺ ـــ وافدا أو غير وافد ، وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة ، ثم قسم الجند نصفين ، فقال المثنى :

ـــ والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، وبالله ما أرجو النصر إلا بهم فأنّى تعرينى منهم !

وتلكأ خالد ، وأصر المثنى على أن يترك معه نصف صحابة رسول الله ـــ ﷺ . فلما رأى ذلك خالد أعاضه منهم حتى رضى ، وكان فيمن أعاضه منهم فرات بن حيان العجلى ، وبشير بن الخصاصية ، والحارث بن حسان ، ومعبد بن أم معبد السلمى ، وعبد الله بن أبى أوفى الأسلمى ، والحارث بن بلال المزنى ، وعاصم بن عمرو التميمى ، حتى إذا رضى المثنى وأخذ حاجته ، خرج خالد قاصدا اليرموك ، وشيعه المثنى إلى قراقر ثم

رجع إلى الحيرة ، فأقام فى سلطانه . ووضع فى المسلحة التى كان فيها أخاه المعنى ، ومكان ضرار بن الخطاب عتيبة بن النهاس ، ومكان ضرار بن الأزور مسعودا أخاه الآخر ، وسد أماكن كل من خرج من الأمراء برجال أمثالهم .

والتفت خالد إلى رجاله وقال :

ـــ كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء جمع الروم ، فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين ؟

إن خالد بن الوليد يذكر يوم الحديبية ، يوم خرج للقاء رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأصحابه وهم فى ملابس الإحرام ليمنعهم من دخول مكة ، فسلك رسول الله ـــ ﷺ ـــ طريقا وعرا فإذا هو والذين معه خلف خالد ، وإذا مكة على بعد مراحل قليلة منهم ، ولولا أن حبس ناقته ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ حابس الفيل لدخل رسول الله ـــ ﷺ ـــ مكة . إن خالدا ليذكر ذلك ، وإنه يريد أن يفعل بالروم ما فعله عليه السلام بجيش قريش ذلك اليوم الذى لا ينساه ، فقال رجاله :

ـــ لا نعرف إلا طريقا لا يحمل الجيوش يأخذه الفذ [١] الراكب ، فإياك أن تغرر بالمسلمين .

إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد سلك طريقا وعرا ليتفادى من جيش قريش ، وإن خالد بن الوليد الذى اتخذ من رسول الله ـــ ﷺ ـــ أسوة فى حروبه لن يتردد عن اجتياز الطريق مهما كان وعرا ومهما عارض رجاله ، فعزم عليه ، و لم يجبه إلى ذلك إلا رافع بن عميرة على تهيب شديد

---

(١) الفذ : الفرد

فقام فيهم فقال :

ــ لا يختلفن هديكم ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله له .

ــ أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك .

فطابقوه ونووا واحتسبوا واشتهوا مثل الذى اشتهى خالد ، فأمرهم خالد أن يحملوا معهم ماء يكفيهم خمسة أيام للشرب ، وأمر صاحب كل خيل بقدر ما يسقيها ، وحملت الإبل ما يكاد يكفيها ، ثم ركب خالد والذين معه من قراقر ..

فقال محرز بن حريش المحاربى لخالد :

ــ اجعل كوكب الصبح على حاجبك الأيمن ، ثم أمه تفض إلى سوى .

كان سوى على الجانب الآخر من قراقر مما يلى الشام فراح جيش المسلمين يسير خمسة أيام فى سبل صعبة ، شمس النهار تلسعهم وظلام الليل يؤخر زحفهم . وبعد جهد ومشقة بلغوا سوى وأغاروا عليها ، فلما بلغ غسان خروج خالد على سوى وانتسافها اجتمعوا بمرج راهط ، وعلم خالد بخروج غسان فانطلق حتى صار إلى دمشق ثم مرج الصفر ، فلقى عليه غسان وعليهم الحارث بن الأيهم، فانتسف عسكرهم وعيالهم . ونزل بالمرج أياما وبعث إلى أبى بكر بالأخماس مع بلال بن الحارث المزنى ، ثم خرج من المرج وسار حتى نزل على قناة بصرى وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان فاجتمعوا عليها وحاصروها حتى صالحت بصرى على الجزية ، وفتحها الله على المسلمين فكانت أول مدينة

من مدن الشام فتحت فى خلافة أبى بكر .

ثم ساروا جميعا إلى فلسطين مددا لعمرو بن العاص وعمرو مقيم بالعربات من غور فلسطين ، وسمعت الروم بهم فانكشفوا إلى أجنادين وعليهم تذارق أخو هرقل . وأجنادين بلد بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين .

وسار عمرو بن العاص حين سمع بأبى عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان حتى لقيهم ، فاجتمعوا بأجنادين وحاصروها ، وكان على الروم رجل منهم يقال له القبقلار ، وكان هرقل استخلفه على أمراء الشام حين صار إلى القسطنطينية ، وإليه انصرف تذارق بمن معه من الروم ، فلما تدانى العسكران بعث القبقلار رجلا عربيا من قضاعة وقال له :

— ادخل فى هؤلاء القوم فأقم فيهم يوما وليلة .

فدخل فى الناس رجل عربى لا ينكر ، فأقام فيهم يوما وليلة ثم أتاه فقال له :

— ما وراءك ؟

— بالليل رهبان وبالنهار فرسان ، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ولو زنى رجموه ، لإقامة الحق فيهم .

— لئن كنت صدقتنى لبطنُ الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ، ولوددت أن حظى من الله أن يخلى بينى وبينهم فلا ينصرنى عليهم ولا ينصرهم على .

ثم تزاحف الناس فاقتتلوا ، فلما رأى القبلار ما رأى من قتال المسلمين قال للروم :

ــ لفوا رأسى بثوب .

ــ لم ؟

ــ يوم البئيس لا أحب أن أراه ، ما رأيت فى الدنيا يوما أشد من هذا .

فاحتز المسلمون رأسه وإنه لملفف ، وقتل من المسلمين سلمة بن هشام ابن المغيرة وهبار بن الأسود وجماعة أخر من قريش ، وانتصر المسلمون بأجنادين ، وقتل خليفة هرقل ، ثم رجع هرقل للمسلمين فالتقوا باليرموك .

واستقام أهل فارس على رأس سنة من مقدم خالد الحيرة ، بعد خروج خالد بقليل على شهر براز بن أردشير بن شهريار ، فوجه إلى المثنى جندا عظيما عليهم هرمز جاذويه فى عشرة آلاف ومعه فيل ، وكتبت المسالح إلى المثنى بإقباله فخرج المثنى من الحيرة نحوه وضم إليه المسالح وجعل على مجنبتيه أخويه المعنى ومسعودا ، وأقام له ببابل .

وأقبل رمز جاذويه وعلى مجنبتيه الكوكبذ والخوكبذ وكتب إلى المثنى : « من شهربراز إلى المثنى ، إنى قد بعثت إليك جندا من وحش أهل فارس ، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم ».

فأجابه المثنى : « من المثنى إلى شهربراز ، إنما أنت أحد رجلين : إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس الملوك . وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم إليهم . فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير » .

فجزع أهل فارس من كتابه وقالوا لشهربراز :

ــ جرأت علينا عدونا بالذى كتبت إليهم ، فإذا كاتبت أحدا فاستشر .

ونزل المثنى على خمسين ميلا من المدائن ، وأقبل جاذويه وجنده يتقدمهم الفيل ، والتقى الجيشان ببابل ودار القتال فراح الفيل يضرب المسلمين بخرطومه فيفرق صفوفهم . فرأى المثنى ضرورة القضاء على الفيل فشد وجماعة من رجاله عليه وجعلوا يطعنونه حتى أردوه قتيلا ، ثم شددوا النكير على الفرس وحمى وطيس القتال وارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير ، فجاء النصر من عند الله وحاقت الهزيمة بالفرس ، ففروا والمسلمون فى أثرهم حتى بلغوا المدائن ووقفوا يطرقون أبوابها .

وبلغ شهربراز هزيمة هرمز جاذويه فمات كمدا ، وفكر المثنى فى أمره أيهجم على المدائن بمن معه من الجند ؟ إن نفسه لتصبو إلى فتحها ، ولكن فتحها بمن معه ضرب من المحال . فرأى أن يكتب إلى الصديق يخبره بانتصاراته وأن يسأله المدد ، فكتب بما بجيش فى صدره وانتظر رد الخليفة وهو يتحرق شوقا لفتح المدائن .

واختلفت فارس فيمن يولونه خلفا لعاهلهم ، وأخيرا أجمعوا أمرهم على تولية دخت زنان ابنته ، فتولت الملك فلم يسمع لها بل تآمروا عليها وخلعوها ، وتولى سابور بن شهرباراز الملك ولكنه كان حدثا ، فقام بأمره الفرخزاد . وتقدم الفرخزاد إلى سابور يسأله أن يزوجه آزر ميدخت ابنة كسرى فقبل ، إلا أن آزرميدخت رأت فى ذلك امتهانا لكرامتها فقالت لسابور :

ـــ يا بن عم ، أتزوجنى عبدى ؟!

ـــ استحى من هذا الكلام ولا تعيديه علىّ ، فإنه زوجك .

فبعث إلى سياوخش الرازى وكان من فتاك الأعاجم ، فشكت إليه الذى تخاف فقال لها :

— إن كنت كارهة لهذا فلا تعاوديه فيه وأرسلى إليه وقولى له : فليقل له فليأتك فأنا أكفيكه .

وأحكمت المؤامرة واستعد سياوخش ، فلما كانت ليلة العرس أقبل الفرخزاد حتى دخل ، فثار به سياوخش فقتله ومن معه ، ثم خرج بها معه إلى سابور فقتلوه ، وملكت آزرميدخت بنت كسرى .

رأى المثنى الفتن تكاد تأكل فارس ، وأن كل الظروف فى جانبه . وأبطأ خبر أبى بكر على المسلمين فلم يستطع المثنى مكثا ، فخلف على المسلمين بشير بن الخصاصية ، ووضع مكانه فى المسالح سعيد بن مرة العجلى . وخرج المثنى قاصدا المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين والمشركين وليستأذن فى الاستعانة بمن ظهرت توبته وندمه من أهل الردة ممن يستطيع الغزو ، وليخبره أنه لم يخلف أحدا أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم ، فأبو بكر لم يكن يستعمل من تاب من أهل الردة .

٢٩

كان منزل أبى بكر السُنْح عند زوجته حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبى زهير من بنى الحارث بن الخزرج ، وكان قد حجَّر عليه حجرة من سعف فما زاد على ذلك . فأقام هنالك بعد ما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة ، وربما ركب على فرس له وعليه إزار ورداء ممشّق فيوافى المدينة ، فيصلى الصلوات بالناس ، فإذا صلى العشاء رحل إلى أهله بالسُّنح ، فكان إذا حضر صلى بالناس وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب،فكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسنح يصبغ رأسه ولحيته ، ثم يروح لقدر الجمعة فيجمع بالناس .

وكان رجلا تاجرا فكان يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه ، وربما خرج هو بنفسه فيها ، وكلما كفيها فرعيت له . وكان يحلب للحى أغنامهم ، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحى :

ــ الآن لا تحلب لنا منائح دارنا .

فسمعها أبو بكر فقال :

ــ بلى لعمرى لأحلبنها لكم ، وإنى لأرجو ألا يغيرنى ما دخلت فيه عن خُلق كنت عليه .

فكان يحلب لهم . فمكث كذلك بالسنح ستة أشهر ثم نزل إلى المدينة

فأقام بها ، وأراد أن يخرج للتجارة فرأى أن أمور الناس لا تصلح بالتجارة وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم ولا بد لعياله مما يصلحهم ، ففرض له فى كل سنة ستة آلاف درهم .

وكان نقش خاتم أبى بكر : نعم القادر الله ، وكان أبو عبيدة بن الجراح على بيت المال ، وكفاه عمر القضاء فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان ، وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان .

وكان عامله على مكة عتاب بن أسيد ، وعلى الطائف عثمان بن أبى أمية ، وعلى حضرموت زياد بن لبيد ، وعلى خولان يعلى بن أمية ، وعلى زبيد ورمع أبو موسى الأشعرى ، وعلى الجند معاذ بن جبل ، وعلى البحرين العلاء بن الحضير . وبعث جرير بن عبد الله إلى نجران ، وبعث بعبد الله بن ثور إلى ناحية جُرَش ، وبعث عياض بن غنم إلى دومة الجندل ، وكان بالشام أبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان وعمرو . كل رجل منهم على جند وعليهم خالد بن الوليد .

وتزوج أبو بكر فى الجاهلية قُتيلة بنت عبد العزى فولدت له عبد الله وأسماء ، وتزوج أيضا فى الجاهلية أم رومان بنت عامر فولدت له عبد الرحمن وعائشة ، وتزوج فى الإسلام أسماء بنت عميس وكانت قبله عند جعفر بن أبى طالب فولدت له محمد بن أبى بكر ، وتزوج أيضا فى الإسلام حبيبة بنت خارجة فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم .

وكان رجلا أبيض نحيفا خفيف العارضين ، أحنى رقيقا ، معروق الوجه غائر العينين ناتئ الجبهة، حمش الساقين ممحوص الفخذين .

ومرض أبو بكر فقد اغتسل فى يوم بارد فحُم لا يخرج إلى الصلاة ، وأمر عمر بن الخطاب أن يصلى بالناس . فكان الناس يدخلون ليعودوه

وهو يثقل كل يوم ، وكانت داره أمام دار عثمان بن عفان فكان عثمان ألزم الناس له فى مرضه .

وقيل له :

— لو أرسلت إلى الطبيب .

فقال فى صوت خافت :

— قد رآنى .

— فما قال لك !

— قال إنى أفعل ما أشاء .

وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ، وكان يتبع خطوات رسول الله — ﷺ — فكانت أيامه امتدادا لأيام نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه . وأراد العقد لعمر بن الخطاب فدعا عبد الرحمن بن عوف فقال .

— أخبرنى عن عمر .

— يا خليفة رسول الله ، هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكنَّ فيه غلظة .

— ذلك لأنه يرانى رقيقا . ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرا مما هو عليه . ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتنى إذا غضبتُ على الرجل فى الشىء أرانى الرضا عنه ، وإذا لنت له ، أرانى الشدة عليه . لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئا .

— نعم .

ثم دعا عثمان بن عفان فقال :

— يا أبا عبد الله أخبرنى عن عمر .

ـــ أنت أخبر به .

ـــ على ذاك يا أبا عبد الله !

ـــ اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته ، وأن ليس فينا مثله .

ـــ يا أبا عبد الله لا تذكر مما ذكرت لك شيئا .

ـــ أفعل .

ـــ لو تركته ما عدوتك ، وما أدرى لعله تاركه والخيرة له ألا يلى من أموركم شيئا . ووددت أنى كنت خلوا من أموركم وأنى كنت فيمن مضى من سلفكم . يا أبا عبد الله لا تذكرن مما قلت لك من أمر عمر ولا مما دعوتك له شيئا .

ونهض أبو بكر وأسماء بنت عميس ممسكته ، فأشرف على الناس وهو يقول :

ـــ أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ فإنى والله ما ألوت [1] من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة ، وإنى قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا .

ـــ سمعنا وأطعنا .

ودعا أبو بكر عثمان فقال له :

ـــ اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين . أما بعد ..

ثم أغمى عليه فذهب عنه ، فكتب عثمان : « أما بعد فإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، ولم آلكم خيرا منه ».

---

(١) ألوت : قصرت .

ثم أفاق أبو بكر فقال :

ـــ اقرأ عليّ .

فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال :

ـــ أراك خفت أن يختلف الناس إن افتُلتت نفسى فى غشيتى.

ـــ نعم .

ـــ جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله .

وأقرها أبو بكر ، وخرج مولى لأبى بكر يقال له شديد بالصحيفة إلى عمر ، فجلس عمر فى المسجد والناس معه وبيده جريدة وراح يقول :

ـــ أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله ـــ ﷺ ـــ إنه يقول : إنى لم آلكم نصحا .

وقرأ شديد الصحيفة ، ودخل طلحة بن عبيد الله على أبى بكر فقال :

ـــ استخلفت على الناس عمر ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه فكيف به إذا خلا بهم ، وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك ؟

فقال أبو بكر وكان مضطجعا :

ـــ أجلسونى .

فأجلسوه فقال لطلحة :

ـــ أبالله تخوفنى ؟ إذا لقيت الله ربى فسألنى قلت : استخلفت على أهلك خير أهلك .

وفى الصباح دخل عبد الرحمن بن عوف على أبى بكر الصديق فوجده مهتما ، فقال له عبد الرحمن :

ـــ أصبحت والحمد لله بارئا .

ـــ إنى وليت أمركم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد

أن يكون له الأمر دونه ، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل وهى مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذرى [١] ، كما يألم أحدكم أن ينام على حسك .

والله لأن يقوم أحدكم فنضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا ، وأنتم أول ضال بالناس غدا فتصدونهم عن الطريق يمينا وشمالا . يا هادى الطريق إنما هو الفجر أو البحر .

ـــ خفض عليك رحمك الله فإن هذا يهيضك فى أمرك ، إنما الناس فى أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك . وصاحبك كما تحب ولا نعلمك أردت إلا خيرا و لم تزل صالحا مصلحا ، وأنك لا تأسى على شىء من الدنيا .

ـــ أجل ، إنى لا آسى على شىء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن وددت أنى تركتهن ، وثلاث تركتهن وددت أنى فعلتهن ، وثلاث وددت أنى سألت عنهم رسول الله ـــ ﷺ . فأما الثلاث اللاتى وددت أنى تركتهن فوددت أنى لم أكشف بيت فاطمة عن شىء وإن كانوا اغلّقوه على الحرب ، وودت أنى لم أكن حرقت الفجاءة السلمى وأنى كنت قتلته سريحا [٢] أو خليته نجيحا ، وودت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة وكنت قذفت الأمر فى عنق أحد الرجلين فكان أحدهما أميرا وكنت وزيرا .

وأما اللاتى تركتهن فوددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيرا كنت ضربت عنقه فإنه تخيل إلىّ أنه لا يرى شرا إلا أعان عليه ، ووددت أنى حين

---

(١) الأذرى : نسبة إلى أذربيجان .

(٢) قتلته سريحا : قتلا يسيل به الدم ، خليته نجيحا : تركته وقد صبرت عليه .

سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة كنت أقمت بذى القصة فإن ظفر المسلمون ظفروا وإن هزموا كنت بصدد لقاء أو مددا ، ووددت أنى كنت إذا وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت يدى كلتيهما فى سبيل الله .

ووددت أنى كنت سألت رسول الله — ﷺ — عن هذا الأمر فلا ينازعه أحد ، ووددت أنى كنت سألته : هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب ؟ ووددت أنى كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ والعمة (١) فإن فى نفسى منهما شيئا .

وقدم المثنى بن حارثة الشيبانى إلى المدينة وقد عقد أبو بكر لعمر ، فدخل على الصديق وهو مريض فأخبره خبر المسلمين والمشركين ، واستأذنه فى الاستعانة بمن ظهرت توبته وندمه من أهل الردة ممن يريد الغزو ، فقال أبو بكر :

— علىّ بعمر .

فجاء فقال له :

— اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به : إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا . فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى . وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى . ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت على أمر دينكم ووصية ربكم ، وقد رأيتنى متوفى رسول الله — ﷺ — وما صنعت و لم يصب الخلق بمثله ، وبالله لو أنى أنى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة نارا . وإن فتح الله

(١) بنت الأخ والعمة : من ذوى الأرحام لا يرثان .

على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم(١) .

وحضرت الوفاة أبا بكر فى نفس اليوم ، يوم الاثنين ، فقال لمن عنده :

— انظروا كم أنفقت منذ وليت من بيت المال فاقضوه عنى .

فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم فى ولايته فدفعوه إلى عمر ، فقال عمر :

— لقد أتعب مَن بعده .

وغابت الشمس فالتفت أبو بكر إلى زوجه أسماء بنت عميس وقال :

— غسلينى .

— لا أطيق ذلك .

— يعينك عبد الرحمن بن أبى بكر يصب الماء .

وقال لعائشة :

— فى كم كفن النبى — ﷺ ؟

— فى ثلاثة أثواب .

— اغسلوا ثوبىَّ هذين .

وكانا ممزقين .

— وابتاعوا لى ثوبا آخر .

— يا أبه ، إنا موسرون .

— أى بنية ، الحىّ أحق من الميت ، إنما هما للمهلة والصديد .

وقالت عائشة :

---

(١) باقى أحداث حروب العراق والفرس فى كتاب «سعد بن أبى وقاص» للمؤلف.

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فتقلص وجه أبى بكر وبان فيه الغضب وقال :

— ليس كذلك يا أم المؤمنين ، ولكن : « وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد » .

وراح ينشد بصوت خافت :

وكل ذى إبل موروث وكل ذى سلب مسلوب
وكل ذى غيبة يئوب وغائب الموت لا يئوب

وأوصى عائشة أن يدفن إلى جنب النبى — ﷺ — وحشرجت روحه فقال :

— رب توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين .

ولفظ أبو بكر أنفاسه الطاهرة بعد ما غابت الشمس ، فارتفع الصياح فى بيته فسأل أبو قحافة وكان قد ذهب بصره عن الخبر ، فقيل له :

— مات ابنك .

— رزء فادح .

وأقامت عائشة على أبيها النوح ، فأقبل عمر بن الخطاب حتى قام ببابها فنهاهن عن البكاء على أبى بكر ، فأبين أن ينتهين فقال عمر لهشام بن الوليد :

— ادخل فأخرج إلىّ ابنة أبى قحافة أخت أبى بكر .

فقالت عائشة لهشام حين سمعت ذلك من عمر :

— إنى أحرج عليك بيتى .

فقال عمر لهشام :

— ادخل فقد أذنت لك .

فدخل هشام فأخرج أم فروة أخت أبى بكر إلى عمر فعلاها بالدرة فضربها ضربات ، فتفرق النوح حين سمعوا ذلك .

وحُمل أبو بكر على السرير الذى حُمل عليه رسول الله — ﷺ ، وصلى عليه عمر فى مسجد رسول الله — ﷺ ، وحفر له ودخل قبره عمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وجعل رأسه عند كتفى رسول الله — ﷺ — وألصقوا اللحد بلحد النبى — ﷺ . وقبر الرجل الذى كانت خلافته امتدادا للأيام المباركة أيام رسول الله — ﷺ .

وخرجت عائشة ووقفت على قبر أبيها فبكت ثم قالت :

— نضر الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها ، وللآخرة معزا بإقبالك عليها . ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله — ﷺ — رزؤك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ، إن كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وأنا متنجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك . فسلم الله عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية عن القضاء فيك .

وسار عمر فى هجعة الليل وفكره يعمل ؛ إنه يذكر ما كان من أبى بكر ومنه لما عزم أبو بكر على فتح الشام ، إن أبا بكر دعا إليه الصحابة وأهل الرأى فقال :

— إن رسول الله كان عوَّل أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه واختار له ما لديه ، والعرب بنو أم وأب وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم

بالشام ؛ فمن هلك منهم هلك شهيدا وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعا عن الدين مستوجبا عند الله عز وجل ثواب المجاهدين .

فصمت أهل الرأى ، أخذتهم هيبة الروم فقال عمر :

ـــ والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه . قد والله أردت لقاءك بهذا الرأى الذى ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد .

سرِّب إليهم الخيل فى إثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال ، والجنود ، تتبعها الجنود فإن الله عز وجل ناصر دينه ، ومعز الإسلام وأهله ، ومنجز ما وعد رسوله .

وفى ظلام الليل رأى بعين الخيال خروج عمرو بن العاص وأبى عبيدة ابن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان إلى الشام ، وتذكر أن خالد بن الوليد قد صار أميرا على جيوش المسلمين باليرموك فانقبض . إن رأيه فى خالد سيئ ، فعزم على أن يستفتح عهده بعزل خالد عن إمارة جيوش المسلمين ، فهو لم ينس له قتل مالك بن نويرة وزواجه من زوجته وقتل عبد العزى بن أبى رهم ولبيد بن جرير وكان معهما كتاب من أبى بكر بإسلامهما .

وجاء الصبح فخرج إلى الناس فأقبلوا عليه يبايعونه ، فلما كان الظهر ازدحم الناس فى المسجد فصعد عمر المنبر درجة دون الدرجة التى كان أبو بكر يقوم عليها ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ـــ ﷺ ـــ وذكر أبا بكر وفضله ثم قال :

ـــ أيها الناس ! ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم .

وتوجه بنظره إلى السماء وقال :

ــ اللهم إنى غليظ فلينى ! اللهم إنى ضعيف فقونى ! اللهم إنى بخيل فسخنى !.. إن الله ابتلاكم بى وابتلانى بكم ، وأبقانى فيكم بعد صاحبىّ . فوالله لا يحضرنى شىء من أمركم فيليه أحد دونى ، ولا يتغيب عنى فآلو فيه عن الجزء [١] والأمانة . ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم .

وراح يكتب إلى أبى عبيدة بن الجراح يوليه على جند خالد : « ... أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ما سواه ، الذى هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور . وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذى يحق عليك ، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه ؛ ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة . وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك ، فغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبها عنك ، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم .

(١) الجزء : أن يجزى كلا بعمله .

٣٠

كان خالد بن الوليد على جيش المسلمين . إنه جمع الأمراء جميعا فى جيش واحد وطلب أن يولوه الإمارة يوما فأمروه وهم يعتقدون أن الأمر سيطول وأن كل أمير منهم سيتولى قيادة الجيش يوما ، وما دار بخلدهم أن سيف الله المسلول سينهى المعركة فى ذلك اليوم بانتصار حاسم للمسلمين .

أمر خالد عكرمة والقعقاع وكانا على مجنبتى القلب أن ينشبا القتال ، فتقدم الرجلان والذين معهما ونشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان ، فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة فانطلق إليه فرسان المسلمين يسألونه عن الأخبار ، فأخبرهم أن المسلمين فى المدينة بخير وأن خليفة رسول الله سيمدهم بالرجال ..وكتم محمية بن زنيم وهو الرسول خبر موت أبى بكر حتى لا يفت فى عضد المسلمين لما رأى الرجال ينازلون الرجال ، والحرب دائرة بين الكفر والإيمان .

وأخذ الفرسان محمية بن زنيم إلى حيث كان خالد . فلما كانا يتناجيان بعيدا عن الناس أسر محمية إلى خالد أن أبا بكر قد مات ولم يخبره بأمر عزله ، وأخبره أنه قال للجند إن المدينة بخير وأن خليفة رسول الله سيمدهم بأمداد ، فقال له خالد :

ــ أحسنت .

ووقف محمية بن زنيم مع خالد يكتم سر الكتاب ، وخرج من صفوف الروم جرجة حتى كان بين الصفين ونادى :

— ليخرج إلىّ خالد .

فخرج إليه خالد وأقام أبا عبيدة مكانه ، ودنا كل منهما من صاحبه حتى اختلفت أعناق دابتيهما وقد أمن أحدهما صاحبه ، فقال جرجة :

— يا خالد أصدقنى ولا تكذبنى فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المتوسل بالله . هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه ، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟

— لا .

— فبم سميت سيف الله ؟

— إن الله عز وجل بعث فينا نبيه — ﷺ — فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه . فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله . ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ، ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله بذلك . فأنا من أشد المسلمين على المشركين .

— صدقتنى .

كان جرجة قد سمع بالإسلام مذ بعث رسول الله — ﷺ — كتابه إلى هرقل مع دحية بن خليفة الكلبى يسأله فيه الإسلام ، وإن جرجة ليفكر فى ذلك الدين وفيما جاء به كلما خلا بنفسه . إنه ليجده دينا يتساوق مع المنطق والفطرة ، وشرح الله صدره للإسلام فقال لخالد :

— يا خالد أخبرنى إلام تدعونى ؟

— إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وللإقرار بما

جاء به من عند الله .

ـــ فمن لم يجبكم ؟

ـــ فالجزية ونمنعهم .

ـــ فإن لم يعطها ؟

ـــ نؤذنه بحرب ثم نقاتله .

ـــ فما منزلة الذى يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم ؟

ـــ منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا .

ـــ هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذُّخر ؟

ـــ نعم وأفضل .

ـــ وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟

ـــ إنا دخلنا فى هذا الأمر وبايعنا نبينا ـــ ﷺ ـــ وهو حى بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب ويرينا الآيات ، وحُقَّ لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يُسلم ويبايع . وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل فى هـذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا .

ـــ بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى ولم تتألفنى .

ـــ بالله لقد صدقتك ولا بى إليك ولا إلى أحد منكم وحشة ، وإن الله لوَلِىُّ ما سألت عنه .

ـــ صدقتنى .

وقلب الترس ومال مع خالد فكبر المسلمون ، واربدت أوجه الروم وطاف بهم غضب وخوف . غضب على جرجة وخوف مما يأتى بعد أن

انضم جرجة إلى صفوف المسلمين .

وقال جرجة لخالد :

— علمنى الإسلام .

فدخل به خالد إلى فسطاطه فصب عليه قربة من ماء ثم صلى به ركعتين . وحملت الروم على المسلمين حملة شديدة فأزالوا المسلمين عن مواقفهم ، ولم يثبت إلا المحامية عليهم عكرمة بن أبى جهل . إن الدماء لتثور حارة فى عروق عكرمة ، وإنه ليقول فى انفعال شديد :

— قاتلت مع رسول الله — ﷺ — فى كل موطن وأفر منكم اليوم ؟

ثم نادى :

— من يبايع على الموت ؟

فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا أمام فسطاط خالد وقد خلصت إليهم الجراح جميعا . وخرج خالد ومعه جرجة وراح يجوس خلال الروم ، خالد يضرب بسيفه رقاب الأعداء وجرجة يدافع عن الدين الذى دخل فيه ، وكانت النسوة خلف جيش المسلمين فأخذن يضربن من انهزم من المسلمين بالخشب والحجارة ويصحن .

— أين تذهبون وتدعوننا للعلوج ؟

وراحت خولة بنت ثعلب تنشد :

يا هاربا عن نسوة تقيات فعن قليل ما نرى سبيات

ولاحصيات ولا رضيات

كان الزبير بن العوام أفضل صحابى فى جيش خالد . فاجتمع إليه جماعة من صناديد المسلمين فقالوا له :

— ألا تحمل فنحمل معك ؟

فحمل الزبير وحملوا ، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا فراح الزبير يخوض فى صفوف الروم ويلعب بسيفه يضرب الرقاب ويطعن القلوب ، ثم عاد إلى مكانه فجاءه جماعة من الأبطال وقالوا :

— احمل فنحمل معك .

— إنكم لا تثبتون .

— سنثبت .

فحمل الزبير وحملوا ، فلما واجهوا صفوف الأعداء أحجموا وأقدم ، واستمرت رحى المعركة دائرة وارتفعت الشمس ثم مالت لا يسمع إلا قعقعة السيوف وصهيل الخيول وصلصلة السلاسل التى ربطت بها جند الروم . وثبت خالد وجرجة والزبير وعكرمة بن أبى جهل والذين معه والحارث بن هشام . وتنادى المسلمون فنظموا صفوفهم وراحوا يقاتلون صفا كأنهم بنيان مرصوص وارتفعت أصواتهم بالتكبير . فزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف ، وانطلق سهم استقر فى عين أبى سفيان بن حرب فأخرجه من عينه أبو حسمة ولم يفت ذلك فى عضد المسلمين . واشتد القتال فراحت سيوف المسلمين تحصد رقاب الروم وراحت الشمس تغوص فى الأفق الغربى ، ونال الجهد والتعب من الرجال ، وملأ العرق أعين المقاتلين وخالد على ظهر جواده كالطود قد عزم على أن يقضى على أعدائه قبل أن يرخى الليل سدوله .

وأصيب جرجة ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما ، وصلى الناس الظهر والعصر إيماءً ، وسقط عكرمة بن أبى جهل متأثرا بجراحه ، ولفظ عمرو بن عكرمة أنفاسه ، واستشهد سلمة بن

هشام وعمرو بن سعيد وإبان بن سعيد ؛ وطعن خالد بن سعيد طعنة قاتلة فداسته الخيل فلا يدرى أين مات .

واستمر الطفيل بن عمرو يقاتل وقد خلصت إليه الجراح ؛ إن دمه يسيل من كل جسمه وهو يثب وثوب الأسد الجريح ، إنه وطد العزم على أن يقتل كل من يصل إليه سيفه قبل أن يستشهد ، واستمر يصول ويجول ويضرب من الأعداء كل بنان قبل أن يجود بأنفاسه الطاهرة .

كان الطفيل بن عمرو قد رأى رؤيا أوَّلَها بأنه يستشهد ، وقد تحققت رؤياه وأمسى من الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون . وراح ابن الطفيل يخوض فى صفوف الأعداء لعل الله يرزقه الشهادة ويلحق بأبيه ، ولكنه كان يخترق الصف ويخرج منه والدماء منه تسيل ليعود ليخوض فى الصف يطيح رءوس الذين كانوا فى السلاسل مقيدين .

كان تذارق أخو هرقل فى صفوف الروم . إنه يقاتل بائسا فقد عاد إلى ذاكرته ما دار بينه وبين هرقل لما جاءهما خبر دخول قواد المسلمين لغزو الشام . إن ذلك الحوار يرن فى وجدانه فيشيع الهزيمة فى نفسه ، إن هرقل يقول لرجاله :

ـــ أرى من الرأى ألا تقاتلوا هؤلاء القوم وأن تصالحوهم ، فوالله لئن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام وتأخذوا نصفا وتقر لكم جبال الروم ، خير من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم فى جبال الروم .

إن تذارق أخا هرقل ليذكر والندم يعتصره أنه نخر لما سمع من قيصر العظيم تلك المقالة ، وخرج فى جيوش الروم ليؤدب المسلمين . وإنه ليرى الهزيمة قد لاحت ؛ فياليته ألقى إلى أخيه سمعه ولم يتملكه الغرور . ليته استمع إلى أخيه لما قال : « لا تقاتلوهم فإنه لا قوام لكم مع هؤلاء القوم ،

إن دينهم دين جديد يجدد لهم ثبارهم[(١)] ، فلا يقوم لهم أحد حتى يُبلى » إنهم أعرضوا عنه وقالوا له : « قاتل عن دينك ولا تجبن الناس ، واقض الذى عليك ».

إن الحماس وحده لا يقضى على الأعداء . لقد ثبت حقاً أن المسلمين قد تسلحوا بإيمان عميق ، بينما كانت قلوب الروم هواء قد دفعوا إلى المعركة كأنما يساقون إلى الموت مقيدين فى سلاسل الحديد . إن المسلمين لما نزلوا اليرموك ، بعثوا إليه :

— إنا نريد كلام أميركم وملاقاته ، فدعونا نأته ونكلمه .

فأبلغوه فأذن لهم . فأتاه أبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان والحارث بن هشام وضرار بن الأزور وأبو جندل بن سهيل ودخلوا عليه بأقدام ثابتة ورءوس مرفوعة ، لم يضطربوا لدخولهم على تذارق أخى هرقل إمبراطور الروم ، ولم تبهرهم السرادق التى كانت من الديباج بل إنهم احتقروها ، فلما انتهوا إليها أبوا أن يدخلوا عليه فيها وقالوا :

— لا نستحل الحرير فابرز لنا .

فبرز إلى فرش ممهدة ودار بينه وبينهم حوار ، إنهم طالبوه بالإسلام أو الجزية أو القتال فسخر منهم واحتقر شأنهم فكان القتال ، إنه قتال رهيب لم يلق مثله من قبل ، اشترك فى معارك كثيرة وقاتل الفرس فلم يلق ما يلقاه اليوم ، إنه يقاتل أناسا يفرحون بالموت أكثر من فرحهم بالنجاة .

وبلغ هرقل وكان دون مدينة حمص أنباء ذلك الحوار الذى دار بين أخيه وبين أمراء المسلمين فقال للذين كانوا عنده من القواد ورجال مملكته :

---

(١) ثبارهم : قوتهم وصبرهم على موالاة القتال .

— ألم أقل لكم ؟ هذا أول الذل . أما الشام فلا شام ، وويل للروم من المولود المشئوم .

دخل على هرقل بعد أن تولى عرش الأباطرة المنجمون وقالوا له : إن شعبا مختونا سيقضى على مملكته ، فحسب أن اليهود هم ذلك الشعب ، وما دار بخلده أن العرب الذين كانوا قبائل متفرقة فى صحراء جرداء هم ذلك الشعب الموعود .

إنه تلقى دحية الكلبى رسول النبى العربى فى قصره ، وأكرم مثواه ، وقرأ كتاب محمد بن عبد الله ورد على الكتاب ردا كريما . إن محمدا سأله الإسلام فخاف على ملكه و لم يدخل فى الدين الجديد ، ولو أنه أسلم كما أسلم النجاشى لما سارت إليه جحافل العرب لتتحقق نبوءة النجوم .

ودار القتال عند اليرموك عنيفا لا رحمة فيه ، وانقض فارس من فرسان المسلمين على تذارق أخى هرقل وطعنه طعنة قاضية ، فسقط عن فرسه يتخبط فى دمه حتى استقر جثة هامدة تتزين بجوهر عجز أن يحفظ عليها حياتها أو كرامتها .

وتضعضع الروم ، وهجم خالد بالقلب وحمل حملة صادقة حتى كان بين خيلهم ومشاتهم ، وكانت ساحة القتال واسعة يمكن للخيل أن تجرى فيها ، ثم تضيق عند نهايتها حتى يصبح الهرب منها عسيرا . فراح فرسان الروم يفرون أمام فرسان المسلمين وينسلون من المهرب الضيق إلى الصحراء . فلما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب أفسحوا لها الطريق فتفرقت فى البلاد ، وبقى المشاة وحدهم فى الميدان هدفا لسهام المسلمين وسيوفهم .

وأقبل خالد وفرسانه على المشاة فراحوا يضربون بالحراب فى الصدور

ويطيحون بسيوفهم الرءوس ، فدب الفزع فى قلوب المقيدين بالسلاسل ففروا إلى خندقهم ؛ ولكن أين المفر ؟ إن خيل المسلمين تقتحم عليهم خندقهم وفرسان المسلمين يجنون الرءوس ، فتقهقر المسلسلون والمقيدون مرعوبين حتى سقط كثير منهم فى الهاوية لتدق أعناقهم ، فمن صبر من المقترنين للقتال هوى به من ذهبت نفسه شعاعا من الفزع ، فيهوى الواحد بالعشرة لا يطيقونه ، كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف ، فتهافت فى الهاوية عشرون ومائة ألف ؛ ثمانون ألف مقترن وأربعون ألف مطلق ، سوى من قتل فى المعركة من الخيل والمشاة .

وأسدل القبقلار وأشراف من أشراف الروم برانسهم على وجوههم وقالوا:

— لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور ، وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانية .

فأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب ، وماتت المعركة بعد موت المقاتلين الروم وفرار من فر منهم . فسار خالد بن الوليد فى الخندق حتى بلغ رواق تذارق فدخله ليبيت فيه ، وشغل المسلمون بجمع الأسلاب وما خلف الروم فى عسكرهم وما تركوا فى أرض المعركة .

وأصبح الصباح فخرج خالد من رواقه ليلقى نظرة على أرض المعركة فإذا برجال قادمين يحملون جريحين ، فنظر خالد إلى الجريحين فإذا هما عكرمة بن أبى جهل (عمرو بن هشام) وابنه عمرو بن عكرمة وهما فى النفس الأخير . فوضع رأس عكرمة على فخذه ووضع رأس عمرو على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر فى حلوقهما الماء ، ولم تنفع جهود خالد فى إنقاذهما فأسلما الروح ، فقال خالد :

— كلا ، زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد .

كانت العداوة مشبوبة بين المسلمين وأبى جهل ، فلما أسلم عكرمة بن أبى جهل كان بعض المسلمين يعيرونه بأبيه ، فنهى رسول الله — ﷺ — عن سب الآباء لأن ذلك يسىء للأحياء . وعلى الرغم من ذلك النهى كان بعض المسلمين يصرح أن الله لن يكرم أبناء أبى جهل بالشهادة ، ولكن الله أكرم ابن أبى جهل وحفيده فالله عادل لا ينتقم من الآباء فى الأبناء ، فكلّ مسئول عن عمله ، وإن الله يقول فى كتابه العظيم ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (١) .

قضى خالد على جحافل الروم عند اليرموك فى يوم واحد ، إنه يوم مشهود فى تاريخ الإسلام ، وهو يوم مشهود فى حياة سيف الله المسلول ، فراح أبو عبيدة بن الجراح ينظر فى كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعزل خالد وهو فى حيرة من أمره ، لا يدرى كيف يعلن النبأ دون أن يثير حفيظة صدور جنود لا يزالون فى نشوة النصر يذكرون بالفخر والإعجاب عبقرية فارس الإسلام الذى قادهم إلى فوز عظيم نادر ، قلما يجود الزمن بمثله .

وأعلن أبو عبيدة نبأ موت الصديق ومبايعة الناس لعمر بن الخطاب فسرت فى النفوس موجات أسى لموت أبى بكر . وكانت أسماء بنت أبى بكر مع زوجها الزبير بن العوام ؛ إنها قاتلت بالأمس مع النساء اللاتى قاتلن الأعداء لما نكص الرجال على أعقابهم فى أول النهار ، وإنها شاركت المسلمين أفراحهم لما جاء الله بالفتح ، وقد أمضت الليل مع صواحبها فى تضميد الجراح ، فإذا بها تتلقى من النساء والرجال أرق العزاء .

---

(١) الأنعام ١٦٤

وتذكرت رسول الله ــ ﷺ ــ فقد قرنت انتصاراته بالأحزان ، ماتت ابنته رقية يوم عاد منتصرا فى بدر ، ومات عمه حمزة يوم أحد ، وراح يبتهل إلى ربه ألا يفجعه فى علىّ بن أبى طالب ابن عمه وزوج ابنته يوم الخندق ، وماتت زينب وأم كلثوم بعد أن جاء نصر الله والفتح . إن لها فى رسول الله أسوة حسنة ، فلم تندب و لم تشق الجيب و لم تخمش الوجه ، بل صبرت صبرا جميلا يليق بربيبة الإسلام .

واستقبل أناس تولية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بفرح فياض ، بينما استقبل آخرون النبأ فى إشفاق وخيفة . و لم ينشرح صدر خالد للخبر فقد أحس أن فى الكتاب شيئا فى شأنه ، فابن الخطاب لا يحبه وقد طلب من أبى بكر مرارا أن يعزله و لم يقم وزنا لأنه ابن عم أمه ، أفيسكت عنه عمر وقد تولى إمارة المسلمين ؟

إن البريد لم يدفع إليه الكتاب وهو أمير الجيوش ، بل دفعه إلى أبى عبيدة وما ذلك إلا إيذانا بعزله . فمشى إلى أبى عبيدة يسأله الخبر ، فقال له أبو عبيدة إن أمير المؤمنين أمر بعزله وتوليته قيادة اللواء الذى كان يقوده أبو عبيدة قبل أن يصبح أميرا على الجيوش .

أطرق خالد هنيهة ثم قال :

ــ الحمد لله الذى قضى على أبى بكر الموت وكان أحب إلى من عمر . والحمد لله الذى ولَّى عمر وكان أبغض إلّى من أبى بكر ، وألزمنى حبه .

وقبل خالد أن يكون قائدا للواء أبى عبيدة عن طيب خاطر لم يثر و لم يشق عصا الطاعة فهو سيف الله المسلول سواء أكان قائد الجيوش فى اليرموك ، أم كان أمير لواء لما فتح المسلمون بيت المقدس ، أم جنديا عاديا فى جيش عمرو بن العاص لما فتح مصر به فقد أمر أن يطيع ولو ولّى عليه عبد

حبشى . كانت تلك وصية رسول الله — ﷺ — للمسلمين عامة ، وإنه ليطيع راضيا وصايا حبيبه نبى الإسلام عليه السلام .

وانقضت بموت أبى بكر الصديق أيام رسول الله — ﷺ ، فقد كانت خلافته امتدادا لعصر النبى — صلوات الله وسلامه عليه ، لم يبدل ولم يغير وكان متبعا ولم يكن مبتدعا ، وكان صاحبه فى الحياة وفى الممات .

القاهرة فى ٢٥ / ١١ / ١٩٧٠

المراجــع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى

السيرة النبوية — ابن هشام

إنسان العيون (السيرة الحلبية) — على بن برهان الدين الحلبى

بلوغ الأرب — للألوسى

نهاية الأرب — النويرى

إيران فى عهد الساسانيين — كريستنسن — ترجمة يحيى الخشاب

نور الأبصار — الشبلنجى

إحياء علوم الدين — الغزالى

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — الفاسى

حقوق الإنسان فى الإسلام — للدكتور على عبد الواحد وافى

محمد رسول الله — مولاى محمد على

الرسول . حياة محمد — ر . ف . بودلى — ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار

الإسلام والنظام العالمى الجديد — مولاى محمد على ترجمة أحمد جوده السحار

الدين القيم — المودودى

المستشرقون والإسلام — المهندس زكريا هاشم زكريا

نساء النبى	الدكتورة بنت الشاطئ
عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
الروض الأنف	السهيلى
تاريخ الطبرى	
مشكلة الحرية	الدكتور زكريا إبراهيم
فاطمة الزهراء والفاطميون	عباس محمود العقاد
أسباب النزول	الواحدى
شرح نهج البلاغة	ابن أبى الحديد
الملل والنحل	الشهرستانى
فجر الضمير	تأليف . چيمس هنرى برستيد ترجمة : الدكتور سليم حسن
تفصيل آيات القرآن الحكيم	جول لابوم ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى
الوحى المحمدى	السيد محمد رشيد رضا
سلم الواعظين	عبد الله بن الشيخ حسن الفارسى الكوهجى
الحضارة البيزنطية	ستيفن رنسيمان
كتاب الخراج	لأبى يوسف
الإسلام والاشتراكية	ميرزا محمد حسين ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب
النظرية العامة لكينز بين الرأسمالية والاشتراكية	دكتور جمال الدين محمد سعيد
رأس المال	كارل ماركس ترجمة دكتور راشد البراوى
الربا فى الإسلام	ترجمة فاروق حلمى

للمؤلف

		الطبعة الأولى
أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبى		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨

		الطبعة الأولى
أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢
هذه حياتى		فبراير سنة ١٩٧٥
مذكرات سينمائية		ابريل سنة ١٩٧٥

القصص الديني

(للأطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ جزءا
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ جزءا
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا

السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه
فى ٢٠ جزءا

١	ــ إبراهيم أبو الأنبياء	اكتوبر ١٩٦٥
٢	ــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	ــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	ــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	ــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦	ــ مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧	ــ اليتيم	اكتوبر ١٩٦٧
٨	ــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	ــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	ــ عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١	ــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	ــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	ــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	ــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	ــ صلح الحديبية	يونيه ١٩٦٩
١٦	ــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	ــ غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨	ــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	ــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	ــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

الأستاذ على أحمد باكثير

١ ـ اخناتون ونفرتيتى
٢ ـ سلامة القس
٣ ـ وا اسلاماه
٤ ـ قصر الهودج
٥ ـ الفرعون الموعود
٦ ـ شيلوك الجديد
٧ ـ عودة الفردوس
٨ ـ روميو وچولييت
(مترجمة عن شكسبير بالشعر المرسل) .
٩ ـ سر الحاكم يأمر الله
١٠ ـ ليلة النهر
١١ ـ السلسلة والغفران
١٢ ـ الثائر الأحمر
١٣ ـ الدكتور حازم
١٤ ـ أبو دلامة (مضحك الخليفة)
١٥ ـ مسمار جحا
١٦ ـ مسرح السياسة
١٧ ـ مأساة أوديب
١٨ ـ سر شهرزاد
١٩ ـ سيرة شجاع
٢٠ ـ شعب الله المختار
٢١ ـ امبراطورية فى المزاد
٢٢ ـ الدنيا فوضى
٢٣ ـ اوزوريس
٢٤ ـ فن المسرحية من خلال تجاربى الشخصية
٢٥ ـ دار ابن لقمان
٢٦ ـ قطط وفيران

رقم الإيداع : ٤٠٣٣
الترقيم الدولى ٣ ــ ٢٧٥ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧